نسخة جديدة

Agatha Christie®

أجاثا كريستي

عن طريق وخز الإبهام

مغامرة من مغامرات تومي وتوبينس

مكتبة

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore
... ليست مجرد مكتبة

هدية ذكرى الميلاد المتأخرة
لنحتفل من جديد ..

عن طريق
وخز الإبهام

مغامرة من مغامرات تومي وتوبينس

عن طريق وخز الإبهام

أجاثا كريستي

مغامرة من مغامرات تومي وتوبينس

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore ...ليست مجرد مكتبة

للتعرف على فروعنا

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarir.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

تحديد مسئولية / إخلاء مسئولية من أي ضمان

هذه ترجمة عربية لطبعة اللغة الإنجليزية. لقد بذلنا قصارى جهدنا في ترجمة هذا الكتاب، ولكن بسبب القيود المتأصلة في طبيعة الترجمة، والناتجة عن تعقيدات اللغة، واحتمال وجود عدد من الترجمات والتفسيرات المختلفة لكلمات وعبارات معينة، فإننا نعلن وبكل وضوح أننا لا نتحمل أي مسئولية ونُخلي مسئوليتنا بخاصة عن أي ضمانات ضمنية متعلقة بملاءمة الكتاب لأغراض شرائه العادية أو ملاءمته لغرض معين. كما أننا لن نتحمّل أي مسئولية عن أي خسائر في الأرباح أو أي خسائر تجارية أخرى، بما في ذلك على سبيل المثال لا الحصر، الخسائر العرضية، أو المترتبة، أو غيرها من الخسائر.

الطبعة الأولى 2021

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

ARABIC edition published by JARIR BOOKSTORE.
Copyright © 2021. All rights reserved.

Agatha Christie®

By the Pricking of My Thumbs

مجموعة روايات لـ أجاثا كريستي

راكب إلى فرانكفورت
إعلان عن جريمة
أوراق لعب على الطاولة
خطر في إند هاوس
القتل السهل
الموت على ضفاف النيل
القضية الغامضة في مدينة ستايلز
خداع المرايا
الجواد الأشهب
لغز القطار الأزرق
الأفيال تستطيع أن تتذكر
الموت يأتي في النهاية

ثلاثة فئران عمياء وقصص أخرى
السيد كوين الغامض
تحريات باركرباين
من الذى قتل السيد روجر؟
أكروويد
أبجدية القتلى
جريمة وانتقام
موت في السحاب
بيت الرجل الميت
شجرة السرو الحزينة
واختفى كل شيء
جريمة في بغداد

أهـدي هذه الرواية إلـى الكثير من القراء في هذا البلد وغيره من البلدان، الذين كتبوا إليَّ يسألونني: "ما الذي حـدث لتومي وتوبينس؟ ما الذي يفعلانه الآن؟". أطيب تمنياتـي للجميـع، وأتمنـى أن تسـتمتعوا بمقابلة تومي وتوبينـس مـرة أخرى وقـد زاد في العمر سـنوات، لكن روحهما ما زالتا متوهجتين.

أجاثا كريستي

المحتويات

الجزء 1: قمة الجبل المشمسة

1. الخالة آدا 5
2. أكانت هي ابنتك المسكينة؟ 17
3. الجنازة 36
4. صورة لمنزل 42
5. اختفاء سيدة عجوز 61
6. توبينس تقتفي الأثر 76

الجزء 2: المنزل المطل على القناة

7. الساحرة الطيبة 87
8. سوتون تشنسلر 111
9. صباح يوم في ماركت باسنج 150

الجزء 3: زوجة مفقودة

10 المؤتمر، وما بعده 169
11 شارع بوند، ودكتور موراي 184
12 تومي يقابل صديقًا قديمًا 205
13 ألبرت والأدلة 234

الجزء 4: هذه هي دار العبادة، وهذا هو برجها. افتح الأبواب وستجد روادها

14 الكثير من التفكير 257
15 أمسية في دار العبادة 272
16 صباح اليوم التالي 294
17 السيدة لانكستر 307

ذلك الوخز في أصبعي الإبهام يعني أن ثمة
شرًّا في الطريق إلينا.

- ماكبث

الجزء الأول

قمة الجبل المشمسة

الفصل الأول

مكتبة الخالة آدا
t.me/soramnqraa

كان السيد بيريسفورد وزوجته يجلسان إلى مائدة الإفطار، وهما زوجان عاديان، مثل مئات الأزواج كبار السن الذين يتناولون إفطارهم في جميع أرجاء إنجلترا في ذلك الوقت من اليوم، فلقد كان يومًا عاديًا أيضًا من أيام العمل الخمسة في الأسبوع، وقد بدت السماء ملبدة بالغيوم، لكن سقوط المطر لم يكن مؤكدًا.

كان شعر السيد بيريسفورد أحمر فيما مضى، ولا يزال يحمل مسحة من هذا الاحمرار، لكن معظمه تحول إلى لون رمادي يميل إلى الأصفر، وهو اللون الذي عادة ما يصير إليه ذوو الشعر الأحمر عندما يصبحون في منتصف العمر. وكان شعر زوجته السيدة بيريسفورد أسود مموجًا، لكن الآن خالط الشيب شعرها بخصلات من الشعر الرمادي المبعثرة بشكل عشوائي؛ ما أضفى عليها طابعًا مبهجًا. فكرت السيدة بيريسفورد ذات مرة أن تصبغ شعرها، لكنها في النهاية أحجمت عن ذلك، قائلة لنفسها إنها تحب ما فعلته الطبيعة بها، وإن كانت قد جربت لونًا جديدًا من أحمر الشفاه ليرفع روحها المعنوية.

كانا إذن زوجين طاعنين في السن يتناولان طعام الإفطار معًا، زوجين سعيدين لكنهما يبدوان ظاهريًا لمن لا يعرفهما أنه لا شيء مميز فيهما، فلو مر بهما شاب، لقال في نفسه: "ها هما زوجان لطيفان ومملان شأن كل كبار السن".

غير أن السيد بيريسفورد وزوجته لم يصلا بعد إلى تلك المرحلة من حياتهما التي ينظران فيها إلى نفسيهما على أنهما مسنان، ولم يكونا يعرفان أن معظم المحيطين بهم ينظرون تلقائيًا إليهما وإلى كثيرين غيرهما بأنهم مملون بسبب كِبَرِ السن فقط. كانا يظنان أن الشباب فقط هم من ينظرون إليهما هذه النظرة، وكانا يجدان العزاء في أن الشباب لا يعرفون شيئًا عن الحياة، وأنهم مساكين يقلقون دائمًا بشأن الاختبارات، أو حياتهم العاطفية، أو شراء ملابس باهظة الثمن، أو اختيار قصّات شعر عجيبة كي يلفتوا الأنظار. كان السيد بيريسفورد وزوجته يريان أنهما تجاوزا ريعان الشباب من فورهما، وكان كلاهما يحب نفسه ويحب الآخر، وتمضي حياتهما يومًا بعد آخر في هناء.

كانا يواجهان بالطبع لحظات صعبة شأن كل الناس؛ حيث فتح السيد بيريسفورد خطابًا، وقرأه سريعًا، ثم وضعه على كومة صغيرة من الخطابات على يساره. ثم التقط الخطاب التالي، لكنه لم يفتحه، بل ظل ممسكًا به، وهو شاخص البصر إلى طبق الخبز المحمص، وقد لاحظت زوجته ذلك للحظات، قبل أن تقول له:

"ما الخطب، يا تومي؟".

أجابها بغموض: "أي خطب؟ أي خطب؟".

قالت السيدة بيريسفورد: "هذا ما أسألك بشأنه".

ردَّ السيد بيريسفورد قائلاً: "لا خطب في شيء؟ أي خطب سيحدث لنا؟".

قالت توبينس كأنها تتهمه بشيء: "أنت تفكر في شيء ما".

قال تومي: "لا أعتقد أنني كنت أفكر في أي شيء على الإطلاق".

ردت توبينس: "بل كنت تفكر في شيء. هل حدث شيء ما؟".

فأجاب: "لا، لم يحدث شيء بالتأكيد. ما الذي قد يحدث؟"، ثم أردف: "لقد تلقيت فاتورة السباك".

قالت توبينس بلهجة متفهمة: "أوه، أعتقد أن المبلغ كان أكبر من المتوقع".

قال تومي: "بالطبع؛ فهذا ما يحدث دائمًا".

قالت توبينس: "لا أدري لماذا لم نتعلم حرفة السباكة. لو كنتَ تعلمتَ السباكة، لكنتُ زوجة سباك، وكنا سنجني الكثير من الأموال يومًا بعد آخر".

قال تومي: "إنه لقصر نظر منا أننا لم نفكر في هذه الفرص".

قالت توبينس: "هل كانت الورقة التي تنظر إليها الآن هي فاتورة السباك؟".

قال تومي: "لا، بل كانت مناشدة بالتبرع".

قالت توبينس: "من أجل الصبية الجانحين ... مكافحة التمييز العنصري؟".

فأجابها: "لا، بل من أجل دار لرعاية المسنين سيفتحونها قريبًا".

فقالت توبينس: "حسنًا، هذا شيء إنساني على أية حال، لكني لا أفهم لماذا تبدو قلقًا بشأن هذا".

قال تومي: "لا، لم أكن أفكر في هذا".

قالت توبينس: "فما الذي كنت تفكر فيه إذن؟".

قال السيد بيريسفورد: "هناك شيء ما يجول بخاطري".

قالت توبينس: "ما هذا الشيء؟ أنت تعلم أنك ستخبرني في النهاية".

قال تومي: "ليس بالشيء المهم في الحقيقة، فلقد كنت أفكر في ... الخالة آدا".

فقالت "توبينس" وقد فهمت مقصده على الفور: "أوه، فهمت"، ثم أضافت بنبرة ناعمة متأملة: "الخالة آدا".

تلاقت أعينهما بما يوحي بشيء ما، فمن المؤسف أنه توجد مشكلة، مثل مشكلة الخالة آدا، في كل العائلات تقريبًا هذه الأيام، وإن اختلفت أسماؤهن: الخالة إيمليا والخالة سوزان والخالة كاثي والخالة جوان، وكذلك صلة قرابتهن: جدة، أو ابنة عم طاعنة في السن، أو حتى عمة أحد والديك. إنهن لا يزلن على قيد الحياة، ويمثلن مشكلة يتعين التعامل معها؛ حيث ينبغي إجراء ترتيبات، والقيام بفحص المؤسسات الملائمة للاعتناء بكبار السن والتقصي عنهم، والتماس توصيات من الأطباء والأصدقاء الذين كانوا يعتنون بذويهم ممن يشبهون الخالة آدا، الذين "عاشوا في سعادة تامًا حتى وفاتهم" في دار رعاية "الأكاليل"، ببلدة بيكسهيل أو "المراعي السعيدة"، ببلدة سكاربورو".

لقد ولّت الأيام التي كان بإمكان الخالة إليزابيث أو الخالة آدا ومن شابههما، العيش لبقية حياتهن في المنازل التي عشن فيها لسنوات عديدة قبل بلوغهن من العمر أرذله، ويقوم على رعايتهن خدمهن القدامى المتفانون، وإن كانوا متعسفين في بعض الأحيان". وهكذا، كان الطرفان ـ المعتنى بهن وذووهن ـ راضين تمامًا بهذا الإجراء.

لكن كان هناك أيضًا الكثير من القريبات الفقيرات، أو العانسات الخرقاوات، اللائي يرغبن في منزل كبير، يتناولن فيه ثلاث وجبات يوميًا، وينمن في غرفة نوم فسيحة، وهذا كان يتم في الماضي دون أدنى مشكلة، أما الآن فقد اختلف الوضع.

بالنسبة إلى مثيلات الخالة "آدا" اليوم، لابد أن تكون الترتيبات مناسبة أكثر، ليس فقط بسبب أن النساء الكبيرات في السن عرضة للسقوط من على السلم إذا تُركن للعيش بمفردهن في المنزل نظرًا لإصابتهن بالتهاب المفاصل أو صعوبات أخرى مرتبطة بالروماتيزم، أو بسبب إصابتهن بالتهاب شعبي، أو بسبب شجارهن مع جيرانهن وشتمهن للتجار.

لكن من المؤسف أن مثيلات الخالة "آدا" اليوم صرن يسببن مشكلات بمقدار يفوق كثيرًا ما يسببه الطرف المقابل لهن في نطاق العمر وهم الأطفال، فالأطفال يمكن إيداعهم دور رعاية، أو انتقالهم للعيش مع أقاربهم، أو إلحاقهم بمدارس داخلية يمكنهم قضاء العطلات فيها، أو إرسالهم في رحلات أو إلى معسكرات، وبوجه عام، لا يصدر من الأطفال معارضة كبيرة إزاء ما يُرتَّب لهم من إجراءات، لكن مثيلات الخالة آدا يختلفن عن الأطفال كثيرًا في هذا، فالعمة برايمروز ـ عمة والدة توبينس

بيريسفورد ـ ممن يُعرف عنها إثارة المشكلات، وأنه من المستحيل إرضاؤها؛ فإنها لا تكاد تدخل دار رعاية معروفة بتقديم كل سبل الراحة لكبار السن، إلا وتبعث رسائل إلى ابنة أختها تمدح فيها هذه الدار تحديدًا، لكن سرعان ما تأتي الأخبار بأن برايمروز تركت الدار ساخطة دون أن تُعلم الدار بهذا.

"الوضع مريع، لا يسعني البقاء هناك دقيقة أخرى!".

وفي غضون عام، انتقلت العمة برايمروز إلى إحدى عشرة دارًا، وأخيرًا كتبت إلى توبينس لتخبرها بأنها تعرفت على شاب يشع جاذبية، وقالت في خطابها لها: "هو فتى شديد التفاني، وقد فقد أمه في سن صغيرة، وبحاجة إلى من يعتني به. لقد استأجرت شقة وسيأتي للعيش معي، وهذه الخطوة تناسب كلًّا منا تمامًا؛ فنحن متشابهان بالفطرة. لست بحاجة للقلق عليَّ بعد الآن، عزيزتي؛ فقد رتبت لمستقبلي، وأنا ذاهبة لمقابلة المحامي غدًا لأخصص جزءًا من ميراثي لميرفن إذا مت قبله، وهذا هو الطبيعي، وإن كنتُ أؤكد لك أنني حاليًا أشعر بأنني في أفضل صحة".

هرعت توبينس شمالًا (حيث وقعت الحادثة في مدينة أبردين). كانت الشرطة قد وصلت إلى هناك قبل توبينس، وألقت القبض على ميرفن الجذاب، الذي كانوا يبحثون عنه منذ وقت لاتهامه بالاستيلاء على أموال بالنصب. هاجت العمة برايمروز في البداية، واتهمت الشرطة باضطهاد ميرفن، لكن بعد حضورها جلسات محاكمته (التي ظهرت فيها خمس وعشرون قضية أخرى لميرفن)، اضطرت العمة برايمروز إلى تغيير رأيها في ميرفن الذي شملته برعايتها.

قال تومي: "أعتقد أنه يجب عليَّ الذهاب لزيارة الخالة آدا، يا توبينس، فأنا لم أرها منذ فترة".

فقالت توبينس بلا حماس: "أنت محق. متى كانت آخر مرة زرتها فيها؟".

فكر تومي، ثم قال: "منذ عام تقريبًا".

قالت توبينس: "أكثر من هذا، أعتقد أن المدة تزيد على العام".

فقال تومي: "يا إلهي، الوقت يمضي سريعًا، أليس كذلك؟ لا أصدق أن كل هذا الوقت قد مر، لكني أعتقد أنك محقة، يا توبينس". ثم حاول احتساب المدة، قائلًا: "من المريع أن ينسى المرء هكذا، أليس كذلك؟ هذا حقًا يجعلني أشعر بإحساس سيئ".

قالت توبينس: "لا تؤنب نفسك؛ فنحن نرسل إليها هدايا ونكتب لها خطابات".

قال تومي: "أجل، أعرف. أنت بارعة في هذه الأشياء، يا توبينس، لكن على كل حال، يمكن أن يقرأ المرء أشياء تثير في نفسه القلق والاضطراب".

قالت توبينس: "أنت تفكر في ذلك الكتاب المريع الذي استعرناه من المكتبة، والذي يتناول مدى سوء حياة كبار السن وعظم معاناتهم".

قال تومي: "أعتقد أن هذا الكتاب يرصد معاناة حقيقية من أرض الواقع".

قالت توبينس: "أجل، لا بد أن هناك أماكن من هذا النوع، وكذلك هناك أشخاص غاية في التعاسة لا يستطيعون فعل شيء حيال ذلك. لكن ما الذي بإمكان المرء فعله، يا تومي؟".

قال تومي: "بإمكان المرء أن يكون حريصًا قدر الإمكان، حريصًا فيما يختاره لأحبائه، ويتقصى عن كل التفاصيل الخاصة بهم، ويتأكد أن هناك أطباء لطفاء يعتنون بهم".

قالت توبينس: "ليس هناك من هو من ألطف من د. موراي، وأنت لا يمكنك إنكار ذلك".

قال تومي، وقد تلاشت أمارات القلق من على وجهه: "أجل، موراي طبيب ممتاز، وطيب، وصبور، وهو يخبرنا بأي خطب يحدث".

قالت توبينس: "ولذا أنت لست بحاجة إلى أن تقلق بشأنها. كم عمرها الآن؟".

قال تومي: "اثنان وثمانون عامًا. لا، لا، أعتقد أنه ثلاثة وثمانون. ما أسوأ أن يعيش الإنسان بعد موت سائر أبناء جيله!".

فقالت توبينس: "هذا ما نشعر نحن به، أما هم فلا يشعرون بهذا".

قال تومي: "لا يمكنك الجزم بهذا".

قالت توبينس: "حسنًا، إن خالتك لا تشعر بهذا. ألا تتذكر كيف أحصت لنا في سعادة عدد أصدقائها القدامى الذين ماتوا قبلها؟ وأنهت تعدادها بقولها 'أما بالنسبة إلى إيمي مورجان، لقد سمعتُ أنها لم يتبق لها في الحياة أكثر من ستة أشهر. لقد كانت دائمًا تقول إنني هزيلة، لكن الآن من المؤكد تقريبًا أنني

سأعيش بعدها سنوات عديدة'. إنها تشعر بانتصار فيما يتعلق بهذه الأمور".

قال تومي: " لكن مع ذلك ...".

قاطعته توبينس قائلة: "أعلم، أعلم. لكن مع ذلك أنت تشعر بأن هذا واجبك، ولذا يجب أن تذهب لزيارتها".

قال تومي: "ألا تعتقدين أنني محق؟".

فأجابت توبينس: "للأسف أعتقد بالفعل أنك محق، محق تمامًا"، ثم أضافت بنبرة بطولية: "وأنا سأذهب معك أيضًا".

قال تومي: "لا، ولمَ يتعين عليك الذهاب؟ إنها ليست خالتك. كلا، سأذهب بمفردي".

قالت السيدة بيريسفورد: "لا مانع لديَّ في الذهاب على الإطلاق، أنا أحب أن أعاني أيضًا. سنعاني معًا. أنت لن تستمتع بالزيارة، وأنا لن أستمتع بها، ولا أعتقد أن الخالة آدا ستستمتع بلحظة فيها، لكنني أدرك تمامًا أن هذه الزيارة أحد الأشياء التي ينبغي القيام بها".

قال تومي: "لا، أنا لا أريدك أن تأتي. ألا تتذكرين كيف كانت فظة للغاية معك في آخر زيارة؟".

فأجابت توبينس: "أوه، لا بأس في ذلك. فهذه على الأرجح كانت الزيارة الوحيدة التي استمتعت بها المرأة المسكينة، وأنا لا أحمل لها ضغينة جراء ذلك".

قال تومي: "لقد كنتِ دائمًا لطيفة معها، رغم أنها لا تروقك كثيرًا".

قالت توبينس: "لا أحد يطيق الخالة آدا، وإذا طلبت رأيي، فسأقول لكِ إنه ليس هناك من كان يطيقها يومًا".

قال تومي: "لا يسعني سوى أن أتعاطف مع كبار السن".

قالت توبينس: "أنا يسعني عدم التعاطف معهم؛ فأنا ليست لديَّ طبيعة لطيفة مثلك".

قال تومي: "أنت أكثر قسوة؛ لأنك امرأة".

"أعتقد أن هذا صحيح، ففي نهاية المطاف، ليس أمام النساء وقت للتفكير في أي شيء سوى الأمور الواقعية. أعني أنني أشعر بالأسف حيال الأشخاص عندما يطعنون في السن أو يمرضون أو أي شيء من هذا القبيل، هذا إذا كانوا أشخاصًا لطفاء، لكن إذا لم يكونوا لطفاء، فلا يمكنك أن تنكر أن الشعور يكون مختلفًا. إذا كنت شخصًا بغيضًا وأنت في العشرين من العمر، وبغيضًا بالقدر نفسه وأنت في الأربعين، وأكثر بغضًا وأنت في الستين، ويبلغ بغضك أقصى مداه وأنت في الثمانين، فأنا لا أرى سببًا يدفع أحدًا للتعاطف معك، لمجرد أنك مسن. لا يمكنك تغيير نفسك في الواقع، وأنا أعرف بعض السيدات غاية في اللطف وهن في سن السبعين أو الثمانين، مثل السيدة بوشامب العجوز، وماري كار، وجدة الخباز، السيدة المسنة العزيزة بوبليت، التي كانت تنظف منزلنا. كن جميعًا لطيفات ودمثات، وأنا مستعدة لفعل أي شيء من أجلهن".

قال تومي: "حسنًا، حسنًا. كوني واقعية كما تشائين، لكن إذا أردتِ أن تتصرفي بنبل وتذهبي معي ..."

قاطعته توبينس: "أنا أريد الذهاب معك، ففي نهاية المطاف، لقد تزوجتك على السراء والضراء، والخالة آدا تقع بالتأكيد في نطاق الضراء، ولذا سأذهب معك، ويدي في يدك، وسأحضر لها باقة زهور وعلبة من الشيكولاتة المحشوة، وربما مجلة أو اثنتين. يمكنك أن تكتب إلى تلك السيدة التي لا أتذكر اسمها، وتخبرها بأننا سنأتي".

قال تومي: "أيناسبك يوم معين في الأسبوع المقبل؟".

قالت توبينس: "الثلاثاء. ما اسم المرأة؟ لا أتذكره... المديرة أو المشرفة أو أيًا كان عملها .. أعتقد أن اسمها يبدأ بحرف الباء؟".

قال تومي: "السيدة باكارد".

قالت توبينس: "هذا صحيح".

قال تومي: "ربما سيكون الأمر مختلفًا هذه المرة".

قالت توبينس: "مختلف؟ بأي طريقة؟".

قال تومي: "أوه، لا أعرف. ربما يحدث شيء مثير".

قالت توبينس وقد بدا عليها الابتهاج قليلاً: "قد نتعرض لحادث قطار".

قال تومي: "لماذا بحق السماء قد نتعرض لحادث قطار؟".

قالت توبينس: "لا أعرف في الواقع .. هذا مجرد..."

قال تومي: "مجرد ماذا؟".

قالت توبينس: "حسنًا، ستكون هذه مغامرة من نوع ما، أليس كذلك؟ ربما يمكننا حينها إنقاذ حياة بعض الناس أو فعل شيء مفيد، مفيد ومثير في الوقت نفسه".

قال السيد بيريسفورد: "يا لها من أمنية!".

قالت توبينس متفقة معه: "أعرف. إنها فقط مجرد أفكار تتبادر إلى ذهن المرء في بعض الأحيان".

الفصل الثاني

أكانت هي ابنتك المسكينة؟

من الصعب تخمين كيف أُطلق على الدار اسم 'قمة الجبل المشمسة'؛ إذ لا شيء يوحي بالجبال وقممها هنا؛ فالأرض مستوية، وهي بالتأكيد أكثر ملاءمة لقاطني الدار من كبار السن، كما يوجد بالدار حديقة فسيحة، وإن لم يكن بها شيء مميز. وكانت الدار نفسها عبارة عن قصر كبير نسبيًا على الطراز الفيكتوري القديم، لكنه في حالة جيدة، إذ كانت ثمة بعض الأشجار وارفة الظلال التي تبهج الناظرين، ونبات اللبلاب الذي يحيط بالدار، بالإضافة إلى شجرتي أروكاريا اللتين تضفيان على الأجواء إحساسًا غريبًا، وتتراص عدة مقاعد في أماكن ملائمة للاستمتاع بضوء الشمس، كما توجد شرفة مسقوفة تجلس عليها السيدات المسنات لاتقاء الرياح الشمالية.

رن تومي جرس الباب ومعه توبينس، ففتحت لهما الباب عاملة شابة، ترتدي زيًا من النايلون، وقد بدا عليها الإرهاق، وقادتهما إلى غرفة جلوس صغيرة، وقالت وهي تلهث: "سأخبر السيدة باكارد بقدومكما؛ فهي تنتظركما وستنزل بعد لحظات. أرجو ألا تمانعا في الانتظار قليلاً؛ فنحن لدينا مشكلة متعلقة

بالسيدة كارواي التي ابتلعت الكشتبان الخاص بها مرة أخرى".

فسألت توبينس في ذهول: "ما الذي يجعلها تفعل ذلك بحق السماء؟".

فشرحت لها عاملة الدار باختصار، قائلة: "لقد فعلتْ ذلك من باب اللهو، فهي دائمًا ما تفعل ذلك".

غادرت العاملة، وجلست توبينس، وقالت وهي مستغرقة في التفكير: "لا أظن أنني سيروقني ابتلاع الكشتبان؛ إذ سيكون مليئًا بالزغب وأنا أبتلعه. ألا تظن هذا؟".

لم يمض وقت طويل، قبل أن ينفتح الباب، وتدخل السيدة باكارد، وتقدم اعتذارها عن التأخير. كانت امرأة ضخمة، شعرها رملي اللون، في الخمسين تقريبًا من عمرها، تحمل هالة من الكفاءة الهادئة التي كانت دائمًا مثار إعجاب "تومي".

قالت باكارد: "أعتذر عن انتظارك، يا سيد بيريسفورد. كيف حالك، يا سيدة بيريسفورد؟ يسعدني مجيئك أيضًا".

قال تومي: "سمعتُ أن هناك شخصًا ابتلع شيئًا".

قالت باكارد: "أوه، لقد أخبرتكما مارلين بهذا إذن؟ أجل، لقد كانت السيدة كارواي. إنها دائما تبتلع أشياء، ومن الصعب إيقافها؛ فنحن لا يمكننا مراقبة النزلاء طوال الوقت. بالطبع نحن نعلم أن هذا فعل طفولي، لكنه يبدو هواية غريبة لامرأة مسنة، أليس كذلك؟ وهذه الهواية تتملكها بشكل متزايد، ووضعها يسوء عامًا بعد آخر. الشيء الوحيد المبهج في الأمر أنه من الواضح أن هذه الهواية لا تؤذيها في شيء".

قالت توبينس: "ربما كان والدها ممن يبتلعون السيوف".

قالت باكارد: "هذه فكرة مثيرة، يا سيدة بيريسفورد؛ فهي ربما *ستفسر* أشياء لنا. لقد أخبرت السيدة فانشاو بأنك قادم لزيارتها، يا سيد بيريسفورد، لكني لا أعرف حقًا إذا كانت قد وعت ما أقول؛ فهي ليست في وعيها دائمًا كما تعرف".

قال تومي: "كيف حالها مؤخرًا؟".

قالت السيدة "باكارد" بصوت مريح: "أخشى أن حالتها تتدهور سريعًا، ولا يسعنا معرفة ما الذي تستوعبه وما الذي لا تستوعبه. لقد أخبرتها في الأمس بقدومك، فقالت لي إنني مخطئة بالتأكيد لأن هذا وقت الدراسة. لقد بدا أنها تعتقد أنك لا تزال تدرس في المدرسة. يا لهم من مسنين مساكين تختلط عليهم الأمور، لاسيما فيما يتعلق بالزمن؛ غير أنني عندما أخبرتها بزيارتك هذا الصباح، قالت إن هذا مستحيل لأنك ميت. يا إلهي!"، لكن السيدة باكارد أضافت في ابتهاج: "أعتقد أنها ستتعرف عليك عندما تراك".

قال تومي: "كيف حالتها الصحية؟ أهي متدهورة أيضًا؟".

قالت السيدة باكارد: "هي في حالة جيدة، لكنني بصراحة لا أعتقد أنها ستعيش طويلًا. إنها لا تعاني أي شيء، لكن حالة قلبها لم تعد كالسابق، بل تزداد سوءًا، ولهذا أعتقد أنه من الأفضل لك أن تعلم ذلك كي تكون مستعدًا حتى لا تُصدم بقوة إذا ما رحلتْ فجأة".

قالت توبينس: "لقد جلبنا لها بعض الزهور".

أضاف تومي: "وعلبة شيكولاتة".

قالت السيدة باكارد: "هذا لطف شديد منكما، وستسعد بذلك كثيرًا. هل تريدان الصعود لرؤيتها الآن؟".

نهض تومي وتوبينس، وتبعا السيدة باكارد إلى خارج الغرفة، ومنها إلى السلم العريض، وبينما يمرون بإحدى الغرف في الممر بالطابق العلوي، انفتح باب الغرفة فجأة، لتتبدى منه امرأة قصيرة، يبلغ طولها نحو متر ونصف المتر، وتصيح بصوت عالٍ حاد: "أريد تناول الكاكاو .. أريد تناول الكاكاو .. أين الممرضة جين؟ أريد تناول الكاكاو".

فخرجت ممرضة من الغرفة المجاورة، وقالت: "اهدئي، يا عزيزتي. لقد شربت الكاكاو .. لقد شربته منذ عشرين دقيقة".

قالت المرأة: "لا، لم يحدث، أيتها الممرضة. هذا ليس صحيحًا. أنا لم أشرب أي كاكاو. أنا ظمأى".

قالت الممرضة: "حسنًا، سأعد لكِ كوبًا ثانيًا إذا كنتِ تريدين واحدًا".

قالت المرأة: "كيف أحظى بكوب ثانٍ وأنا لم أتناول كوبًا أول؟".

أكمل الثلاثة سيرهم في الممر، وتوقفوا عند غرفة في نهاية الممر، وقد طرقت السيدة باكارد باب الغرفة عدة طرقات سريعة، ثم فتحته ودخلت.

وقالت في بهجة: "ها هو ابن أختك قد جاء لزيارتك، يا سيدة فانشاو. أليست هذه زيارة لطيفة؟".

انتصبت فجأة الخالة آدا التي كانت مستلقية على سرير بقرب النافذة، وجلست على الوسائد. كان شعرها رماديًا داكنًا، ووجهها رفيعًا مجعدًا، وأنفها كبيرًا مدببًا، ويحمل وجهها انطباعًا عامًا بالاستنكار.

اقترب منها تومي، قائلاً: "مرحبًا، يا خالة آدا. كيف حالك؟".

لم تعره الخالة انتباهاً، بل وجهت حديثها إلى السيدة باكارد في غضب، قائلة: "كيف تجرئين على إدخال رجل في غرفة سيدة. لم يكن هذا أمرًا لائقًا على الإطلاق أيام شبابي! وها أنت تخبرينني بأنه ابن أختي. حقًا! من هو بحق؟ السباك أم الكهربائي؟".

فردت السيدة باكارد بهدوء: "هذا ليس تصرفًا لطيفًا".

قال تومي: "أنا ابن اختك، توماس بيريسفورد"، ثم قدم لها علبة الشيكولاتة، وهو يقول: "لقد أحضرتُ لك علبة شيكولاتة".

قالت الخالة آدا: "لا يمكنك خداعي بهذه الطريقة. أعرف نوعيتك من الأشخاص المستعدين لقول أي شيء لخداع الآخرين"، ثم رمقت السيدة بيريسفورد بنظرة احتقار، وقالت: "من هذه المرأة؟".

قالت السيدة بيريسفورد: "أنا برودنس، زوجة ابن أختك".

قالت الخالة آدا: "يا له من اسم سخيف! أشبه باسم خادمة. كانت كبيرة الخدم في بيت عم أبي ماثيو اسمها 'راحة'، وكانت الخادمة اسمها 'هبة الله'، نظرًا لتدينها، لكن زوجته لم يرقها هذا الاسم، وأخبرت الخادمة بأن اسمهما سيكون ريبيكا ما دامت تعيش في *منزلها*".

قالت توبينس: "لقد أحضرت لك بعض الزهور".

قالت الخالة آدا: "لا أريد زهورًا في غرفتي وأنا مريضة؛ فهي تستهلك كل الأكسجين".

قالت السيدة باكارد: "سأضعها لك في زهرية".

قالت الخالة آدا: "لا تفعلي شيئًا من هذا القبيل. من المفترض أن تكوني على يقين أنني بعد هذا العمر أعرف ما أريد".

قال السيد بيريسفورد: "تبدين بحالة جيدة، يا خالة آدا، بل وفي حالة تسمح بالقتال حتى".

قالت الخالة آدا: "بإمكاني تبين حقيقتك. ما الذي تعنيه بقولك إنك ابن أختي؟ لم يكن لديَّ ابن أخت سوى واحد فقط اسمه ويليام، وقد مات في الحرب الأخيرة. هذا شيء جيد له أيضًا؛ لأنه لو كان عاش، لكان قد سار في طريق السوء"، ثم عادت بظهرها إلى الخلف، مستندة على وسائدها، والتفتت برأسها إلى السيدة باكارد، وقالت: "أخرجيهما من هنا. ينبغي عليكِ ألا تسمحي لغرباء برؤيتي".

قالت السيدة باكارد دون أن تنزعج من كلام الخالة آدا: "كنت أعتقد أن زيارة صغيرة لطيفة قد تُبهجك".

ندت من الخالة آدا ضحكة ساخرة عالية.

قالت توبينس في ابتهاج: "حسنًا، سننصرف الآن، وسأترك لك الزهور؛ إذ ربما تغيرين رأيك. هيا يا تومي"، ثم اتجهت صوب الباب.

قال تومي: "وداعًا، يا خالة آدا. يؤسفني أنك لا تتذكرينني".

ظلت الخالة آدا صامتة إلى أن غادرت برودنس الغرفة، وتبعتها السيدة باكارد وتومي.

ثم قالت بصوت مرتفع: "عد، أيها الرجل. أنا أعرفك جيدًا. أنت توماس الذي كان شعره أحمر فيما مضى. كان لون شعرك

قريبًا من لون الجزر. عد، وسأتحدث إليك. أنا فقط لا أريد هذه المرأة. إن تظاهرها بأنها زوجتك لن يجدي نفعًا؛ فأنا أعرف الحقيقة، ينبغي عليك ألا تجلب هذه النوعية من النساء هنا. تعال واجلس هنا على هذا الكرسي، وحدثني عن أحوال أمك العزيزة"، ثم أردفت وهي تلوح بيدها نحو توبينس التي كانت تقف مترددة عند الباب: "فلتنصرفي أنتِ".

فخرجت توبينس في الحال.

قالت السيدة باكارد بهدوء لتوبينس بينما تهبطان السلم: "هذه هي تصرفاتها المعتادة. أحيانًا تكون لطيفة، وأعلم أن هذا صعب التصديق".

جلس تومي على الكرسي الذي أشارت إليه الخالة آدا، وقال لها بلطف إنه ليس لديه الكثير ليقوله بشأن أمه لأنها متوفاة منذ ما يقرب من أربعين عامًا.

لم تندهش الخالة آدا من قوله، بل قالت: "عجبًا، هل أمضت كل هذه المدة؟ إن الوقت يمضي سريعًا"، ثم رمقته بنظرة متأملة، وقالت: "لماذا لم تتزوج؟ ابحث عن امرأة جيدة لتعتني بك؛ فأنت تتقدم في العمر. أنقذ نفسك من كل هؤلاء النساء الماجنات اللاتي ترافقهن وتجلبهن إلى هنا على أنهن زوجاتك".

قال تومي: "أعتقد أنني سأطلب من توبينس أن تجلب معها عقد الزواج في زيارتنا المقبلة لكِ".

فقالت الخالة آدا: "أنت جعلت منها امرأة عفيفة، أليس كذلك؟".

قال تومي: "نحن متزوجان منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ولدينا ابن وابنة، وكلاهما متزوج أيضًا".

قالت الخالة آدا، وقد غيرت مجرى الحديث ببراعة: "المشكلة أنه لا أحد يخبرني بأي شيء، لو كنتَ تطلعني على المستجدات أولًا فأول ..."

لم يجادلها تومي في هذه النقطة، عملاً بنصيحة جادة أسدتها له توبينس ذات مرة في هذا الصدد: "إذا قال لك شخص جاوز الخامسة والستين إنك مخطئ، فلا تجادله، ولا تدافع عن نفسك، بل اعتذر على الفور، وقل إن كل شيء كان خطأك، وإنك متأسف للغاية ولن تكرر هذا الفعل أبدًا".

جاهد تومي نفسه في هذه اللحظة ليقنعها بأن هذا هو التصرف المناسب مع الخالة آدا، مثلما كان مناسبًا دائمًا.

فقال: "أنا آسف للغاية، يا خالة آدا. إن المرء ينسى أكثر بمرور الزمن"، ثم استطرد بلا خجل: "ليس الجميع يمتلك ذاكرة رائعة مثلك".

فابتسمت الخالة آدا، ولم تجد كلمات لترد بها على هذا المدح، بل قالت: "هناك شيء يشغل بالك. أنا آسفة لو كنت قد استقبلتك بغلظة؛ لكني لا أطيق أن يفرض عليَّ شخص شيئًا. أنت لا تعرف هذا المكان؛ فهم يسمحون لأي شخص بزيارتك، أي شخص مهما كان. لو صدقتُ كل ما يقوله كل شخص عن نفسه، فربما أُسرق أو أُقتل على سريري".

قال تومي: "أوه، لا أعتقد أن هذا محتمل".

قالت الخالة آدا: "وما أدراك؟ إنني أقرأ أشياء في الجرائد، وأسمع حكايات من الناس. أنا لا أصدق كل ما يقال لي، لكنني آخذ حذري. أتصدق أنهم جلبوا رجلاً غريبًا منذ بضعة أيام لم أره من قبل، وقال إنه د. ويليامز، وأخبرنا بأن د. موراي سافر

ليأخذ إجازة، وأنه زميله الجديد. زميله الجديد! ومن أين لي أن أعرف حينها أنه زميله الجديد؟ هذا ما كان يقوله وحسب".

قال تومي: "وهل كان زميله الجديد بالفعل؟".

بدا بعض الضيق على وجه الخالة آدا بسبب عدم صدق توقعها، وقالت: "أجل، هو شريكه بالفعل، لكن لم يكن بوسع أحد التأكد حينها. فها هو رجل يحضر إلى الدار بسيارته، ويحمل حقيبة سوداء صغيرة في يده، التي يحملها الأطباء معهم لقياس ضغط الدم، وما شابه، كانت أشبه بالحقائب السوداء التي يحملها المشعوذون معهم".

قال تومي: "المشعوذون حقائبهم مختلفة".

قالت الخالة آدا: "حسنًا، مقصدي هو أنه يمكن لأي شخص أن يأتي إلى مكان كهذا، ويزعم أنه طبيب، وعلى الفور ستجد كل الممرضات يبتسمن له، ويرحبن به، دون التحقق من أمره. يا لهن من فتيات ساذجات! وإذا أقسمت ممرضة أنها لا تعرف هذا الطبيب، فسيقلن عنها إنها كثيرة النسيان وتنسى الأشخاص"، ثم أضافت بحزم: "أنا لا أنسى وجهًا رأيته أبدًا. كيف حال خالتك كارولين؟ إنني لم أتلق منها أخبارًا منذ مدة. هل وردتك أية أخبار عنها؟".

فأجابها تومي بنبرة أسف أن خالته كارولين قد توفيت منذ خمسة عشر عامًا. لم يبدُ على الخالة آدا أية أمارات حزن لسماعها هذا الخبر؛ فالخالة كارولين لم تكن أختها على أية حال، بل مجرد ابنة عم.

لكنها قالت بقدر من الاعتزاز: "يبدو أن الجميع يلقون حتفهم. مشكلتهم أنه لا توجد لديهم قدرة على التحمل

والمقاومة؛ فهم إما قلوبهم ضعيفة، وإما مصابون بانسداد في شرايين القلب، أو ارتفاع ضغط الدم، أو التهاب الشعب الهوائية، أو التهاب المفاصل الروماتيزمي، إلى آخره من هذه الأشياء. جميعهم ضعفاء، ومن هنا يكسب الأطباء عيشهم، حيث يصفون لهم علبًا وزجاجات وعبوات من الأقراص فيها، أقراص صفراء، وأقراص وردية، وأقراص خضراء، ولن أتفاجأ لو وصفوا لهم حتى أقراصًا سوداء. هه! كانوا يتداوون أيام جدتي بالكبريت والعسل الأسود، وأنا متأكدة أنها كانت وسائل مفيدة؛ فعندما كان يخيّر المرء بين أن يتعافى من تلقاء نفسه أو يتعالج بالكبريت أو بتناول العسل الأسود، كان يتعافى من تلقاء نفسه في كل مرة"، ثم أومأت برأسها كأنها تعبر عن رضاها عن هذه الأيام، وأكملت: "لا يمكنك أن تثق بالأطباء حقًا، أليس كذلك؟ لا سيما أنه قد قيل إن هناك خدعة جديدة يقوم بها الأطباء حيث يجري تسميم بعض النزيلات هنا كي يحصل الجراحون على قلوبهن، لكنني لا أعتقد أن هذا صحيح؛ فالسيدة باكارد ليست المرأة التي تقبل بذلك".

قادت السيدة باكارد، توبينس نحو غرفة متفرعة من الردهة في الطابق السفلي بملامح معتذرة.

وقالت: "أنا آسفة بشأن ما حدث، يا سيدة بيريسفورد، لكني أتوقع منك أن تتفهمي تصرفات كبار السن. إنهم يتخيلون أشياء أو يكرهون أشياء ويصرون على موقفهم حيالها".

قالت توبينس: "لابد أن إدارة مكان كهذا أمر صعب للغاية".

فأجابت السيدة باكارد: "لا، ليس تمامًا؛ فأنا أستمتع بإدارته، وفي الحقيقة أحب جميع النزيلات هنا. على المرء

أن يحب من يعتني بهن. هناك مشاكسات تصدر عن النزيلات، لكنك بإمكانك السيطرة على هذه المشاكسات بسهولة إذا عرفت السبيل لذلك".

قالت توبينس في نفسها إن السيدة باكارد هي امرأة واسعة الحيلة.

أكملت السيدة باكارد حديثها، قائلة: "النزيلات أشبه بالأطفال في الواقع، غير أن الأطفال أكثر احتكامًا للمنطق منهن؛ فهن لا يتصرفن بمنطقية، ويردن منا أن نطمئنهن بإخبارهن ما يعتقدن أنه صحيح، وحينها يصرن سعيدات مرة أخرى. لديَّ طاقم عمل جيد للغاية هنا؛ فهم صبورون، ولطفاء، لكنهم لا يتمتعون بذكاء حاد؛ لأن ذوي الذكاء الحاد ينفد صبرهم سريعًا". ثم التفتت السيدة باكارد فجأة صوب السلم على صوت خطى شابة تهبط السلم سريعًا، فسألتها السيدة باكارد: "ما خطبك، يا آنسة دونوفان؟".

فقالت الشابة: "إنها السيدة لوكيت مرة أخرى. هي تقول إنها تحتضر وتريد استدعاء الطبيب في الحال".

قالت السيدة باكارد دون أي تأثر: "أوه، وما سبب الاحتضار هذه المرة؟".

قالت دونوفان: "إنها تقول إن الحساء الذي كانت تتناوله بالأمس به عيش الغراب، ولا بد أن الفطر قد سممها".

فقالت السيدة باكارد: "هذا سبب جديد. من الأفضل أن أصعد وأتحدث إليها. أنا متأسفة يا سيدة بيريسفورد؛ أنا مضطرة للمغادرة، ستجدين مجلات وصحفًا في هذه الغرفة لتسليتك".

قالت توبينس: "لا بأس، سأكون على ما يرام".

دخلت توبينس الغرفة التي أشارت إليها السيدة باكارد، وكانت غرفة مبهجة تطل على الحديقة عبر نوافذها، فرنسية الطراز. كانت بها مقاعد مريحة، وأوعية زهور على الطاولات، وعلى أحد جدرانها رف كتب يحوي مزيجًا من الروايات الحديثة وكتب الرحلات، بالإضافة إلى ما يمكن وصفها بأنها مؤلفات مفضلة للنزيلات، واللائي ربما يسعدن لرؤية هذه المؤلفات مرة أخرى. كما كان يوجد مجلات على إحدى الطاولات.

لم يكن في الغرفة وقتها سوى امرأة واحدة، وهي سيدة مسنة، شعرها أبيض ممشط إلى الوراء، وكانت تجلس على كرسي، وفي يدها كوب من الحليب تنظر إليه. ابتسمت السيدة بوجهها الأبيض والوردي، إلى توبينس ابتسامة لطيفة، وسألتها: "صباح الخير. هل أتيتِ للإقامة، أم لزيارة أحد؟".

فأجابت توبينس: "أنا هنا لزيارة خالة زوجي، وهو معها الآن. لقد رأينا أن تحدثنا معها في وقت واحد سيكون شاقًا عليها".

قالت السيدة العجوز: "هذا تصرف لطيف منكما"، ثم رشفت بعضًا من الحليب على مهل، واستطردت: "إنني أتساءل .. لا، أعتقد أنه لا داعي للتساؤل. أتودين احتساء شيء؟ شاي أو قهوة؟ دعيني أرن الجرس لاستدعائهن، فهنَ خدومات للغاية هنا".

فقالت توبينس: "لا، لا أريد شيئًا. شكرًا لكِ".

قالت السيدة العجوز: "ماذا عن كوب من الحليب؟ إنه ليس مسممًا اليوم".

قالت توبينس: "لا، ولا حتى هذا؛ فنحن لن نبقى هنا لوقت طويل".

قالت السيدة العجوز: "حسنًا، كما تشائين، لكن طلبك لن يزعج أحدًا، فهن لا ينزعجن هنا من طلب أي شيء، إلا إذا طلبت شيئًا مستحيلًا بالطبع".

قالت توبينس: "أعتقد أن الخالة التي نزورها اليوم تطلب أشياء مستحيلة. إنها السيدة فانشاو".

قالت السيدة العجوز: "أوه، السيدة فانشاو. أجل".

بدا أن السيدة العجوز تحاول منع نفسها من قول شيء، لكن توبينس قالت بمرح: "إنها امرأة سليطة اللسان، وعادة ما كانت كذلك".

قالت السيدة العجوز: "أجل، هي كذلك بحق. كانت لديَّ عمة تشبهها كثيرًا، خصوصًا مع تقدمها في السن. لكننا جميعًا نحب السيدة فانشاو هنا؛ إذ بإمكانها أن تكون مسلية للغاية عندما تريد ذلك".

قالت توبينس: "أجل، أعتقد أن بإمكانها أن تكون كذلك"، ثم استغرقت لحظات في التفكير في الخالة آدا من هذه الزاوية الجديدة.

قالت السيدة العجوز: "إنها تمتلك لسانًا لاذعًا. بالمناسبة، اسمي لانكستر، السيدة لانكستر".

قالت توبينس: "وأنا السيدة بيريسفورد".

قالت السيدة لانكستر: "أخشى أننا نستمتع بين الحين والآخر بسخرية الخالة آدا في وصفها لبعض النزيلات

الأخريات ولأشياء متعلقة بهن، مع أنه يجب علينا عدم التسلية بأشياء كهذه، لكن هذا ما يحدث".

قالت توبينس: "منذ متى وأنتِ تمكثين هنا؟".

قالت السيدة لانكستر: "منذ فترة طويلة. دعيني أرَ.. سبع سنوات، ثماني سنوات. أجل، لا بد أنها تزيد على ثماني سنوات الآن"، ثم تنهدت وأكملت: "إن المرء يفقد اتصاله بالأشياء، وكذلك بالناس. كل ما تبقى لديَّ من أقارب يعيشون بالخارج".

قالت توبينس: "لا بد أن هذا محزن للغاية".

قالت السيدة لانكستر: "لا، ليس في الحقيقة. أنا لا أهتم بشأنهم كثيرًا، بل إنني لا أعرفهم جيدًا. لقد أصبت بمرض خطير، خطير للغاية، وكنت وحيدة في هذا العالم، ولذا رأوا أنه من الأفضل لي أن أعيش في مكان كهذا. أعتقد أنني محظوظة جدًا لمجيئي إلى هنا؛ فهم هنا لطفاء ويراعون مشاعر النزيلات، كما أن الحدائق هنا جميلة للغاية. أنا أعرف نفسي، وأعرف أنني يجب ألا أعيش بمفردي؛ لأن الأمور تختلط عليَّ بشدة في بعض الأحيان"، ثم وضعت يدها على جبهتها، وأردفت: "الأمور تختلط عليَّ هنا وأصاب بالارتباك، ولا أتذكر دائمًا الأشياء التي حدثت بشكل صحيح".

فقالت توبينس: "إني آسفة لذلك، لكن كل إنسان يعاني شيئًا ما، أليس كذلك؟".

قالت السيدة لانسكتر: "بعض الأمراض مؤلمة للغاية. هناك نزيلتان مسكينتان هنا مصابتان بالتهاب المفاصل الروماتيزمي، وهما تتألمان بشدة؛ لذا أعتقد أنه لا بأس أن

يصاب المرء ببعض الارتباك حيال تذكر ما حدث وأين حدث ومن شملهم هذا الحدث؛ فعلى أية حال، هذا الارتباك ليس مؤلمًا جسديًا".

قالت توبينس: "أعتقد أنك محقة".

انفتح الباب، ودخلت فتاة ترتدي زيًا أبيض، تحمل صينية عليها إبريق قهوة وطبق عليه قطعتا بسكويت. وضعت الفتاة الصينية أمام توبينس، قائلة: "فكرت السيدة باكارد في أنك ربما تريدين فنجانًا من القهوة".

فقالت توبينس لها: "أوه، شكرًا لك".

خرجت الفتاة، وقالت السيدة لانكستر: "أرأيت؟ إنهم لطفاء للغاية، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "إنهم كذلك بالفعل".

صبت توبينس قهوتها، وبدأت في احتسائها، وجلست المرأتان في صمت للحظات، ثم عرضت توبينس على السيدة العجوز تناول البسكويت، لكنها هزت رأسها معتذرة، وقالت: "لا، شكرًا يا عزيزتي؛ فأنا أحب تناول الحليب وليس معه شيء".

وضعت السيدة لانكستر الكوب الفارغ على الطاولة، ومالت إلى الخلف، وأسندت ظهرها على الكرسي، وعيناها شبه مغلقتين. ظنت توبينس أن هذا هو الوقت الذي تأخذ فيه قيلولتها في الصباح، ولذا ظلت صامتة، لكن السيدة لانكستر فتحت عينيها فجأة، لتستيقظ مرة أخرى، ونظرت إلى توبينس، قائلة: "أرى أنك تنظرين إلى المدفأة".

فقالت توبينس وقد جفلت قليلًا: "أكنت أفعل هذا حقًا؟".

قالت السيدة لانكستر: "أجل"، ثم مالت للأمام وقالت بصوت منخفض: "لقد كنت أفكر في شيء؛ ولذا اعذريني في السؤال، لكن أكانت هي ابنتك المسكينة؟".

تفاجأت توبينس من السؤال، وترددت قبل أن تقول: "أنا، لا ...لا أعتقد هذا".

السيدة لانكستر: "كنت أفكر في أنكِ ربما جئت إلى هنا لذلك السبب. لا بد أن يأتي شخص في وقت ما، شخص ينظر إلى المدفأة مثلما كنت تنظرين لها، فقد وقع ما وقع خلف المدفأة".

فقالت توبينس: "حقًا؟".

أجابتها السيدة لانكستر بصوت منخفض: "دائمًا في الوقت نفسه، دائمًا في الوقت نفسه من اليوم"، ثم نظرت إلى الساعة على رف الموقد، فنظرت توبينس إلى الساعة بدورها، ثم أردفت السيدة العجوز: "الحادية عشرة وعشر دقائق. الحادية عشرة وعشر دقائق. أجل، إنه الوقت نفسه دائمًا كل صباح".

ثم تنهدت واستطردت: "الناس لا يفهمون ... لقد أخبرتهم بما أعرفه، لكنهم لا يصدقونني!".

في هذه اللحظة، انفتح الباب، ودخل تومي، فشعرت توبينس بارتياح، ونهضت، وقالت لتومي وهي متجهة نحو الباب: "هأنذا مستعدة"، ثم التفتت برأسها وقالت: "إلى اللقاء يا سيدة لانكستر".

سألت توبينس تومي بعد أن خرجا إلى الردهة: "كيف جرى اللقاء؟".

فأجابها تومي: "بعد أن غادرت، كان الحديث أشبه بنيران مستعرة".

قالت توبينس: "أعتقد أن لديَّ تأثيرًا سيئًا على الخالة آدا، وإن كان مبهجًا إلى حد ما".

قال تومي: "مبهج كيف؟".

قالت توبينس: "في مثل سني، ومظهري المحتشم والممل بعض الشيء، من الرائع أن ينظر إليَّ شخص على أنني امرأة لعوب تتمتع بجاذبية لا تقاوم".

قرص تومي ذراعها برقة، قائلًا: "هذه حماقة. من المرأة التي كنت تتحدثين معها؟ إنها تبدو عجوزًا لطيفة رقيقة؟".

قالت توبينس: "لقد كانت لطيفة للغاية، لكنها تهذي للأسف".

قال تومي: "تهذي؟".

قالت توبينس: "أجل، يبدو أنها تعتقد بأن ثمة طفلة ميتة خلف المدفأة أو شيئًا من هذا القبيل. وقد سألتني ما إذا كانت هذه الطفلة المسكينة هي ابنتي؟".

قال تومي: "هذا مريع. أعتقد أنه من الطبيعي أن توجد نزيلات يهذين هنا، وكذلك أقارب كبار في السن، في حالة طبيعية، لا يقلقهم سوى التقدم في العمر. لكن هذه المرأة بدت لطيفة".

قالت توبينس: "أوه، كانت لطيفة بالفعل. لطيفة ورقيقة. يا ترى ما هذه الخيالات التي تراودها وما سببها؟".

ظهرت السيدة باكارد فجأة مرة أخرى، وقالت: "إلى اللقاء.

أعتقد أنهم جلبوا لك بعض القهوة".

قالت توبينس: "أجل، لقد فعلوا. شكرًا لك".

قالت السيدة باكارد: "لقد كانت هذه الزيارة تصرفًا لطيفًا منكمًا"، ثم وجهت حديثها إلى تومي، قائلة: "وأنا متأكدة أن السيدة فانشاو قد استمتعت كثيرًا بزيارتك. يؤسفني أنها تصرفت مع زوجتك بشكل فظ".

فقالت توبينس: "أعتقد أنها استمتعت بهذا أيضًا".

قالت السيدة باكارد: "أجل، أنت محقة. إنها تستمتع بمشاكسة الناس، وهي للأسف بارعة في هذا".

أضاف تومي: "وهي تمارس هذا الفن بقدر ما تستطيع".

قالت السيدة باكارد: "إن كليكما متفهم لحالتها".

قالت توبينس: "هناك سيد عجوز كنت أتحدث إليها. أعتقد أنها قالت إن اسمها السيدة لانكستر؟".

قالت السيدة باكارد: "أجل، السيدة لانكستر. نحن جميعًا نحبها للغاية".

قالت توبينس: "هل بها خطب ما؟".

قالت السيدة باكارد بنبرة متسامحة: "أجل، إنها تتوهم أشياء. لدينا العديد من النزيلات هنا على شاكلتها، لكنهن لا يؤذين أحدًا بذلك. هن يتخلين أن هناك أشياء وقعت لهن أو لآخرين، ونحن نحاول ألا نبدي اهتمامًا بالأمر، وألا نشجعهن عليه، بل نتجاهل ذلك. أعتقد أنه مجرد تدريب للخيال يسعين من خلاله لإنشاء حالة يروق لهن العيش فيها. ربما يتوهمن

شيئًا مشوقًا أو شيئًا حزينًا ومأساويًا، لكن لا يصيبهن جنون الاضطهاد، ونحن نشكر الله على عدم حدوث هذا".

قال تومي متنهدًا وهو يركب السيارة: "حسنًا، لقد انتهت الزيارة، ولن يتعين علينا المجيء هنا قبل ستة أشهر على الأقل".

لكنهما لن يكونا بحاجة إلى القدوم لزيارتها بعد ستة أشهر؛ لأن الخالة آدا توفيت وهي نائمة بعد ثلاثة أسابيع من هذه الزيارة.

الفصل الثالث

الجنازة

قالت توبينس: "إن الجنازات توجع القلب، أليس كذلك؟".

كانا قد عادا من فورهما من جنازة الخالة آدا، بعد أن قطعا رحلة طويلة وشاقة بالقطار؛ فقد دُفنت الخالة آدا في قرية في مقاطعة لينكولنشاير حيث دُفن معظم أسلافها وأفراد عائلتها.

قال تومي بعقلانية: "ماذا تتوقعين من الجنازة أن تكون؟ هل تكون مشهدًا صاخبًا؟".

فردت توبينس: "هذا ما يتبعها في بعض الأماكن؛ فالأيرلنديون يبكون ميتهم وينتحبون عليه، ثم يعقدون جلسة صاخبة يتحدثون فيها عن فقيدهم في ابتهاج وهم يحتسون المشروبات"، ثم نظرت إلى بوفيه جانبي عليه عصائر، وأردفت: "*هل تحتسي مشروبًا؟*".

ذهب تومي إلى البوفيه، وعاد ومعه كوب من العصير.

فقالت توبينس بعد أن رشفت منه: "أوه، هذا ما أريده".

ثم خلعت قبعتها السوداء، وألقتها في الناحية المقابلة من الغرفة، ثم خلعت معطفها الأسود الطويل، قائلة: "أكره ملابس

الحداد؛ فدائما ما تصدر منها رائحة كرات النفتالين لأنها كانت مخزَّنة في مكان ما".

قال تومي: "أنت لست مضطرة لارتداء ملابس الحداد طوال الوقت؛ إذ يكفي ارتداؤها في الجنازة".

قالت توبينس: "أجل، أعرف هذا. بعد دقيقة أو اثنتين، سأصعد وأرتدي زيًّا قرمزيًّا سيبهجني. يمكنك أن تجلب لي كوبًا آخر من العصير".

قال تومي: "حقًّا، يا توبينس؟ لم أكن أعرف أن الجنازات تجعلك تتوقين إلى مشروبات الحفلات بهذا القدر".

صعدت توبينس إلى الطابق العلوي، وعادت بعد دقيقة أو اثنتين وهي تلبس رداءً مبهرجًا بلون الكرز، كتفه مرصعة بأحجار تشبه الألماس والياقوت الأحمر. قالت: "ما أقصده بالجنازات التي توجع القلب هي الجنازات التي تشبه جنازة الخالة آدا، أعني جنازات كبار السن وليس مَن هم في ريعان شبابهم. لن تجد في جنازتهم من يبكي وينتحب؛ فهم بالنسبة إلى الآخرين أشخاص مسنون ووحيدون لن يفتقدهم الكثير".

قال تومي: "كنت أظن أنكِ لن تشعري بكل هذا الأسى إلا في جنازات معينة كجنازتي مثلا".

قالت توبينس: "أنت مخطئ تمامًا، وأنا لا أريد التفكير في جنازتك بالتحديد؛ لأني أفضل الموت قبلك. لكني إذا حضرتُ جنازتك، فسأجد فيها حزنًا غامرًا، وسيتعين عليَّ إحضار الكثير من المناديل فيها".

قال تومي: "مناديل ذات حاشية سوداء؟".

قالت توبينس: "لم أفكر في مسألة الحواشي السوداء، لكنها فكرة لطيفة، كما سنقوم بالدعاء الجماعي لك بعد الدفن؛ فالدعاء الجماعي يخفف على النفس. الحزن الحقيقي له وطأة حقيقية؛ فهو يجعلك تشعر بإحساس مريع، لكنه يطرد من روحك شرورًا مثلما يطرد الجسد العرق".

قال تومي: "إنني في الحقيقة يا توبينس لا أستسيغ كلامك عن موتي والتأثير الذي سيخلفه عليكِ. دعينا نتوقف عن الحديث عن الجنازات".

قالت توبينس: "حسنًا، لنتوقف عن هذا".

قال تومي: "لقد رحلت السيدة العجوز المسكينة، وقبضها الموت وهي نائمة في سلام دون معاناة، وهي نهاية مرضية بالنسبة إليَّ. من الأفضل لي الآن أن أنتهي من كل هذه الخطابات".

ثم ذهب إلى منضدة الكتابة، وبحث بين الأوراق عن شيء، قائلًا: "أين وضعتُ خطاب السيد روكبري؟".

قالت توبينس: "مَن السيد روكبري؟ أوه، أتعني المحامي الذي بعث لك خطابًا"؟

قال تومي: "أجل، كان خطابًا عن ميراث الخالة آدا. يبدو أنني الوحيد من العائلة المتبقي الآن".

قالت توبينس: "من المحزن أنه لم يكن لديها ثروة لترثها عنها".

فقال تومي: "حتى لو كانت تمتلك ثروة، لكانت أوصت بها لملجأ القطط، فلقد خصصت في وصيتها كل المبلغ الذي

ادخرته إلى ملجأ القطط هذا، ولن يتبقى لي الكثير من ميراثها، وأنا لا أريد شيئًا منه على أية حال".

قالت توبينس: "أكانت تحب القطط لهذه الدرجة؟".

فأجابها تومي متفكرًا: "لا أعرف. أعتقد هذا، لكنها لم تتحدث عن القطط أمامي من قبل حسبما أتذكر. كان يبدو عليها الاستمتاع وهي تقول لصديقاتها القديمات عندما يأتين لزيارتها 'لقد تركت لكن نصيبكن في وصيتي، يا عزيزاتي'، أو تقول لإحداهن 'لقد كتبت في وصيتي مشبك الزينة هذا الذي يعجبك باسمك'، لكنها في الحقيقة لم تكتب في وصيتها أي شيء لأي شخص، باستثناء ملجأ القطط هذا".

قالت توبينس: "لا بد أنها استمتعتْ بفعل هذا كثيرًا. يمكنني تخيلها وهي تقول كل هذه الأشياء إلى الكثير من صديقاتها القديمات، أو من يزعمن بأنهن صديقاتها؛ لأني أشك في أنها كانت تحب أي شخص من الأساس. هي فقط كانت تستمتع بخداعهن. لا بد أنها كانت عجوزًا ماكرة، أليس كذلك، يا تومي؟ أقصد ماكرة بالمعنى المضحك. إنها لمهارة أن تتمكن من أن تجد بعض المتعة في حياتك وأنت عجوز وحبيس دار للمسنين. هل سيتعين علينا الذهاب إلى دار قمة الجبل المشمسة؟".

قال تومي: "أين الخطاب الآخر، الخطاب الذي تلقيته من السيدة باكارد؟ أوه، ها هو ذا. لقد وضعته مع خطاب روكبري المحامي"، ثم أردف مجيبًا عن سؤال توبينس: "أجل، أعتقد أن هناك بعض الأشياء في الدار التي يبدو أنها صارت ملكًا لي الآن. لقد أخذت الخالة آدا معها بعض قطع الأثاث عندما انتقلت

للعيش في الدار، بالإضافة إلى متعلقاتها الشخصية بالطبع من ملابس وأشياء أخرى. أعتقد أنني يجب أن أذهب وألقي نظرة على هذه الأشياء، هذا بالإضافة إلى خطابات ومقتنيات أخرى. أنا الوريث وكل هذه الأشياء آلت إليَّ، وإن كنت أعتقد أننا لن نحتاج إلى أي منها، أليس كذلك؟ باستثناء مكتب صغير دائمًا ما أعجبني، وكان ملكًا للخال ويليام على ما أعتقد".

قالت توبينس: "يمكنك أن تأخذه كتذكار، والأشياء الأخرى سنعرضها للبيع بالمزاد".

قال تومي: "أنت لست مضطرة للذهاب معي".

فردت توبينس: "أعتقد أنني أود الذهاب معك".

قال تومي: "أتودين الذهاب حقًا؟ لماذا؟ ألن يكون الأمر مملًا لك؟".

قالت توبينس: "أتقصد فحص مقتنياتها؟ لا، لا أعتقد أن هذا ممل؛ فأنا أشعر بقدر من الفضول إزاء هذه المقتنيات. فالخطابات القديمة والمجوهرات العتيقة تثير اهتمامي دائمًا، وأعتقد أن علينا فرز هذه المحتويات بأنفسنا، وألا نرسلها مباشرة للبيع في مزاد ونترك الغرباء يفحصونها. كلا، سنذهب ونفرز المتعلقات، ونرى إذا كان فيها ما نود الاحتفاظ به، وما دون ذلك سنعرضه للبيع".

قال تومي: "لماذا تريدين الذهاب لهذه الدرجة؟ لا بد أن هناك سببًا آخر، أليس كذلك؟".

فقالت توبينس: "أوه، يا إلهي! من المريع أن أتزوج شخصًا يعرفني أكثر مما ينبغي".

قال تومي: "إذن، *لديك* سبب آخر؟".

قالت توبينس: "ليس سببًا مهمًا".

قال تومي: "بربك يا توبينس؛ فأنت لستِ ممن يهوين فحص مقتنيات الآخرين".

قالت توبينس بحزم: "لكني أعتقد أن هذا واجبي. السبب الآخر هو ..".

قال تومي: "هيا، قوليه".

قالت توبينس: "أنا أريد مقابلة تلك المرأة العجوز مرة أخرى".

قال تومي: "من؟ أتقصدين تلك المرأة التي تعتقد أن هناك طفلًا ميتًا خلف المدفأة؟".

قالت توبينس: "أجل، أريد التحدث معها مرة أخرى، ومعرفة ما كان يدور في ذهنها عندما قالت تلك الأشياء. أكان هذا شيئًا تذكرته، أم شيئًا توهمته؟ كلما فكرت في الأمر أذهلني. أهي قصة نسجتها من وحي خيالها، أم أن ثمة واقعة حقيقية حدثت بشأن المدفأة أو بشأن موت طفل؟ ما الذي جعلها تعتقد أن الطفل الميت ربما يكون *طفلي*؟ هل أبدو كأم مات ابنها؟".

قال تومي: "لا أعرف كيف يبدو من مات له طفل، لا أعتقد أنني فكرت في هذا من قبل. على أية حال يا توبينس، من واجبنا أن نذهب، ويمكنك أن تشغلي نفسك هناك بموضوعك *المأساوي* هذا. اتفقنا. سأكتب إلى السيدة باكارد، وأحدد يومًا".

الفصل الرابع

صورة لمنزل

أخذت توبينس نفسًا عميقًا، وقالت: "كل شيء كما هو".

كانت توبينس وتومي يقفان على عتبة الباب الأمامي لدار قمة الجبل المشمسة.

فسألها تومي: : "ولمَ لا يكون كذلك؟".

قالت توبينس: "لا أعرف، إنه مجرد شعور يخالجني ... شيء متعلق بالوقت. الوقت يمضي بسرعات مختلفة في أماكن مختلفة، فهناك أماكن تعود إليها، فتشعر بأن الوقت مضى بسرعة صاروخية وتغير كل شيء، لكن هنا ... هل تتذكر بلدة أوستند، يا تومي؟".

قال تومي: "أوستند؟ لقد قضينا شهر العسل هناك. بالطبع أتذكرها".

قالت توبينس: "وهل تتذكر تلك اللافتة التي كان مكتوبًا عليها 'ما زلنا نستخدم عربات الترام'. لقد ضحكنا كثيرًا على سخافة هذه العبارة".

قال تومي: "أعتقد أن هذا كان في قرية نوك، وليس أوستند".

قالت توبينس: "لا يهم. لقد تذكرتها لأني لا أري أي تغيير يحدث هنا؛ وكأن عقارب الزمن قد توقفت. كل شيء هنا يظل على حاله. إنهم هنا كالأشباح، لكنهم أشباح أحياء".

قال تومي: "لا أدري ما الذي تتحدثين عنه. هل ستقضين اليوم بطوله تتحدثين وأنت واقفة هنا، دون حتى أن تضغطي على زر الجرس؟ هنا شيء تغير على الأقل وهو أن الخالة آدا لم تعد تعيش هنا"، ثم ضغط على الجرس.

قالت توبينس: "هذا هو الشيء الوحيد الذي تغير، أما السيدة العجوز فستحتسي اللبن وستتحدث عن المدافئ، والسيدة فلانة ستبتلع الكشتبان أو ملعقة الشاي، وهناك امرأة مضحكة قصيرة ستخرج من غرفتها، وهي تصرخ طالبة الكاكاو، وستنزل السيدة باكارد من الطابق العلوي، و..."

انفتح الباب، وقابلتهما شابة ترتدي الزي الرسمي للدار، وقالت: "السيد بيريسفورد وزوجته؟ السيدة باكارد بانتظاركما".

كانت الشابة على وشك اصطحابهما إلى غرفة الجلوس نفسها التي جلسا فيها في آخر زيارة، إلا أن السيدة باكارد كانت تهبط درجات السلم، فجاءت وحيتهما لكن ليس بأسلوبها النشط المعتاد؛ حيث كان يبدو عليها الحزن وأمارات الحداد، لكن ليس إلى حد كبير، وإلا كان هذا تصرفًا أخرق؛ فالسيدة باكارد خبيرة في تقديم القدر المناسب من العزاء المقبول.

إن سن السبعين هي عمر مقبول للوفاة، ونادرًا ما تموت نزيلات دارها دون هذه السن. هذا هو المتوقع، وهو ما يحدث بالفعل.

قالت السيدة باكارد: "أهلًا بكما. لقد رتبت لكما كل شيء لتتفحصاه، وأنا سعيدة لحضوركما سريعًا؛ لأن لديَّ بالفعل ثلاث أو أربع مسنات ينتظرن غرفة فارغة. أنا متأكدة أنكما تتفهمان الموقف، لكني لا أحاول بذلك استعجالكما بأي شكل من الأشكال".

قال تومي: "لا عليكِ. نحن متفهمان تمامًا".

قالت السيدة باكارد: "كل شيء كما هو في غرفة السيدة فانشاو".

فتحت السيدة باكارد باب الغرفة التي زارا فيها الخالة آدا آخر مرة، ليتبدى أمامهم منظر غرفة هجرتها صاحبتها؛ حيث يُغطى السرير بملاءة للحماية من الأتربة، والبطانيات مطوية، والوسادات مرتبة بعناية.

كان دولاب الملابس مفتوحًا وفارغًا، حيث طُوي ما كان به من ملابس على السرير بعناية.

قالت توبينس: "ما الذي تفعلونه عادة في هذه المواقف؟ أعني ما الذي يفعله معظم الناس بالملابس وهذه الأشياء؟".

فأجابتها السيدة باكارد برد كاف ومفيد كعادتها: "سأعطيكما أسماء جمعيتين خيريتين أو ثلاث ستسعد كثيرًا باستقبال أشياء كهذه. كانت الخالة آدا لديها وشاح جميل من الفراء ومعطف جيد، لكن لا أعتقد أنك سترتدين هذه الأشياء يا سيدة توبينس، أليس كذلك؟ لا بأس إذا كنتما تعرفان جمعيات أخرى تهديانها هذه الأشياء".

هزت توبينس رأسها بالنفي.

فأكملت السيدة باكارد: "كانت ترتدي أيضًا بعض المجوهرات، وقد نزعتها عنها، ووضعتها في الدرج اليمين للتسريحة، بانتظار وصولكما".

قال تومي: "شكرًا جزيلًا لك على كل هذا العناء".

كانت توبينس تحملق إلى لوحة أعلى رف المدفأة، وكانت عبارة عن لوحة زيتية لبيت لونه وردي باهت، قائم على ضفة قناة يصل بين ضفتيها جسر صغير مقوس، وكان هناك قارب فارغ مربوط على ضفة القناة تحت الجسر، وفي الخلفية البعيدة تظهر شجرتا حور. كان منظرًا ساريًا، لكن تومي تعجّب من انجذاب توبينس الشديد له.

همهمت توبينس: "كم هذا غريب!".

نظر إليها تومي مستفسرًا، وهو يعرف من واقع تجاربه الكثيرة معها أن الأشياء التي تصفها بالغريبة لا ينطبق عليها هذا الوصف على الإطلاق.

سألها: "ماذا تقصدين؟".

قالت توبينس: "هذا شيء غريب. لم ألاحظ أبدًا هذه الصورة عندما جئتُ إلى هنا من قبل، لكن الغريب أنني رأيت ذلك المنزل في مكان ما. ربما رأيت منزلًا يشبهه تمامًا، لكني أتذكر هذا الشكل ... من الغريب أنني لا أتذكر متى وأين رأيته".

قال تومي: "أعتقد أنك لاحظتِ اللوحة، لكن دون أن تلاحظي أنك تلاحظينها". شعر تومي بأن اختياره للكلمات كان أخرق، ومزعجًا بقدر ما هو مزعج استخدام توبينس المتكرر لكلمة "غريب".

فردت توبينس: "وهل لاحظت *أنت* اللوحة عندما كنا هنا آخر مرة، يا تومي؟".

قال تومي: "لا، ولكني لم أكن أدقق النظر في المكان".

قالت السيدة باكارد: "أوه، تلك الصورة. لا أعتقد أنكما رأيتماها في آخر زيارة لكما؛ لأني متأكدة تقريبًا بأنها لم تكن معلقة فوق المدفأة حينها. هذه اللوحة تخص في الواقع إحدى النزيلات الأخريات وأعطتها لخالتك؛ فالسيدة فانشاو كانت قد عبرت عن إعجابها باللوحة مرة أو اثنتين؛ فأصرت تلك السيدة العجوز الأخرى على إهدائها إليها، وأصرت على أن تحتفظ بها".

قالت توبينس: "أوه، فهمت. إذن فأنا لم أرها من قبل، لكني أشعر بأنني أعرف هذا المنزل جيدًا. ألا تشعر بذلك، يا تومي؟".

قال تومي: "لا أشعر بأنني أعرفه".

قالت السيدة باكارد بحيوية: "حسنًا، سأترككما الآن، ويمكنكما استدعائي في أي وقت".

ثم أومأت وابتسمت وغادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

قالت توبينس: "لا تعجبني أسنان هذه المرأة".

قال تومي: "ما خطبها؟".

قال توبينس: "ربما لديها أسنان زائدة، أو حجمها أكبر من الطبيعي. إنها تذكرني بأسنان الذئب في قصة ذات الرداء الأحمر".

قال تومي: "أنت تبدين في مزاج غريب اليوم، يا توبينس".

قالت توبينس: "كنت دائمًا أرى أن السيدة باكارد امرأة لطيفة، لكنها اليوم تبدو لي امرأة شريرة بشكل ما. ألم ينتبك الشعور نفسه؟".

قال تومي: "لا، لم ينتبني شيء. هيا، دعينا ننجز ما جئنا لأجله، وهو فحص متعلقات الخالة العجوز المسكينة آدا، أو "أمتعتها الشخصية" كما يسميها المحامون. هذا هو المكتب الذي حدثتك عنه، مكتب الخال ويليام. ما رأيك فيه؟".

"إنه رائع. ماركة ريجينسي على ما أعتقد. من الجميل أن تتمكن النزيلات هنا من جلب بعض أشيائهن الشخصية معهن. لا أريد تلك الكراسي المحشوة بشعر الخيول، لكن هذه المنضدة الصغيرة تروقني؛ فهي ما نحتاج إليه بالضبط بدلًا من عمود الرفوف البشع القابع في الركن بجانب النافذة في منزلنا".

قال تومي: "حسنًا، سأكتب هاتين القطعتين من الأثاث في قائمة الأشياء التي سنأخذها".

قالت توبينس: "وسنأخذ اللوحة المعلقة فوق المدفأة. إنها لوحة جذابة للغاية، وأنا متأكدة أني رأيت المنزل في مكان ما. والآن دعنا ننظر إلى المجوهرات".

ثم فتحا درج التسريحة، فوجدا أحجارًا كريمة منقوشة، وسوارًا إيطالي الطراز، وأقراطًا، وخاتمًا مرصعًا بفصوص من أحجار مختلفة الألوان.

قالت توبينس: "لقد رأيت مثل هذه الخواتم من قبل. عادة ما تكون هذه الفصوص مرتبة بحيث لو أخذنا أول حرف من اسم كل حجر لشكلنا كلمة ما، ككلمة 'عزيزتي' مثلًا، ولو أنني لا أستطيع تخيل أن أحدًا قد منح خالتك آدا خاتمًا فيه كلمة عزيزتي. المشكلة أنك لا تعرف بأي حجر تبدأ لتكوين الكلمة. فلو قلنا هنا ياقوت، ثم زمرد ... لا أعتقد أننا نسير بشكل

صحيح. لنجرب مرة أخرى: ماس، ثم زمرد، ثم ياقوت، ثم جمشت. أعتقد أن الكلمة هي *مزيج*، *إنه* خاتم لطيف؛ فهو عتيق الطراز، ومنظره عاطفي".

ثم ارتدته في أصبعها، قائلة: "أعتقد أنه سيعجب ديبورا؛ فهي معجبة إلى حد مخيف بهذه الأشياء ذات الطراز الفيكتوري، مثل كثير من الناس هذه الأيام. يفترض بنا الآن ترتيب الملابس، وأظن أن هذه الخطوة تكون *مأساوية* دائمًا. أوه، هذا هو الوشاح، ويبدو لي قيمًا، لكني لا أريده لنفسي. إني أفكر فيما إذا كانت هنا سيدة ما كان بينها وبين الخالة آدا علاقة لطيفة، أو ربما صديقة مميزة من النزيلات، واللائي يسمَيْن زائرات. لقد لاحظت هنا أنهن يطلقن على النزيلات اسم زائرات أو ضيفات. سيكون لطيفًا أن نقدم لإحداهن هذا الوشاح؛ فهو من الفرو الراقي. سأسأل السيدة باكارد عن هذا، أما بقية الأشياء فستذهب إلى الجمعيات الخيرية. لقد انتهينا من كل شيء، أليس كذلك؟ سنذهب الآن ونتحدث مع السيدة باكارد"، ثم أردفت بصوت عال، وهي تنظر إلى السرير: "وداعًا يا خالة آدا. أنا سعيدة أننا جئنا لرؤيتك آخر مرة، ويؤسفني أنني لم أرق لك، لكنك استمتعت بكرهي وبقول كل تلك الأشياء الفظة. أنا لا أكنَ لكِ ضغينة بسبب هذا؛ فأنا متفهمة أنك كنت بحاجة إلى بعض الاستمتاع. لن ننساكِ، وسنتذكرك كلما نظرنا إلى مكتب الخال ويليام".

ثم ذهبا للبحث عن السيدة باكارد، وأخبرها تومي بأنهما سيرتبان لنقل المكتب والمنضدة الصغيرة وسيتم شحنهما على عنوانهما، وأنهما سيتفقان مع بعض منظمي المزادات المحليين

لبيع باقي الأثاث، كما أخبرها بأنه سيترك لها اختيار الجمعية التي ستحصل على الملابس إذا لم يمثل هذا مشقة لها.

قالت توبينس: "كنت أتساءل إذا كان من بين النزيلات من سيعجبها الوشاح. ربما إحدى صديقاتها المقربات؟ أو ربما إحدى الممرضات التي كانت تعتني بالخالة آدا عناية خاصة؟".

قالت السيدة باكارد: "هذا تصرف لطيف منك للغاية، يا سيدة بيريسفورد، لكن للأسف لم يكن للسيدة فانشاو صديقات مقربات، لكن إحدى الممرضات، وهي الآنسة أوكيف، كانت تخدمها بإخلاص وأدب، وأعتقد أنها يسعدها ويشرفها الحصول على هذا الوشاح".

قالت توبينس: "أنا أود الاحتفاظ باللوحة التي أعلى المدفأة، لكن أعتقد أننا يجب أن نستأذن أولًا من الشخص الذي أهداها اللوحة؛ فربما يريد استعادتها".

فقالت السيدة باكارد: "أوه، أنا آسفة، أخشى أننا لا يمكننا ذلك؛ فصاحبة هذه اللوحة التي أهدتها إلى الخالة آدا هي السيدة لانكستر، وهي لم تعد نزيلة بالدار".

قالت توبينس في اندهاش: "لم تعد نزيلة بالدار؟ السيدة لانكستر؟ المرأة التي قابلتها في آخر زيارة هنا، ذات الشعر الأبيض الممشط إلى الوراء، والتي كانت تشرب حليبًا في غرفة الجلوس بالدور السفلي. أتقولين إنها رحلت؟".

قالت السيدة باكارد: "أجل، لقد حدث هذا فجأة. لقد أخذتها إحدى قريباتها منذ أسبوع، وهي امرأة تدعى السيدة جونسون. هذه السيدة عادت من أفريقيا بعد أربع أوخمس سنوات من العيش هناك، وقالت إنها قادرة الآن على الاعتناء

بالسيدة لانكستر في منزلها؛ لأنها هي وزوجها سينقلان إقامتهما إلى إنجلترا. لا أعتقد حقًا أن السيدة لانكستر أرادت الرحيل عن دارنا؛ حيث كانت متعلقة جدًا بالمكان، وتحظى بعلاقات جيدة مع الجميع، وكانت سعيدة. وقد انزعجتْ وبكتْ عندما سمعت الخبر، لكن ماذا عساها تفعل؟ فالقرار ليس عائدًا لها؛ لأن السيد جونسون وزوجته هما من يدفعان نفقات إقامتها هنا، وقد نصحتهما بإبقائها هنا نظرًا لطول إقامتها بالمكان وشعورها بالاستقرار فيه ... ".

قاطعتها توبينس: "منذ متى والسيدة لانكستر تقيم في هذه الدار؟".

قالت السيدة باكارد: "ست سنوات تقريبًا على ما أعتقد. أجل، في هذا النطاق، ولهذا بالطبع كانت تشعر بأن هذا هو منزلها".

عبس وجه توبينس وقالت: "أجل، أتفهم شعورها". ثم رمقت تومي بنظرة عصبية، ورفعت ذقنها لأعلى كأنها تفكر، وقالت: "يؤسفني أنها غادرت؛ فقد خالجني شعور وأنا أتحدث إليها كأني أعرفها، وقد بدا وجهها مألوفًا، ثم تذكرت بعد ذلك أنني قابلتها مع صديقة قديمة لي، اسمها السيدة بلينكينسوب، وقد كنت أعتزم أن أتأكد بشأن ذلك من السيدة لانكستر في زيارتي التالية للخالة آدا، لكن الآن الوضع اختلف، وقد عادت لأهلها".

قالت السيدة باكارد: "أتفهم هذا، يا سيدة بيريسفورد. إن نزيلاتنا يسعدن كثيرًا عندما يتمكن من التواصل مع بعض من صديقاتهن القديمات أو مع شخص كن يعرفنه في وقت ما. أنا لا أتذكر أن السيدة لانكستر قد ذكرت اسم السيدة بلينكينسوب

أبدًا، لكن لا أظن أنها كانت ستتذكرها على أية حال".

قالت توبينس: "هلا تخبريني بالمزيد عنها، وعن أقاربها، وعن كيفية مجيئها إلى هنا؟".

قال السيدة باكارد: "لا أعرف الكثير عنها. كما قلت، لقد وردتنا خطابات منذ ست سنوات من السيدة جونسون تستفسر فيها عن الدار، ثم جاءت بنفسها وتفحصت الدار، وقالت إن صديقة لها رشحت لها هذ المكان، ثم تساءلت عن شروط الدار وكل هذه الأشياء، ثم غادرت. وبعد نحو أسبوع أو أسبوعين، تلقينا خطابًا من مكتب محاماة في لندن يقول إنه يود لو تقبل الدار السيدة لانكستر، وأن السيدة جونسون ستحضرها إلى الدار في غضون أسبوع إذا كان هناك مكان شاغر لها، وبالفعل كان لدينا مكان لها، وأحضرت السيدة جونسون السيدة لانكستر إلى هنا، وقد بدا على السيدة لانكستر أنها أحبت المكان، وأحبت الغرفة التي عرضنا تخصيصها لها. وقالت السيدة جونسون إن السيدة لانكستر تود جلب بعض مقتنياتها معها، فوافقتُ على الفور؛ لأن النزيلات يشعرن بسعادة كبيرة عندما نسمح لهن بذلك. وهكذا جرى الترتيب لكل شيء بشكل مُرضٍ. وشرحت لنا السيدة جونسون بأن السيدة لانكستر هي إحدى أقارب زوجها، لكنها ليست من الأقارب المقربين، غير أنهما شعرا بالقلق عليها لأنهما كانا بصدد السفر إلى أفريقيا، نيجيريا على ما أعتقد، حيث سيحصل زوجها على عمل هناك، وكان من المتوقع أن يقضيا بضع سنوات هناك قبل عودتهما إلى إنجلترا؛ ومن ثم لم يكن لديهما منزل في إنجلترا لتقيم فيه السيدة لانكستر، وقد حرصا على أن تقيم بدار تشعر فيها بسعادة حقيقية، وقد

تأكدا مما سمعاه عن هذه الدار بأنها الدار المناسبة لها، وهكذا سارت الترتيبات على ما يرام، وشعرت السيدة لانكستر باستقرار حقيقي هنا".

قالت توبينس: "آه، فهمت".

قالت السيدة باكارد: "كان الجميع هنا يحبون السيدة لانكستر، برغم ما كان لديها من اختلال ذهني ... أنت تعرفين ما أقصد. كانت تنسى أشياء، وتخلط بين أشياء، وتنسى الأسماء والعناوين في بعض الأحيان".

سألتها توبينس: "هل كانت السيدة لانكستر تتلقى الكثير من الخطابات؟ أعني خطابات من خارج البلاد؟".

قالت السيدة باكارد: "أعتقد أن السيدة جونسون ـ أو السيد جونسون ـ قد أرسل لها خطابًا أو اثنين من أفريقيا، لكن ذلك كان في العام الأول فقط. أخشى أن الناس ينسون سريعًا، لا سيما عندما يعيشون في دولة جديدة وفي ظل حياة مختلفة، وأنا لا أظن أنهما كان على اتصال وثيق بها في أي وقت. أعتقد أنها قريبتهما من بعيد، وكان الأمر يمثل بالنسبة إليهما مجرد الاضطلاع بمسئولية عائلية. كانت كل الأمور المالية تتم عبر المحامي، السيد إكليس، وهو يعمل بمكتب محاماة كبير ومشهور. أعتقد أننا تعاملنا مرة أو اثنتين مع هذا المكتب قبل السيدة لانكستر، ولذا فنحن نعرفهم، وهم يعرفوننا. لكني أظن أن معظم صديقات السيدة لانكستر قد توفين؛ ولذا لم تكن تتلقى الكثير من الخطابات، ولا أتذكر أن هناك من قدم لزيارتها، إلا رجلاً واحدًا حسن المظهر جاء لزيارتها بعد عام تقريبًا على ما أظن. لا أعتقد أننا كنا نعرفه بشكل شخصي، لكنه

كان صديقًا للسيد جونسون، وكان أيضًا يعمل بالمستعمرات الإنجليزية خارج البلاد، وأعتقد أنه جاء فقط للاطمئنان عليها والتأكد من أنها سعيدة".

قالت توبينس: "وبعد ذلك نسيها الجميع".

قالت السيدة باكارد: "أخشى هذا. أمر محزن، أليس كذلك؟ لكن هذا هو المعتاد. من حسن الحظ أن أغلب النزيلات لدينا يعقدن صداقات مع نزيلات أخريات يشبههن في الطباع، ولديهن ذكريات مشتركة، وبهذا تستقر لهن الحياة هنا على نحو سعيد. أعتقد أن معظمهن ينسين معظم حياتهن الماضية".

قال تومي: "أعتقد أن بعضهن لديه ... لديه"، ثم تردد قليلًا، وأشار إلى رأسه ببطء، لكن سرعان ما أنزل يديه، قائلًا: "أنا لا أعني ..."

فقالت السيدة باكارد: "أنا أفهم جيدًا ما تعنيه. نحن لا نقبل مصابات بأمراض عقلية، لكننا نقبل ما يمكن أن تسميه حالات نالت منها الشيخوخة. أعني حالات مصابة بالخرف لا يمكنها الاعتناء بنفسها جيدًا، أو لديها خيالات وأوهام معينة. أحيانًا تتخيل النزيلات أنفسهن شخصيات تاريخية، لكن ذلك لا يضر أحدًا. كانت لدينا نزيلتان تظن إحداهما أنها ملكة فرنسا ماري أنطوانيت، وكانت إحداهما تتحدث بشكل دائم عن قصر اسمه *بيتي تريانون*، وتتناول الكثير من الحليب الذي بدا أن له علاقة بذلك المكان، وكانت لدينا سيدة عجوز عزيزة تصر على أنها عالمة الفيزياء ماري كوري، وأنها هي التي اكتشفت عنصر الراديوم. كانت معتادة قراءة الصحف باهتمام بالغ، لا سيما أية أخبار عن القنابل الذرية أو اكتشافات علمية، ثم تشرح بعدها أن

زوجها هو أول من أجرى تجارب بشأن هذه الاختراعات. الأوهام غير الضارة هي أشياء يمكن التعامل معها لإبقاء النزيلات سعيدات. وهي لا تدوم طوال الوقت؛ فتقمص إحداهن شخصية ماري أنطوانيت أو ماري كوري هو شيء لا يحدث كل يوم، بل عادة ما يحدث مرة كل أسبوعين تقريبًا؛ فهن على ما أعتقد يسأمن سريعًا من هذا التقمص، لكن أكثر ما يعانينه بالطبع هو النسيان؛ حيث لا يمكنهن تذكر من هن بشكل قوي، أو يواصلن القول بأنهن نسين شيئًا مهمًا للغاية ويتمنين تذكره. أشياء من هذا القبيل".

قالت توبينس: "حسنًا"، ثم ترددت قبل أن تكمل: "هل كانت السيدة لانكستر تذكر أشياء بشأن المدفأة الموجودة في غرفة الجلوس تحديدًا، أم بشأن أي مدفأة عمومًا؟".

بدا على السيدة باكارد الاندهاش، وقالت: "مدفأة؟ لا أفهم ما تعنيه".

قالت توبينس: "لقد قالت شيئًا لم أفهمه. ربما لديها تجربة غير سارة مع مدفأة ما، أو قرأت قصة أخافتها بشأن المدافئ".

قالت السيدة باكارد: "ربما".

قالت توبينس: "ما زال ضميري يؤنبني بشأن اللوحة التي أعطتها إلى الخالة آدا؟".

قالت السيدة باكارد: "لا أظن أنك بحاجة إلى تأنيب الضمير، يا سيدة بيريسفورد؛ فأنا أتوقع أن السيدة لانكستر قد نسيت اللوحة تمامًا الآن. وأنا أعتقد أن هذه اللوحة لم تكن لها مكانة خاصة لدى السيدة لانكستر، وقد كانت سعيدة أنها أعجبت السيدة فانشاو وسُرت لقبولها منها، وأنا متأكدة أنها

كانت ستسعد لو أنك أخذت اللوحة لأنها أعجبتك. أرى أنها لوحة جميلة، وإن كنت لا أفهم كثيرًا في اللوحات".

قالت توبينس: "سأخبرك بما سأفعله. سأكتب إلى السيدة جونسون إذا كان معك عنوانها، وسأستأذن من السيدة لانكستر كي أحتفظ باللوحة".

قالت السيدة باكارد: "ليس لديَّ سوى عنوان الفندق الذي يقيمان فيه في لندن، واسمه فندق كليفلاند على ما أعتقد، وعنوانه شارع جورج ستريت، بضاحية دابليو ١. كانت السيدة جونسون تنوي أن تأخذ السيدة لانكستر هناك لأربعة أو خمسة أيام، وبعد ذلك سيذهبون للإقامة لدى بعض الأقارب في أسكتلندا. أظن أن فندق كليفلاند سيكون لديه العنوان".

قالت توبينس: "حسنًا، شكرًا لك. والآن، ماذا سنفعل بوشاح الخالة آدا هذا؟".

قالت السيدة باكارد: "سأذهب وأحضر الآنسة أوكيف لكما".

ثم خرجت من الغرفة.

قال تومي: "ها أنت تستخدمين شخصية السيدة بلينكينسوب مرة أخرى".

بدت توبينس راضية عن نفسها، وقالت: "إنها من أفضل الشخصيات التي اختلقتها، وأنا سعيدة أني تمكنت من استخدامها في هذا الموقف. لقد كنت أحاول التفكير في اسم، وطرأ اسم السيدة بلينكينسوب على ذهني فجأة. كان هذا ممتعًا، أليس كذلك؟".

قال تومي: "لقد مضى وقت طويل منذ آخر مرة استخدمت فيها هذه الشخصية، وقت أن كنا نعمل بقضايا التجسس في أثناء الحرب".

قالت توبينس: "إنني أتحسر على هذه الأيام. لقد كنت أستمتع باختلاق شخصية جديدة لنفسي في أثناء إقامتي في دار الضيافة آنذاك، لدرجة أنني كنت قد بدأت بالفعل في الاقتناع بأني السيدة بلينكينسوب".

قال تومي: "أنت محظوظة بأنك نجوت من هذا. ومن وجهة نظري، وقد أخبرتك بها من قبل، أنك تقمصت شخصية مبالغًا فيها".

قالت توبينس: "هذا غير صحيح. لقد حُبكت الشخصية بإتقان. كانت عبارة عن امرأة لطيفة، ساذجة بعض الشيء، ومشغولة حتى أخمص قدميها بأبنائها الثلاثة".

قال تومي: "هذا ما أقصده. ابن واحد كان ليكفي، أما ثلاثة؛ فهذا عبء أكبر من أن تتحمليه بمفردك".

قالت توبينس: "لقد بدا الثلاثة حقيقيين للغاية بالنسبة إلي. دوجلاس، وأندرو، و... يا إلهي، لقد نسيتُ اسم الثالث. كنت أعرف بالضبط أشكالهم وشخصياتهم وأماكنهم، وكنت أتحدث دون تعثر عن الخطابات التي أتلقاها منهم".

قال تومي: "حسنًا، لقد انتهت هذه الأيام. ليس هناك ما تكتشفينه في هذا المكان، ولذا توقفي عن التفكير في السيدة بلينكينسوب. بعد أن أموت وأُدفن وتحزنين على فراقي ثم تسكنين دارًا للمسنين، أتوقع أنك ستتوهمين بأنك السيدة بلينكينسوب نصف الوقت".

فردت توبينس: "سيكون من الممل أن ألعب دورًا واحدًا فقط".

سألها تومي: "لماذا تعتقدين أن هناك مسنات يردن بأن يكن ماري أنطوانيت وماري كوري وما شابه؟".

قالت توبينس: "أعتقد أن ذلك بسبب الملل. من الطبيعي أن يصاب المرء بالملل. أنا متأكدة *أنك* ستفعل هذا حين لا تستطيع استخدام قدمك والمشي عليها، أو حين تصبح أصابع يديك متصلبة، ولا تستطيع الحياكة. حينها ستحاول في استماتة فعل شيء لتسلية نفسك؛ ومن ثم ستحاول تقمص شخصية عامة، وسترى ما الذي ستشعر به في أثناء تقمصك لها. إنني أتفهم تصرفهن تمامًا".

قال تومي: "أنا متأكد من ذلك. كان الله في عون دار المسنين التي ستقيمين بها. أتوقع أن تتقمصي شخصية كليوباترا معظم الوقت".

قالت توبينس: "لن أتقمص شخصية مشهورة، بل سألعب دور شخصية مثل طاهية في قصر الملكة آن، والتي ستسرد الكثير من الشائعات المشوقة التي سمعتها".

انفتح الباب، ودخلت السيدة باكارد، وبصحبتها شابة طويلة ذات وجه منمش وشعر أحمر كثيف، وترتدي زي ممرضة.

قالت السيدة باكارد: "هذه هي الآنسة أوكيف، وهذان هما السيد بيريسفورد وزوجته، وهما لديهما شيء يودان لو تأخذينه. اعذراني الآن في الانصراف؛ فهناك مريضة تطلبني".

قدمت توبينس وشاح الخالة آدا إلى الممرضة أوكيف التي ابتهجت للغاية، وقالت: "أوه، إنه رائع، لكنه أكثر مما أستحق، والمفروض أن تأخذيه لنفسك".

قالت توبينس: "لا، إنه أكبر من مقاسي كثيرًا، وهو يناسب فتاة طويلة مثلك. كانت الخالة آدا طويلة".

قالت أوكيف: "لقد كانت سيدة فارعة الطول، ولا بد من أنها كانت فاتنة للغاية وهي فتاة".

فقال تومي بنبرة شك: "أعتقد هذا، لكن لابد أنها أعيت من كان يعتني بها".

قالت أوكيف: "هذا صحيح، لكنها كانت تمتلك روحًا عظيمة، ولم يكن ثمة شيء يحبطها. كما أنها لم تكن حمقاء، وكانت تفاجئنا بطرقها في اكتشاف الأشياء، فقد كان ذكاؤها حادًا".

قال تومي: "لكنها كانت حادة الطباع".

قالت أوكيف: "هذا صحيح، لكنها لم تكن من النوع المنتحب كثير الشكوى والتذمر الذي يوهن قواك. ولم تكن السيدة فانشاو من النوع الكئيب أيضًا، فلقد كانت تحكي لنا قصصًا عظيمة عن الأيام الخوالي، مثلما أنها ذات مرة صعدت سلم بيت ريفي وهي تعتلي حصانًا عندما كانت فتاة، أو هكذا قالت. هل هذا حقيقي؟".

قال تومي: "لا أستبعد هذا منها".

قالت أوكيف: "أنت لا تعرف ما الذي يمكنك تصديقه هنا من القصص التي تخبرك إياها النزيلات. قد تقول إحداهن

إنها رصدت مجرمين هنا في الدار، وإنه يتعين علينا استدعاء رجال الشرطة في الحال وإلا صرنا جميعًا في خطر".

قالت توبينس: "أتذكر أن هناك سيدة زعمت أنها تعرضت للتسمم في آخر زيارة لنا هنا".

قالت أوكيف: "هذه هي السيدة لوكيت، وهذا يحدث لها كل يوم، لكنها لا تطلب استدعاء رجال الشرطة، بل الأطباء. إن لديها هوسًا بشأن الأطباء".

قالت توبينس: "وهناك تلك السيدة التي كانت تصرخ طالبة الكاكاو".

قالت أوكيف: "هذه هي السيدة مودي. لقد رحلت المسكينة".

قالت توبينس: "أتقصدين رحلت عن الدار؟".

قالت أوكيف: "لا، أقصد أنها توفيت جراء إصابتها بجلطة مفاجئة. كانت من أكثر محبات الخالة آدا، لكن الخالة لم تكن تجالسها كثيرًا؛ لأنها كانت تتحدث سريعًا دون توقف".

قالت توبينس: "سمعتُ أن السيدة لانكستر رحلت أيضًا".

قالت أوكيف: "أجل، لقد جاء أقاربها وأخذوها، ولم تكن المسكينة تريد الرحيل".

قالت توبينس: "ماذا عن قصة المدفأة في غرفة الجلوس التي حدثتني السيدة لانكستر عنها؟".

قالت أوكيف: "أوه! كانت لديها الكثير من القصص تزعم أنها عن أشياء حدثت لها وأسرار تعرفها".

قالت توبينس: "لقد حدثتني عن طفلة ما، طفلة مخطوفة أو مقتولة".

قالت أوكيف: "إنهن يفكرن في أشياء غريبة. غالبًا التليفزيون هو ما يوحي إليهن بهذه الأفكار".

قالت توبينس: "هل تجدين مشقة في العمل هنا مع كل هؤلاء المسنات؟ لابد أنه عمل شاق".

قالت أوكيف: "لا، أنا أحب المسنات؛ ولذلك تخصصت في تمريضهن".

قالت توبينس: "منذ متى وأنت تعملين هنا؟".

قالت أوكيف: "منذ عام ونصف العام..."، ثم توقفت لحظات، وأردفت: "لكني سأترك العمل بالدار الشهر المقبل".

قالت توبينس: "لماذا؟".

ظهر الارتباك على الممرضة أوكيف للمرة الأولى.

وقالت: "أنت تعلمين، يا سيدة بيريسفورد، المرء بحاجة إلى التغيير".

قالت توبينس: "وهل ستمارسين العمل في التخصص نفسه؟".

قالت أوكيف: "أجل"، ثم أخذت الوشاح، وأكملت: "شكرًا لكما مرة أخرى. أنا سعيدة بأن لدي شيئًا يذكرني بالسيدة فانشاو. لقد كانت سيدة عظيمة يندر أن يجد المرء مثيلًا لها هذه الأيام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

اختفاء سيدة عجوز

وصلت مقتنيات الخالة آدا في الميعاد المتفق عليه، ووضعت المنضدة الصغيرة مكان عمود الرفوف، والذي نُقل إلى ركن مظلم في الصالة. وعلقت توبينس لوحة المنزل الوردي أعلى المدفأة في غرفة نومها حتى يتسنى لها رؤيتها كل يوم وهي تحتسي الشاي في الصباح الباكر.

وبما أن ضميرها لا يزال يؤنبها قليلاً، فقد كتبت خطابًا تشرح فيه كيف آلت اللوحة إليها، وقالت فيه إنه لا بأس إذا أرادت السيدة لانكستر استرجاعها، وأرسلت الخطاب إلى السيدة لانكستر على عنوان السيدة جونسون بفندق كليفلاند، بشارع جورج ستريت، بضاحية دابليو 1، بلندن.

لكنها لم تتلق ردًا، وبعد أسبوع أعيد لها الخطاب، مكتوبًا عليه: "لا يوجد أحد بهذا الاسم على هذا العنوان".

قالت توبينس: "نبأ غير سار".

قال تومي: "ربما مكثوا في الفندق ليلة أو اثنتين فقط".

قالت توبينس: "أظن أنهم كانوا سيتركون عنوانهم في الفندق".

قال تومي: "هل كتبت على الخطاب 'برجاء إعادة الإرسال إلى العنوان الجديد إن وجد'؟".

قالت توبينس: "أجل، لقد فعلت. سأتصل هاتفيًا بالفندق وأسأل عن العنوان؛ فلا بد أنهم تركوا العنوان في سجل الفندق".

قال تومي: "لو كنت مكانك لنسيت الأمر برمته. لماذا كل هذا العناء؟ أتوقع أن تكون السيدة العجوز قد نسيت هذه اللوحة تمامًا".

قالت توبينس: "حري بي أن أحاول".

ثم جلست بجانب التليفون، واتصلت على الفور بفندق كليفلاند.

وبعد دقائق ذهبت إلى تومي في غرفة مكتبه.

وقالت: "إنه لشيء غريب، يا تومي. إنهم لم يقيموا نهائيًا بهذا الفندق، وليست هناك غرف محجوزة باسم السيدة جونسون ولا السيدة لانكستر، ولا أثر لنزولهم بهذا الفندق من قبل".

قال تومي: "أعتقد أن السيدة باكارد أخطأت في ذكر اسم الفندق، أو ربما دونت الاسم على عجل، ثم نسيته، أو خلطت بينه وبين فندق آخر بالخطأ".

قالت توبينس: "ما كنت أعتقد أن شيئًا كهذا يحدث في دار قمة الجبل المشمسة، فالسيدة باكارد تتحلى بالكفاءة دائمًا".

قال تومي: "ربما لم يحجزوا مقدمًا في الفندق، ولما

ذهبوا إليه لم تكن به غرف خالية؛ فذهبوا إلى مكان آخر. أنت تعرفين كيف هي فنادق لندن. هل ما زلت تصرين على إثارة هذه الجلبة؟".

انصرفت توبينس، لكنها عادت بعد قليل، وقالت: "أعرف ما سأفعله. سأتصل بالسيدة باكارد، وأحصل منها على عنوان مكتب المحاماة".

قال تومي: "أي مكتب محاماة؟".

قالت توبينس: "ألا تتذكر أنها قالت إن مكتب محاماة قام بكل الإجراءات؛ لأن السيد جونسون وزوجته كانا خارج البلاد؟".

كان تومي في هذه الأثناء مشغولاً بإعداد مسودة لخطاب سيلقيه في مؤتمر سيحضره عما قريب، وكان يهمهم قائلاً *"إن السياسة الملائمة التي ينبغي اتباعها حال حدوث تلكؤات..."* فقال لتوبينس: "كيف تتهجين كلمة تلكؤات، يا توبينس؟".

قالت توبينس: "هل كنت تستمع إلى ما أقوله؟".

قال تومي: "أجل، فكرة جيدة للغاية.. رائعة ..مذهلة. افعلي ذلك".

فخرجت توبينس من الغرفة، ثم أطلت برأسها مرة أخرى، وقالت: "هجاء الكلمة هو: ت، ف، ا، هـ، ا، ت".

قال تومي: "إنك تمزحين، هذا غير صحيح".

قالت توبينس: "ما الذي تكتبه؟".

قال تومي: "إنني أعد الخطاب الذي سألقيه في مؤتمر اتحاد أ.د.أ.م. وأتمنى لو تتركينني أكتبه في هدوء".

قالت توبينس: "أنا آسفة".

ثم خرجت من الغرفة، واستمر تومي في كتابة جمل ثم شطبها، لكن بعد ذلك بدا على وجهه الابتهاج بعدما زادت سرعته في الكتابة، إلا أن الباب انفتح مرة أخرى.

وإذا بتوبينس تضع ورقة بجانب ذراع تومي، قائلة: "هذا هو اسم مكتب المحاماة وعنوانه ورقم تليفونه، ويتولى إدارة المكتب السيد إكليس. الآن تولَّ *أنت* الأمر".

فقال تومي بحزم: "لا!".

قالت توبينس: "بل نعم! إنها *خالتك آدا*".

قال تومي: "وما علاقة الخالة آدا؟ السيدة لانكستر ليست خالتي".

فقالت توبينس في إصرار: "لكن المشكلة في *المحامين*. إن التعامل مع المحامين مهمة ذكورية؛ فالمحامون يعتقدون أن النساء تافهات، ولا يعيرونهن انتباهًا".

قال تومي: "وجهة نظر منطقية".

قالت توبينس: "بربك، يا تومي. ساعدني. اذهب واتصل بمكتب المحاماة، وأنا سأبحث في القاموس عن هجاء كلمة تلكؤات".

رمقها تومي بنظرة، ثم غادر.

ثم عاد أخيرًا، وقال بحزم: "دعكِ من هذا الأمر، يا توبينس".

قالت توبينس: "هل تحدثت مع السيد إكليس؟".

قال تومي: "لا، بل تحدثت تحديدًا مع السيد ويلز، والذي يبدو أنه القائم بكل الأعمال الروتينية في المكتب، وهو رجل مطلع وذكي، وأخبرني بأن كل الرسائل والاستعلامات تتم عبر

بنك ساوثرن كانتريز، فرع هامرسميث، بلندن، حيث يقوم البنك باستقبال الرسائل وإعادة إرسالها إلى عناوين العملاء. وهنا يا توبينس يتوقف الخط. البنك يعيد توجيه الرسائل إلى عناوين العملاء، لكنه لن يفصح عن هذه العناوين لك ولا لأي شخص آخر. إن لديهم قواعد بشأن هذه الأشياء، ويلتزمون بها التزامًا شديدًا. لن تجدي منهم سوى شفاه مغلقة مثلما نجد من رؤساء الوزراء لدينا".

قالت توبينس: "حسنًا، سأبعث رسالة إلى البنك".

قال تومي: "افعلي ما يحلو لكِ، لكن أستحلفكِ بالله *أن تتركيني وشأني*؛ لأنني لن أنتهي من كتابة خطابي بهذه الطريقة".

قالت توبينس وهي تقبّل جبهته: "شكرًا يا عزيزي. لا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونك".

قال تومي: "هذه أفضل وسيلة للتملق".

ولم يتحدثا في الأمر لبعض الوقت، إلى أن سألها تومي فجأة في مساء يوم الخميس التالي: "بالمناسبة، هل تلقيتِ أي رد على الرسالة التي بعثتها إلى السيدة جونسون عن طريق البنك؟".

فأجابته توبينس بتهكم: "لطيف منك أن تسأل. لا، لم أتلق ردًا"، ثم أضافت وقد بدا أنها تفكر في شيء: "ولا أعتقد أنني سأتلقى ردًا".

قال تومي: "ولمَ لا؟".

فأجابته توبينس ببرود: "أنت لست مهتمًا بالموضوع في الحقيقة".

قال تومي: "اسمعي يا توبينس، أعرف أنني كنت مشغولًا للغاية عنك، لكن هذا بسبب المؤتمر. حمدًا لله أنه لا يقام سوى مرة واحدة في العام".

قالت توبينس: "سيبدأ المؤتمر يوم الاثنين، أليس كذلك؟ وسيستمر خمسة أيام ..".

قال تومي: "أربعة أيام".

قالت توبينس: "وبالطبع ستذهبون جميعًا إلى ذلك المنزل شديد السرية في الريف، وتلقون خطابات، وتقرأون أوراقًا، وتختارون شبابًا لمهمات 'بالغة السرية' في أوروبا وغيرها. لقد نسيت ما الكلمة التي يرمز لها اختصار أ.د.أ.م. فكل شيء صار له اختصار هذه الأيام".

قال تومي: "إنه اختصار: الاتحاد الدولي للأمن المشترك".

قالت توبينس: "اسم طويل وسخيف. أعتقد بالطبع أن المكان بأسره مزود بأجهزة تنصت، والجميع يعرفون الأسرار التي يتحدث فيها الآخرون".

قال تومي مبتسمًا: "هذا مرجح للغاية".

قالت توبينس: "وأنت بالطبع تستمتع بهذا المؤتمر؟".

قال تومي: "بشكل ما، فأنا أرى هناك الكثير من الأصدقاء القدامى".

قالت توبينس: "أظن أن الجميع كبروا الآن. هل ثمة فائدة تُرجى من هذا المؤتمر؟".

قال تومي: "يا إلهي، يا له من سؤال! هل بوسع أحد إقناع نفسه أن بإمكانه الإجابة عن هذا بمجرد نعم أو لا".

قال توبينس: "وهل هناك فائدة تُرجى من حاضري المؤتمر؟".

قال تومي: "سأجيب عن هذا بنعم؛ فبعضهم بارع للغاية".

قالت توبينس: "وهل سيحضر المؤتمر جوش العجوز؟".

قال تومي: "أجل، سيحضر".

قالت توبينس: "كيف حاله هذه الأيام؟".

قال تومي: "فقد قدرًا كبيرًا من سمعه وبصره، وأصبح يعرج بسبب الروماتيزم. ستتفاجئين كم صار بطيئًا".

قالت توبينس وهي تفكر: "أتمنى لو كان بإمكاني الحضور أيضًا".

نظر لها تومي معتذرًا، وقال: "أعتقد أنك ستجدين شيئًا تفعلينه في أثناء سفري".

قالت توبينس وقد بدا عليها أنها تفكر: "قد أفعل هذا".

نظر إليها زوجها في توجس غامض دائمًا ما كانت توبينس تثيره داخله، فسألها: "ما الذي تنوين فعله، يا توبينس؟".

قالت توبينس: "لم أقرر بعد. أنا فقط أفكر".

قال تومي: "في أي شيء؟".

قالت توبينس: "في دار قمة الجبل المشمسة، والسيدة العجوز اللطيفة التي تحتسي الحليب وتتحدث بطريقة مشوشة عن طفل ميت ومدافئ. لقد استثارني حديثها، وقررت أن أحاول

معرفة المزيد في زيارتنا التالية للخالة آدا، لكن لم تكن هناك زيارة تالية؛ لأن الخالة آدا توفيت، وعندما ذهبنا المرة الأخيرة إلى الدار، كانت السيدة لانكستر قد اختفت!".

قال تومي: "أتقصدين أن أهلها أخذوها للعيش معهم؟ هذا ليس اختفاءً، بل هو تصرف طبيعي جدًا".

قالت توبينس: "بل هو اختفاء. لا يوجد عنوان يمكن تتبعه، ولا ردود على خطاباتي. هذا اختفاء مخطط، وأنا أزداد تأكدًا من هذا الأمر أكثر فأكثر".

قال تومي: "لكن ..."

قاطعته توبينس، قائلة: "اسمعني، يا تومي. لنفترض أن جريمة ما قد اُرتكبت، وتم التستر عليها بشكل آمن، ثم لنفترض أن امرأة في العائلة رأت شيئًا أو عرفت شيئًا، وهذه المرأة عجوز وثرثارة، وتحب الدردشة مع الآخرين. فجأة يدرك الجاني أن هذه المرأة قد تشكل خطرًا عليه. ماذا كنت ستفعل لو كنت مكان الجاني؟".

اقترح تومي بمرح: "كنت سأضع سم الزرنيخ في حساء هذه المرأة؟ أو أضربها بعصا على رأسها؟ أو أدفعها من على الدرج؟".

قالت توبينس: "هذه حلول متطرفة، والموت المفاجئ سيجذب الانتباه. فكر في طريقة أبسط وستجد واحدة، ربما تُودعها دارًا لطيفة محترمة للمسنات. ربما ستزور الدار، مدعيًا أنك السيدة جونسون أو السيدة روبنسون، أو تطلب من طرف ثالث غير مثير للشبهات أن يقوم بالترتيبات، وهكذا تطلب من مكتب محاماة ذي ثقة إنجاز كل الأمور المالية. وأنت بالفعل كنت قد لفت نظر الدار في البداية إلى أن قريبتك العجوز

لديها أوهام وخيالات، ولن يستغرب أحد هذا؛ فهذا حال الكثير من النزيلات الأخريات، وهكذا إذا ثرثرت قريبتك بشأن حليب مسموم أو طفل ميت خلف المدفأة أو حادثة اختطاف بشعة، فلن ينصت أحد لها، بل سيقولون في أنفسهم إن الأوهام تراود السيدة فلانة العجوز المسكينة مرة أخرى. لن يعيرها أحد اهتمامًا *على الإطلاق*".

قال تومي: "باستثناء زوجة توماس بيريسفورد".

قالت توبينس: "*أجل*، هذا صحيح. لقد لاحظتُ..".

قاطعها تومي، متسائلًا: "لكن لماذا اهتممت لذلك؟".

أجابت توبينس ببطء: "لا أعرف. الأمر أشبه بما حدث مع الساحرة في مسرحية ماكبث عندما قالت: ذلك *الوخز في أصبعي الإبهام يعني أن ثمة شرًا في الطريق إلينا*. لقد شعرت بخوف مفاجئ. دائمًا ما أرى أن دار قمة الجبل المشمسة مكان طبيعي يبعث على السعادة، لكن انتابني شك مفاجئ. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أصف بها إحساسي. أردت أن أكتشف المزيد، ثم اختفت السيدة لانكستر المسكينة على يد شخص ما".

قال تومي: "ولماذا يفعل ذلك الآن؟".

قالت توبينس: "أعتقد لأن موقف السيدة لانكستر صار أكثر سوءًا، وأقصد أكثر سوءًا من وجهة نظر هذا الشخص؛ فقد أصبحت السيدة لانكستر تتذكر أكثر، وتتحدث مع الناس أكثر، أو ربما تعرفت على شخص ما، أو شخص ما تعرف عليها، أو ربما أخبرها شخص بشيء أوحى إليها بأفكار جديدة بشأن حادثة وقعت في الماضي. على أية حال، أصبحت السيدة لانكستر تشكل خطورة على شخص ما بشكل أو بآخر".

قال تومي: "اسمعيني يا توبينس، إن الأمر برمته مجرد تخمينات. إنها فكرة قد تبادرت إلى ذهنك، لكن احذري أن تقحمي نفسك في أشياء لا تعنيك".

قالت توبينس: "لا تقلق. لن أقحمك في شيء".

قال تومي: "دعي دار المسنات وشأنها".

قالت توبينس: "أنا لا أنوي العودة إلى الدار؛ فقد أخبروني بكل ما يعرفونه. أعتقد أن السيدة العجوز كانت بأمان هناك. أريد أن أعرف أين هي *الآن*. أريد الوصول إليها أينما كانت *قبل فوات الأوان*، قبل أن يحدث لها شيء ما".

قال تومي: "وما الذي تعتقدين أن ربما يحدث لها بحق السماء؟".

قالت توبينس: "لا أريد أن أخمن، لكني سأتقصى الأمر. سأكون مرة أخرى المحقق الخاص/ برودنس بيريسفورد. أتتذكر كيف كنا مخبرين ماهرين نعمل تحت اسم 'بلنت'؟".

قال تومي: "أنا من كنت أحمل اسم بلنت، أما أنتِ فكنتِ سكرتيرتي الخاصة، الآنسة روبنسون".

قالت توبينس: "لم يكن هذا هو الوضع طوال الوقت. على أية حال، هذا ما أنوي فعله، بينما أنت في هذا المؤتمر وتستمع لعبارات منمقة مثل 'مكافحة الجاسوسية العالمية'. سأكون هنا مشغولة بقضيتي التي سأضع لها اسمًا منمقًا أيضًا وهو 'أنقذوا السيدة لانكستر'".

قال تومي: "على الأرجح ستجدينها بخير".

قالت توبينس: "أتمنى ذلك. لن يسعد أحد بهذا أكثر مني".

قال تومي: "كيف تنوين البدء في مسعاكِ هذا؟".

قالت توبينس: "كما قلت لك، سأحتاج إلى التفكير أولًا. ربما سأبدأ بنشر إعلان؟ كلا، سيكون هذا خطأ كبيرًا".

قال تومي بقلق: "حسنًا، خذي حذرك".

لم تكلف توبينس نفسها عناء الرد.

في صباح يوم الاثنين، قام ألبرت ـ الذي يتولى خدمة السيد بيريسفورد وزوجته منذ سنوات طويلة، منذ أن أقحم في عملهما في أثناء حلهما لإحدى القضايا الجنائية عندما كان فتى أحمر الشعر يعمل عامل مصعد ـ بوضع صينية شاي الصباح الباكر على الطاولة بين السريرين، وضم الستائر، وقال إن الجو يبدو لطيفًا، وانصرف من الغرفة بجسده الذي أصبح سمينًا الآن.

تثاءبت توبينس، وجلست على السرير، وصبت كوبًا من الشاي، ووضعت فيه شريحة ليمون، وقالت إن الطقس يبشر بيوم لطيف، لكن لا يسع المرء التأكد من هذا.

تقلب تومي وتأوه.

قالت توبينس: "استيقظ. تذكر أنك مسافر اليوم".

انتصب تومي، وجلس أيضًا على السرير، وصب لنفسه الشاي، ثم نظر بإعجاب إلى اللوحة المعلقة أعلى المدفأة.

قال: "لا بد أن أعترف يا توبينس بأن لوحتك تبدو جميلة للغاية".

قالت توبينس: "هذا بسبب الطريقة التي تدخل بها أشعة الشمس إلى الغرفة من النافذة وتضيئها".

قال تومي: "إنها تبعث على الطمأنينة".

قالت توبينس: "أتمنى فقط لو أتذكر أين رأيت هذا المنظر من قبل".

قال تومي: "لا أرى أهمية لذلك. ستتذكرين في وقت ما".

قالت توبينس: "هذا لن يفيدني بشيء. أريد أن أتذكر *الآن*".

قال تومي: "لكن لماذا؟".

قالت توبينس: "ألا ترى؟ هذا هو الخيط الوحيد الذي أمسك به في الموضوع. لقد كانت لوحة السيدة لانكستر ...".

قال تومي: "لكن لا يوجد رابط بين الأمرين على أية حال. صحيح أن السيدة لانكستر كانت صاحبة اللوحة، لكنها ربما تكون مجرد لوحة اشترتها من معرض، أو اشتراها أحد أفراد عائلتها، أو ربما أعطاها لها شخص كهدية. وقد أخذتها السيدة لانكستر معها إلى دار المسنات لأنها كانت معجبة بها. لا يوجد سبب يدفع للاعتقاد بأن الصورة كانت تعني شيئًا *شخصيًا* للسيدة لانكستر، وإلا ما كانت أعطتها إلى الخالة آدا".

قالت توبينس: "هذا هو الخيط الوحيد الذي أمتلكه".

قال تومي: "إنه منزل جميل باعث على السكينة".

قالت توبينس: "لكني أظن أنه فارغ".

قال تومي: "ماذا تقصدين بفارغ؟".

قالت توبينس: "لا أظن أن أحدًا يعيش فيه، لا أظن أن أحدًا

سيخرج من هذا المنزل، ويعبر هذا الجسر، ويحل القارب، ويبحر به بعيدًا".

قال تومي محدقًا فيها: "يا إلهي. ما الذي دهاكِ، يا توبينس؟".

فقالت توبينس: "لقد قلتُ لنفسي في المرة الأولى التي رأيت فيها هذه اللوحة 'كم سيكون من اللطيف العيش في منزل كهذا'، ثم قلت 'لكن لا أحد يعيش هنا. أنا متأكدة من هذا'، وهذا يدل على أنني رأيته من قبل. انتظر لحظة .. انتظر لحظة .. إنني أتذكر شيئًا .. أتذكر شيئًا".

ظل تومي يحدق إليها.

قالت توبينس وهي تلهث: "من *نافذة*. نافذة سيارة؟ لا، لا، لن تكون الزاوية صحيحة. كنت أنظر من نافذة شيء يسير بمحاذاة القناة، ورأيت الجسر المقوس، وجدران المنزل وردية اللون وشجرتي الحور. كان هناك *الكثير* من أشجار الحور. يا إلهي، يا إلهي، آه لو استطعت أن ...".

قال تومي: "توقفي عن هذا، يا توبينس".

قالت توبينس: "سأتذكر".

قال تومي: "يا إلهي"، ثم نظر إلى ساعته، واستطرد: "لا بد أن أسرع. سأتركك للوحتك والمنزل الذي تحاولين تذكر مكانه".

ثم قفز من على السرير، وأسرع إلى الحمام. اتكأت توبينس على وسادتها، وأغلقت عينيها، وحاولت بقوة استدعاء ذكرى مراوغة.

كان تومي يصب لنفسه فنجانًا آخر من القهوة حين دخلت عليه توبينس ووجهها متورد من فرط الإحساس بالانتصار.

وقالت له: "لقد فعلتها. أعرف أين رأيت ذلك المنزل. رأيته من نافذة قطار".

قال تومي: "أين؟ ومتى؟".

قالت توبينس: "لا أعرف، لكني سأحاول التذكر. إني أذكر أنني قلت لنفسي حين رأيته 'يومًا ما سأذهب لإلقاء نظرة على هذا المنزل'، وقد حاولت رؤية اسم المحطة التالية، لكنك تعرف القطارات هذه الأيام. إن نصف المحطات متهالكة، والمحطة التالية التي توقفنا عندها كانت في حالة مزرية، وكان العشب أعلى من الرصيف، ولم تكن بها لافتة باسم المحطة أو أي شيء".

قال تومي: "أين حقيبتي بحق السماء؟ ألبرت!".

ثم بدأ يبحث عنها بشكل محموم.

ثم عاد وهو يلهث، كي يودع توبينس التي كانت جالسة تتأمل بيضة مقلية.

قال لها: "إلى اللقاء. أستحلفك بالله يا توبينس ألا تقحمي نفسك في شيء لا يخصك".

فقالت توبينس وقد بدا عليها أنها تفكر في شيء ما: "أعتقد أن ما سأفعله هو أنني سأقوم ببعض رحلات بالقطار".

انفرجت أسارير تومي قليلًا، وقال مشجعًا: "أحسنت. جربي هذا. اشتري تذكرة موسمية، فهناك عروض لرحلات تقطعين خلالها آلاف الكيلومترات في أنحاء الجزر البريطانية مقابل

مبلغ معقول. أعتقد أن هذا سيروقك تمامًا، يا توبينس. استقلي ما تشائين من القطارات إلى ما تشائين من الأماكن إن كان هذا سيبقيك سعيدة حتى عودتي".

قالت توبينس: "بلغ سلامي إلى جوش".

قال تومي: "سأفعل"، ثم رمق زوجته بنظرة قلقة، وأردف: "كنت أتمنى لو أنك أتيت معي. لا تقدمي على فعل شيء غبي، اتفقنا؟".

فقالت توبينس: "اتفقنا".

الفصل السادس

توبينس تقتفي الأثر

تنهدت توبينس، وهمهمت: "يا إلهي. يا إلهي!". ثم نظرت حولها بعينيها المليئتين بالأسى، وقالت لنفسها إنها لم تشعر أبدًا بمثل هذا الكم من البؤس من قبل. كانت تعرف أنها ستفتقد تومي، لكن لم تكن لديها فكرة بأنها ستفتقده بكل هذا القدر.

إنهما لم يفترقا تقريبًا على مدار أي فترة زمنية طوال فترة زواجهما، فقد كانا يريان أنفسهما في أثناء الخطوبة مغامرين شابين، وقد اجتازا الكثير من الصعوبات والمخاطر معًا، ثم تزوجا وأنجبا طفلين، وبينما كان العالم يبدو كئيبًا وأزمة منتصف العمر تلقي بظلالها، نشبت الحرب العالمية الثانية، وبطريقة عجيبة اشتركا مرة أخرى في عمليات المخابرات البريطانية، التي جندتهما عبر رجل ليس به شيء مميز اسمه 'السيد كارتر' لكن كان يبدو أن الجميع طوع أمره. كانا قد خاضا مغامرات في السابق، وها هما يخوضان مغامرات أخرى معًا. وبالمناسبة، لم يخطط السيد كارتر لهذا؛ فالسيد تومي فقط هو الذي تم تجنيده، غير أن توبينس استغلت ما تتحلى به

مـن عبقرية طبيعية، ونجحت في التنصـت بطريقة ما، وعندما وصل تومي إلى أحد بيوت الضيافة على شاطئ البحر، مدعيًا أنه شخص يدعى السيد ميدوز، فإن أول من رآه هناك كان امرأة في منتصف العمر تحيك بإبرتين، والتي نظرت له بعينين بريئتين، فمـا كان منه إلا أن أُجبر على تحيتها باسم السيدة بلينكينسوب. وبعد ذلك عملا معًا كثنائي.

غير أنها قالت لنفسها: "لا يمكنني فعل ذلك هذه المرة". فهي مهما استغلت عبقريتها وبراعتها في التنصت وسائر ما لديها من قدرات، فلن تتمكن من الذهاب إلى ذلك البيت السري والمشاركة فـي فعاليات ما يسمى بالاتحاد الدولي للأمن المشترك، وقالت لنفسها ساخطة إنه مجرد ناد للرجال العجائز. كان المنزل خاويًا، والعالم موحشًا دون تومي؛ لذا سألت توبينس نفسها: "ما الذي أفعله الآن بمفردي بحق السماء؟".

بالطبـع كان هـذا سـؤالًا مجازيًـا؛ فتوبينـس كانت قـد بدأت بالفعل الخطوات الأولى لما خططت لفعله بمفردها. هذه المرة لا تتعلـق المسألـة بالمخابـرات أو مكافحة الجاسوسيـة أو شيء مـن هـذا القبيل، بـل مسألة بـلا طبيعـة رسمية. قالـت توبينس لنفسهـا: "أنا المحققة الخاصة برودنس بيريسفورد. هذا ما أنا عليه".

بعـد أن تنازلـت الغـداء سريعًـا، أزاحـت الأطبـاق عشوائيًـا مـن علـى المائدة، وقـد تناثرت فـي أنحاء غرفة الطعـام جداول مواعيـد القطـارات، وكتيبـات دليـل المسافـر، وخرائـط، وبعض دفاتر اليوميات القديمة التي نجحت توبينس في العثور عليها.

في وقت ما في السنوات الثلاث الماضية (كانت متأكدة أنه ليس قبل ذلك)، أخذت توبينس رحلة بالقطار، ونظرت خلالها من شباك عربة القطار، ورأت المنزل. لكن أي رحلة كانت؟

على غرار معظم الناس في الوقت الحالي، كانت أسرة بيريسفورد تسافر بالسيارة بشكل رئيسي، وكانت تقوم برحلات القطار من حين لآخر على فترات متباعدة.

كانت هناك بالطبع رحلة القطار إلى أسكتلندا حيث ذهبا للإقامة مع ابنتهما المتزوجة ديبورا، لكن تلك الرحلة كانت ليلًا.

وهناك رحلات العطلات الصيفية إلى مدينة بينزانس، لكن توبينس كانت تحفظ خط السكة الحديد هذا عن ظهر قلب.

لا، إن الرحلة التي تحاول توبينس تذكرها هي رحلة عَرَضية.

أعدت توبينس باجتهاد ومثابرة قائمة مفصلة بكل الرحلات التي قامت بها والتي ربما تجد فيها ما تحاول البحث عنه. لقد ذهبت لحضور سباقي خيل، وقامت بزيارة إلى مقاطعة نورثمبرلاند، وذهبت لمكانين في مقاطعة ويلز، وإلى مناسبة دينية، وزفافين، وحضرت مزادًا، وقامت بتوصيل بعض الجراء لصديقة لتربيتها والتي كانت مصابة بالأنفلونزا. كان مكان اللقاء يبدو قاحلًا على الحدود بين بلدتين ولا تتذكر اسمه.

تنهدت توبينس، وبدا لها أن الحل المناسب هو ما اقترحه عليها تومي، وهي أن تشتري تذكرة ذهاب وعودة، وتسافر إلى حيث تريد بالقطار.

أخذت توبينس تدون في دفتر صغير أية ذكريات إضافية أو ومضات غامضة في الذاكرة ربما تساعدها كالقبعة مثلا. أجل،

لقد كانت ترتدي قبعة. ربما كانت ذاهبة إلى حفل زواج أو مناسبة دينية، لكن بالتأكيد ليس من أجل توصيل الجراء.

راودتها ذكرى خاطفة أيضًا، وهي أنها خلعت حذاءها؛ لأنها شعرت بألم في قدمها. أجل، هذا مؤكد. لقد كانت تنظر إلى المنزل، ثم خلعت الحذاء لأنها شعرت بألم في قدمها.

إذن، من المؤكد أنها كانت ذاهبة إلى مناسبة اجتماعية أو عائدة منها. بالطبع كانت عائدة منها؛ لأن الألم في قدمها كان سببه الوقوف لفترة طويلة وهي ترتدي أفضل حذاء لها. ما نوع القبعة؟ فهذا قد يكون مفيدًا. ربما كانت قبعة مزينة بالزهور؛ فيشير هذا إلى حفل زفاف، أو ربما قبعة شتوية من القطيفة.

بينما كانت توبينس منهمكة في تدوين تفاصيل جداول مواعيد خطوط القطارات المختلفة، دخل ألبرت ليسألها عما تريد تناوله على العشاء، وما تريد شراءه من الجزار والبقال.

فقالت له توبينس: "لا تشتر شيئًا؛ فأنا سأقوم ببضع رحلات بالقطار ولن أكون هنا لبضعة أيام".

قال ألبرت: "هل تريدين تناول بعض السندويتشات؟".

قالت توبينس: "ربما. أحضر سندويتش لحم مثلا".

قال ألبرت: "أتريدين بيضًا وجبنًا؟ هناك فطائر قد مضى عليها وقت، ويجب عدم تركها أكثر من ذلك". بدا هذا اقتراحًا مشئومًا بالنسبة إلى توبينس، لكنها قالت: "حسنًا، أحضرها".

قال ألبرت: "هل تريدين إعادة إرسال الخطابات التي قد ترد إلى عنوان معين ستنزلين فيه؟".

قالت توبينس: "أنا لا أعرف المكان الذي سأذهب إليه بعد".

قال ألبرت: "حسنًا".

الشيء المريح في ألبرت أنه دائمًا يتقبل كل شيء؛ فلا يضطر المرء إلى شرح شيء له.

غادر ألبرت، وعكفت توبينس على تخطيطها. ما كانت تريده تذكره هو الآتي: مناسبة اجتماعية تتضمن قبعة وحذاء حفلات، ومن سوء الحظ أن المناسبات التي سردتها في القائمة تضم خطوط قطارات مختلفة: حفل زفاف في جنوب البلاد، وحفل آخر في شرقها، وفعالية دينية شمال مدينة بيدفورد.

لو تستطيع تذكر المزيد عن المشهد من القطار ... كانت تجلس في الجانب الأيمن من القطار. ما الذي كانت تنظر إليه *قبل* القناة؟ غابات؟ أشجار؟ أرض زراعية؟ قرية تلوح في الأفق البعيد؟ كانت تعتصر ذهنها، وبدت عابسة لألبرت الذي عاد إلى الغرفة. لم تكن تدرك أن ألبرت قد عاد منذ فترة، وأن انتباهها له كان بمنزلة استجابة لدعوة كان يدعوها ...

قالت توبينس: "ماذا تريد *الآن*، يا ألبرت؟".

قال ألبرت: "إذا كنت ستغيبين عن البيت طوال الغد ..."

قاطعته توبينس، قائلة: "وبعد غد على الأرجح".

قال ألبرت: "هل من الممكن أن آخذ إجازة غدًا؟".

قالت توبينس: "بالطبع يمكنك هذا".

قال ألبرت: "سبب الإجازة هو أن إليزابيث لديها طفح جلدي، وتظن ميلي أنها مصابة بالحصبة".

قالت توبينس: "يا للمسكينة"، وميلي هي زوجة ألبرت،

وإليزابيث هي أصغر أولاده؛ لذا أردفت توبينس قائلة: "ميلي تحتاج إليك في المنزل بالطبع".

كان ألبرت يعيش في بيت صغير على بعد شارع أو اثنين.

قال ألبرت: "ليس هذا هو السبب؛ فهي تريد مني الابتعاد عن طريقها عندما تكون مشغولة، وتخشى أن أعبث بنظام المنزل، لكنها تريد مني أخذ الأطفال بعيدًا عنها في أثناء انشغالها بأمور البيت".

قالت توبينس: "بالطبع، فالمنزل أشبه بالحجر الصحي الآن".

قال ألبرت: "من الأفضل لهم جميعًا أن يصابوا بها ويشفوا منها. لقد أصيب تشارلي بها، وكذلك جين. على أية حال، ليس لديك أي مانع؟".

طمأنته توبينس بأنها لا تمانع في هذا.

وإذا بشيء يختلج في أعماق اللاوعي لديها، شيء عن توقع سعيد .. عن إدراك شيء ما .. عن الحصبة. أجل، الحصبة. شيء له علاقة بالحصبة.

لكن ما علاقة المنزل المطل على القناة بالحصبة ...؟

بالطبع أنثيا! إن توبينس هي الأم الروحية لأنثيا، وكانت ابنة أنثيا، جين، في السنة الأولى من المدرسة. اتصلت أنثيا بتوبينس، وأخبرتها بأن ابنيها الصغيرين أصيبا بطفح جلدي جراء الحصبة، وليس هناك أحد بالمنزل لمساعدتها، وأن مدرسة ابنتها جين ستقيم حفلًا لتوزيع الجوائز، وابنتها ستحزن كثيرًا إذا لم يحضر أحد من أهلها الحفل، وسألت أنثيا توبينس

لو أن بإمكانها حضور الحفل بدلًا منها، ووافقت توبينس التي لم يكن لديها شيء مهم لتفعله. ذهبت توبينس إلى المدرسة، واصطحبت جين لتناول الغداء، وعادتا بعد ذلك للمشاركة في أنشطة الحفل.

عاد كل شيء إلى ذهنها بوضوح مذهل، حتى الفستان الصيفي الذي كانت ترتديه، الذي كان مزينًا برسومات لزهور زرقاء.

لقد رأت توبينس المنزل في رحلة عودتها لبيتها.

كانت في رحلة الذهاب مستغرقة في قراءة مجلة اشترتها، لكن في طريق العودة لم يكن لديها ما تقرؤه، فظلت تنظر من النافذة وهي مرهقة من أنشطة اليوم ومن ضغط الحذاء على قدميها، حتى غشيها النوم.

وعندما أفاقت، كان القطار يمر بمحاذاة قناة. كانت المنطقة كثيرة الأشجار؛ فكان يظهر من بينها من حين لآخر جسر أو ممر متعرج أو طريق صغير. هناك مزرعة على بعد، لكن لا آثار لوجود قرية.

بدأ القطار في خفض سرعته، ومن الواضح أنه لم يكن ثمة سبب لذلك إلا وجود إشارة بالتوقف. توقف القطار بجانب جسر صغير مقوس يربط بين ضفتي القناة، والتي بدت قناة غير مستخدمة على الأرجح. على الجانب الآخر من القناة، وعلى مقربة من الماء، كان يقبع المنزل، وما إن رأته توبينس حتى قالت لنفسها إنه من أجمل المنازل التي رأتها على الإطلاق. كان يبدو منزلًا هادئًا مسالمًا تزينه الأشعة الذهبية لشمس ما بعد الظهيرة.

لم تر توبينس بشرًا ولا كلابًا ولا ماشية، غير أن شيش

النوافذ الخضراء لم يكن موصدًا. لا بد أن هناك من يعيش في هذا المنزل، لكنه خاوٍ الآن.

قالت توبينس لنفسها: "لا بد أن أعرف المزيد عن هذا المنزل. يومًا ما سأعود وألقي نظرة عليه. إنه من نوعية المنازل التي أود العيش فيها".

عاود القطار التحرك ببطء، فحدَّثت توبينس نفسها قائلة: "سأحرص على رؤية اسم المحطة التالية كي أعرف أين أنا".

لكن لم تكن هناك محطة قريبة تالية. كان هذا هو الوقت الذي بدأت تتغير فيه الأمور بالنسبة إلى السكك الحديدية؛ فقد أغلقت محطات صغيرة، بل وتم هدمها، ونما العشب على أرصفة المحطات المهجورة. واصل القطار الانطلاق مدة عشرين دقيقة أو نصف ساعة، دون أن تكون هناك علامات بارزة يمكن تحديد المكان من خلالها. لمحت توبينس دار عبادة في الأفق البعيد خلف الحقول.

ثم شاهدت مجمع مصانع ذات مداخن طويلة، ثم صفًا من المنازل، ثم مساحة ممتدة من الأراضي الزراعية.

قالت توبينس لنفسها: "المنزل أشبه بحلم! ربما كان ما رأيته حلمًا من الأساس. لا أعتقد أنني سأعود وأبحث عنه؛ فهذا شاق للغاية، بالإضافة إلى أنه تصرف مثير للشفقة. ربما سأعثر عليه يومًا ما بالمصادفة".

وهكذا نسيت توبينس أمر المنزل تمامًا، إلى أن أعادت لوحة معلقة على الحائط إحياء ذكرى كامنة في الأعماق.

والآن بفضل كلمة نطقها ألبرت بشكل عفوي، انتهى المسعى

أو بالأحرى، بدأ المسعى.

فحصت توبينس ثلاث خرائط، ودليل سفر، والعديد من الوثائق الأخرى.

وصارت تعرف بالتقريب المنطقة التي ستبحث فيها وقد. وضعت علامة على المكان الذي يوجد به مدرسة جين، وخط السكة الحديد المتفرع من الخط الرئيسي المؤدي إلى لندن، وحاولت أن تحسب المدة التي غفت فيها في القطار.

كانت المنطقة التي توصلت إليها في النهاية تمتد نحو حوالي ميل، وتقع شمال ميدشيستر، وشمال شرق ماركت باسنج، وهي بلدة صغيرة، لكنها نقطة تلاقٍ مهمة للسكك الحديدية، تقع على الأرجح غرب شالبورو.

عقدت توبينس العزم على أن تستقل سيارتها في الصباح الباكر وتبدأ الرحلة.

ثم نهضت وذهبت إلى غرفة النوم، وتأملت الصورة الموجودة أعلى المدفأة.

أجل، لا يوجد لبس؛ فهذا هو المنزل الذي رأته من نافذة القطار منذ ثلاث سنوات، المنزل الذي وعدت نفسها بأنه تبحث عنه في يوم ما ...

وها قد جاء هذا اليوم، وهو الغد.

الجزء الثاني

المنزل المطل على القناة

الفصل السابع

الساحرة الطيبة

قبل أن تغادر توبينس في صباح اليوم التالي، ألقت نظرة متأنية أخيرة على الصورة المعلقة في الغرفة، لا لكي تتذكر تفاصيل المنزل، بل لكي تتذكر موضعه. فهذه المرة، لن تنظر له من نافذة قطار، بل من الطريق السريع؛ ومن ثم ستكون زاوية الرؤية مختلفة. خطر ببال توبينس أنه ربما تكون هناك عدة جسور مقوسة، وعدة قنوات مهجورة متشابهة، وربما منازل أخرى تشبه هذا المنزل (لكنها رفضت تصديق ذلك الاعتقاد).

كانت اللوحة تحمل توقيعًا، لكن إمضاء الفنان لم يكن واضحًا، وكل ما تبينته توبينس كان حرف "ب".

استدارت توبينس، وتفقدت متعلقاتها: قائمة تحوي بنودًا، وخريطة للسكة الحديدية، وخرائط مساحة، وأسماء أماكن مبدئية: ميدشيستر، ووستلي، وماركت باسنج، وميدلشام، وإنشويل، وهي أماكن تحيط بمثلث قررت توبينس البحث داخله، وأخذت معها حقيبة صغيرة بها ملابس للمبيت؛ لأنها ستقود السيارة لمدة ثلاث ساعات على الأقل قبل أن تصل إلى المنطقة التي ستبحث فيها، وبعد ذلك تنوي أن تقود ببطء عبر

الطرق الزراعية والممرات بحثًا عن قنوات مياه محتملة.

بعد توقفها في ميدشيستر لاحتساء القهوة وتناول وجبة خفيفة، انطلقت في طريق سيئ بمحاذاة خط سكة حديد، والذي يمر بمناطق مشجرة والكثير من الينابيع.

وكما هي الحال في معظم الأماكن الريفية في إنجلترا، ثمة الكثير من اللافتات الإرشادية التي تحمل أسماء أماكن لم تسمع بها توبينس من قبل، ونادرًا ما تقود هذه اللافتات إلى المكان الصحيح. يبدو أن هناك شيئًا مخادعًا متعلقًا بهذا الجزء من شبكة الطرق في إنجلترا. فأنت مثلاً إذا ذهبت في اتجاه جريت ميتشلدين، فإن أول لافتة إرشادية ستقابلك على الطريق ستعرض عليك طريقين، أحدهما إلى بنينجتون سبارو، والآخر إلى فارلينجفورد. أنت تختار الطريق المؤدي إلى فارلينجفورد، والذي بالفعل سيوصلك إلى هذا المكان، لكن اللافتة الإرشادية التالية على الفور سترسلك مرة أخرى إلى ميدشيستر، وبهذا تكون قد عدت أدراجك مرة أخرى. لكن توبينس لم تتمكن من العثور على ميتشلدين من الأساس، وظلت فترة طويلة تحاول إيجاد القناة المفقودة لكن دون جدوى. كان البحث سيصبح أسهل لو كانت لديها أية فكرة عن البلدة التي تبحث عنها؛ حيث كان تعقّبها للقنوات على الخرائط مربكًا. كانت بين حين وآخر تقترب من خط سكة حديد، فتبتهج وتسرع بسيارتها على أمل الوصول إلى بلدة تعرفها مثل بيز هيل، وساوث وينترتون، وفاريل سانت إدموند. كانت بلدة فاريل سانت إدموند بها محطة قطار فيما مضى، لكن تم هدمها منذ فترة! قالت توبينس

لنفسها: "لو كان هناك فقط طريق ممهد بشكل جيد يمتد بمحاذاة قناة أو خط سكة حديد، لكان البحث أكثر سهولة".

كان اليوم يمر ببطء، وزادت توبينس ارتباكًا أكثر فأكثر، وقد عثرت مصادفة على مزرعة قريبة من قناة، لكن الطريق المؤدي إلى المزرعة لم يكن يؤدي إلى القناة، بل إنه يمضي عبر تل، وصولًا إلى مكان يسمى ويستبينفولد، الذي كان يضم دار عبادة، وحصنًا قديمًا مهجورًا.

وبينما كانت توبينس المهمومة تسلك طريقًا غير ممهد، والذي بدا أنه الطريق الوحيد للخروج من ويستبينفولد، وهو طريق بدا لإحساس توبينس بالاتجاهات (والذي كانت توبينس تفقد الثقة فيه بشكل متزايد حينذاك) أنه يقود إلى عكس ما تريد الذهاب إليه، وصلت فجأة إلى مكان متفرع إلى طريقين يمينًا ويسارًا. كان في نقطة التقاء الطريقين بقايا لافتة إرشادية قد كُسر ذراعاها.

فقالت توبينس لنفسها: "أي طريق أسلكه؟ من يعرف؟ أنا لا أعرف".

ثم سلكت طريق اليسار.

كان طريقًا متعرجًا يجنح لليمين واليسار، ثم يتسلق تلًا، ثم يدخل غابة، ويخرج منها إلى مساحات مزروعة ممتدة، ثم يصعد تلًا آخر، ثم يهبط منحدرًا شديدًا.

سمعت توبينس صفيرًا حادًا، فقالت لنفسها وقد راودها أمل مفاجئ: "يبدو هذا كصوت *قطار*".

وقد *كان* قطارًا بالفعل. وصلت توبينس إلى خط سكة حديد والذي كان على ارتفاع أدنى من ارتفاع الطريق الذي تسلكه توبينس، وكان يسير عليه قطار بضائع يصدر صفيرًا حادًا يثير الشجن في نفس توبينس. وخلف خط السكة الحديد كانت القناة، وعلى الضفة الأخرى من القناة كان ثمة منزل تعرفت عليه توبينس على الفور، وكان يربط بين ضفتي النهر جسرًا مقوسًا من الطوب الأحمر الفاتح. قادت توبينس سيارتها ببطء عبر الجسر الضيق، وتجاوزته إلى طريق بحيث صار المنزل على يمينها، وقد حاولت أن تنظر إلى داخل المنزل؛ فلم تستطع بسبب السور العالي نسبيًا، والذي يحجب المنزل عن الناظر من على الطريق.

كان المنزل على يمينها؛ لذا ركنت توبينس السيارة، وعادت إلى الجسر لترى المنزل بشكل أفضل من هناك.

كانت معظم النوافذ الطويلة مغلقة بشيش أخضر، وكان منظر البيت يوحي بأنه هادئ وخاوٍ، وقد بدا المنزل باعثًا على الطمأنينة في ضوء الشمس، ولم تكن هناك أمارات على أن أحدًا يعيش فيه. عادت توبينس إلى السيارة ومضت إلى مسافة أبعد. كان سور المنزل العالي نسبيًا ممتدًا عن يمينها، وعلى يسارها كان يوجد سياج يفصل بين الطريق الحقول الخضراء.

وصلت توبينس إلى البوابة الحديدية في السور، فركنت السيارة على جانب الطريق، وذهبت لتنظر من بين ثنايا البوابة. واستطاعت بالوقوف على أطراف أصابعها أن ترى ما بالداخل. هذا المكان ليس مزرعة بالتأكيد الآن، وإن كان يبدو عليه أنه

ربما كان كذلك فيما مضى. كانت الحديقة مزروعة، ولم تكن منمقة، لكنها تبدو أن شخصًا حاول أن ينمقها وفشل.

كان هناك ممر دائري يبدأ من البوابة الحديدية ويمتد عبر الحديقة ويحيط بالمنزل. لا بد أن هذه هي البوابة الأمامية، رغم أنها لا تبدو كبوابة أمامية؛ حيث إنها ليست سهلة الرؤية، وإن كانت قوية وتصلح لأن تكون بوابة خلفية. بدا المنزل مختلفًا تمامًا من هذا الجانب. أولًا، لم يكن المنزل فارغًا؛ حيث كان هناك أناس يعيشون فيه، وكانت النوافذ مفتوحة، والستائر ترفرف عليها، وهناك صندوق قمامة بجوار الباب. وعلى الطرف البعيد من الحديقة، رأت توبينس رجلًا مسنًا ضخم الجثة يعزق في الحديقة ببطء لكن بمثابرة. بالتأكيد بدا المنزل من مكان توبينس لا يحمل سحرًا؛ إذ لم يكن هناك فنان ليختاره تحديدًا لرسمه من هذه الزاوية. تعجبت توبينس من هذا، وترددت بين أن تدخل أو تنسى أمر المنزل تمامًا. لا، لن تنسى أمره بعد كل المشقة التي تكبدتها للعثور عليه. كم الساعة الآن؟ نظرت توبينس إلى ساعتها فوجدت أنها قد توقفت، ثم سمعت صوت باب المنزل، وهو يُفتح فاختلست النظر من البوابة مرة أخرى.

انفتح باب المنزل، وخرجت منه امرأة، والتي انحنت لتضع زجاجة حليب على الأرض، ثم انتصبت، لتلمح شيئًا عند البوابة. لقد رأت المرأة توبينس، وترددت لحظة، وقد بدا عليها أنها تحاول التفكير في قرار، ثم سارت في الممر المؤدي إلى البوابة، وقالت توبينس لنفسها: "يا إلهي، إنها أشبه بساحرة طيبة".

كانت امرأة في الخمسين من عمرها تقريبًا، ذات شعر طويل أشعث تعبث به الريح. منظر المرأة ذكّر توبينس بلوحة (رسمها

نيفينسون) لساحرة شابة تطير على عصا مقشة. ربما هذا هو السبب الذي جعل كلمة ساحرة تتبادر إلى ذهنها، لكن هذه المرأة لم تكن تحمل شيئًا من أمارات الشباب أو الجمال، بل كانت سيدة في منتصف العمر، ذات وجه مكتنز، ترتدي ملابس مبتذلة، وكانت ترتدي قبعة مدببة من أعلى، وكان أنفها وذقنها قريبين من بعضهما. من الطبيعي أن يوحي هذا الوصف بامرأة شريرة، لكنها في الحقيقة لم تبدُ شريرة، بل بدت طيبة إلى أبعد حد. قالت توبينس في نفسها عن المرأة: "أجل، أنتِ *أشبه* بساحرة، لكن ساحرة *طيبة*".

وصلت المرأة إلى البوابة بخطى مترددة، وتحدثت مع توبينس بصوت لطيف يحمل لكنة ريفية.

قالت: "هل تبحثين عن شيء؟".

فأجابت توبينس: "أنا آسفة. لابد أنك تعتقدين أنني وقحة لأختلس النظر إلى حديقتك بهذا الشكل، لكن ... لكن هناك أسئلة تراودني بشأن هذا المنزل".

قالت الساحرة الطيبة: "أتودين الدخول وإلقاء نظرة على الحديقة؟".

قالت توبينس: "شكرًا لك، لكني لا أريد أن أسبب لكِ أي إزعاج".

قالت الساحرة: "ليس هناك إزعاج على الإطلاق؛ فأنا ليس لديَّ ما أفعله. عصر هذا اليوم لطيف، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "بالفعل".

قالت الساحرة الطيبة: "ظننتُ أنك ضللت الطريق؛ فهذا ما يحدث للناس أحيانًا هنا".

فقالت توبينس: "لا، لقد بدا لي هذا المنزل جذابًا للغاية عندما كنت أهبط التل من الجانب الآخر من الجسر".

قالت المرأة: "هذا هو أجمل جانب من المنزل. هناك فنانون يأتون ويرسمونه أحيانًا، أو كانوا يفعلون ذلك فيما مضى".

قالت توبينس: "أجل، أعتقد أنهم يفعلون ذلك. لقد رأيتُ لوحة في أحد المعارض لمنزل يشبه هذا المنزل كثيرًا، بل وربما هو هذا المنزل".

قالت المرأة: "ربما هو بالفعل. من الممتع أن يأتي الفنانون ويرسموا لوحات له، ثم يأتي فنانون آخرون ويفعلون الشيء نفسه، لكن يبدو أنهم كانوا يرسمون اللوحة نفسها كل عام. يبدو أن كل الفنانين يختارون رسم الشيء نفسه، ولا أعرف لماذا. فهم إما يرسمون المروج وجداول الماء، وإما شجرة بلوط معينة، أو مجموعة من شجر الصفصاف، أو المنظر نفسه لدار عبادة، فتجدين أن هناك خمس أو ست لوحات للشيء نفسه، ومعظمها سيئة، لكني في النهاية لا أعرف شيئًا عن الفن. تفضلي بالدخول".

قالت توبينس: "أنت امرأة لطيفة"، ثم أردفت: "ولديكِ حديقة جميلة للغاية".

قالت المرأة: "إنها حديقة لا بأس بها. إننا نزرع هنا بعض الأزهار والخضراوات وأشياء من هذا القبيل، لكن زوجي لم يعد يستطيع الاعتناء بها كثيرًا هذه الأيام، وأنا مشغولة بأشياء أخرى".

قالت توبينس: "لقد رأيتُ هذا المنزل ذات مرة من القطار؛ فقد أبطأ القطار وتمكنت من رؤيته جيدًا، وتساءلتُ عما إذا كنت سأراه مرة أخرى. كان هذا منذ فترة".

قالت المرأة: "واليوم هبطت سيارتك منحدر التل ورأيت المنزل فجأة. من الغريب حدوث أشياء كهذه، أليس كذلك؟".

قالت توبينس في نفسها: "شكرًا لله. هذه المرأة يسهل للغاية التحدث معها، فأنا لست مضطرة لتبرير أي شيء لها، ويمكنني أن أقول تقريبًا كل ما يتبادر إلى ذهني".

قالت الساحرة الطيبة: "أتريدين الدخول؟ أرى أنك مهتمة بالمنزل. هو منزل قديم، بُني في أواخر العصر الجورجي، وقد أضفنا إليه أشياء؛ فنحن لم نتسلم إلا نصف منزل فقط".

قالت توبينس: "أوه، فهمت. إنه مقسم لنصفين، أليس كذلك؟".

قالت المرأة: "هذا في الواقع هو ظهر المنزل، أما المقدمة ففي الجانب الآخر، وهو الجانب الذي ترينه من الجسر. إنها طريقة غريبة لتقسيم المنزل، وكان من الأسهل لو تم تقسيمه من اليمين إلى اليسار وليس من الخلف للأمام. هذا في الحقيقة هو ظهر المنزل".

سألتها توبينس: "منذ متى وأنتِ تعيشين هنا؟".

أجابت المرأة: "منذ ثلاث سنوات. بعد أن تقاعد زوجي، كنا نبحث عن مكان صغير هادئ رخيص الثمن وسط الأراضي الزراعية. كان هذا المنزل يُعرض بسعر رخيص؛ لأنه في مكان معزول وبعيد عن أية بلدة".

قالت توبينس: "لقد رأيت دار عبادة عن بعد".

قالت الساحرة الطيبة: "إنها دار عبادة بلدة سوتون تشنسلر، وهي تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبًا من هنا. لكن لا يتردد عليها الكثير من الناس؛ فأنت لن تجدي منازل هنا إلا عندما تصلين إلى البلدة، وهي بلدة صغيرة للغاية أيضًا. أتريدين كوبًا من الشاي؟ لقد وضعتُ الإبريق على النار منذ دقيقتين ثم خرجتُ ورأيتك". رفعت المرأة يدها إلى فمها، وصاحت: "آموس. آموس".

فالتفت الرجل الضخم البعيد إليها.

قالت له المرأة: "سأحضر لك الشاي بعد عشر دقائق".

رفع الرجل يده بالموافقة، فالتفتت المرأة، وفتحت الباب، ودعت توبينس للدخول.

وقالت: "اسمي أليس بيري".

قالت توبينس: "وأنا السيدة بيريسفورد".

توقفت توبينس لحظات وفكرت في قصة هانسل وجريتل حين دعتهما الساحرة لدخول منزلها المصنوع من الحلوى.

ثم نظرت توبينس مرة أخرى إلى أليس بيري، وقالت في نفسها إنها لا يمكن أن تكون شريرة مثل ساحرة بيت الحلوى في قصة هانسل وجريتل. إنها تبدو امرأة عادية تمامًا. لا، ليس تمامًا؛ فهي تتصرف تجاهها بلطف شديد غريب. فكرت توبينس: "ربما تكون هذه المرأة قادرة على إلقاء تعويذات، لكني متأكدة أنها تعويذات طيبة". حاولت توبينس التوقف عن التفكير قليلًا، وتجاوزت عتبة الباب، لتدخل منزل الساحرة.

كان المنزل مظلمًا بالداخل، والممرات صغيرة. قادت الطريق السيدة بيري، واجتازت الاثنتان مطبخًا، ووصلتا إلى غرفة جلوس، وكانت تبدو خلفها بوضوح غرفة المعيشة العائلية. لم يكن هناك شيء مثير للاهتمام في المنزل، وفكرت توبينس أنه ربما تمت إضافة جزء على الطراز الفيكتوري إلى الجزء الرئيسي من المنزل. كان عرض المنزل ضيقًا، ومما بدا لها فإنه يتكون من ممر أفقي مظلم تتفرع منه بعض الغرف. رأت توبينس أن هذه طريقة غريبة لتقسيم المنزل.

قالت السيدة بيري: "تفضلي بالجلوس هنا، وسأجلب لكِ الشاي".

توبينس: "دعيني أساعدك".

قالت السيدة بيري: "لا عليكِ. لن يستغرق الأمر دقيقة؛ فكل شيء جاهز على الصينية".

صدر صفير من المطبخ؛ إذ من الواضح أن الإبريق يغلي ليتم رفعه من على النار. خرجت السيدة بيري، وعادت بعد دقيقة أو اثنتين ومعها الصينية وعليها طبق من الكعك، وبرطمان مربى، وثلاثة فناجين.

قالت السيدة بيري: "أعتقد أنك أُصبتِ بخيبة أمل عندما رأيتِ المنزل من الداخل".

كانت هذه ملحوظة ماهرة، وتقترب جدًا من الحقيقة.

قال توبينس: "كلا، لا".

قالت السيدة بيري: "كنت سأصاب بخيبة الأمل لو كنت مكانك، بسبب عدم التماثل، أليس كذلك؟ أقصد تماثل الجزأين

الأمامي والخلفي من المنزل. لكن العيش في هذا المنزل مريح. صحيح أنه لا توجد به الكثير من الغرف، ولا يدخله الكثير من الضوء، لكنه مناسب للغاية بالنسبة إلى سعره".

قالت توبينس: "من قَسَّم هذا المنزل، ولماذا؟".

قالت السيدة بيري: "أعتقد أن هذا حدث منذ عدة سنوات. أظن أن هناك شخصًا ما رأى أن المنزل غير مريح أو أكبر مما ينبغي، ولم يكن يريد سوى مكان صغير لقضاء عطلات الأسبوع أو شيء من هذا القبيل. فاحتفظ بالغرف الجيدة، وغرفة الطعام، وغرفة الاستقبال، وحوَّل غرفة مكتب صغيرة إلى مطبخ، بالإضافة إلى غرفتي نوم وحمام في الطابق العلوي. وأنشأ جدارًا ليفصل بين هذا الجزء والجزء الآخر الذي كان عبارة عن مطبخ وغرف تخزين وأشياء أخرى. لقد غيَّر في تصميم المكان قليلا".

سألتها توبينس: "من الذي يعيش في الجزء الآخر؟ شخص يأتي إليه في العطلات الأسبوعية فقط؟".

أجابت السيدة بيري: "لا أحد يعيش هنا الآن. تناولي كعكة أخرى، يا عزيزتي".

قالت توبينس: "شكرًا لكِ".

أكملت السيدة بيري كلامها: "لم يأت أحد إلى هنا منذ سنتين على الأقل. أنا لا أعرف حتى من يمتلك المنزل الآن".

قالت توبينس: "وقبل سنتين، عندما جئتما هنا للمرة الأولى؟".

قالت السيدة بيري: "كانت هناك شابة معتادة المجيء إلى هنا، وقد سمعتُ أنها ممثلة. لكننا لم نكن نراها بشكل واضح أبدًا، بل نلمحها من بعيد فقط. كانت معتادة الحضور في وقت متأخر من مساء السبت بعد المسرحية التي تقدمها على ما أظن، وكانت ترحل في مساء الأحد".

قالت توبينس بشكل يشجع السيدة بيري على مواصلة التحدث: "يا لها من امرأة غامضة!".

فقالت السيدة بيري: "كان هذا رأيي فيها دائمًا، ولقد اعتدت أن أنسج قصصًا من خيالي عنها. كانت تذكرني بالممثلة جريتا جاربو؛ حيث كانت ترتدي بشكل دائم نظارة سوداء، تخفي تحتها عينيها.، وكذلك قبعة، يا إلهي، ما زلتُ أرتدي القبعة".

ثم خلعت القبعة المدببة التي تشبه قبعة الساحرات، وضحكت.

ثم قالت: "هذه القبعة من أجل مسرحية دينية نقدمها للأطفال في دار العبادة، وأنا ألعب دور الساحرة".

اندهشت توبينس، وقالت: "أوه"، ثم تداركت نفسها، وقالت: "هذا شيء ممتع".

فقالت السيدة بيري: "أجل، إنه شيء ممتع، أليس كذلك؟ أنا مناسبة للغاية لأداء دور الساحرة، أليس كذلك؟"، ثم ضحكت، ونقرت على ذقنها، وأكملت: "أنا لديَّ وجه ساحرة، وأتمنى دائمًا ألا أخيف الناس بسبب هذا. أعتقد أنهم يظنون أن لديَّ نظرات شريرة".

فقالت توبينس: "لا أعتقد أنهم يظنون ذلك. أعتقد أنك كنتِ ستصبحين ساحرة طيبة".

قالت السيدة بيري: "أنا سعيدة أن هذا هو رأيك، كما كنت أقول لك، ستندهشين من الأشياء التي اعتدتُ أن أختلقها في ذهني بشأن تلك الممثلة التي لا أتذكر اسمها الآن. ربما اسمها السيدة مارشمنت، لكني لست متأكدة. أنا لم أقابلها أو أتحدث إليها من قبل، لكني أتخيل أحيانًا أنها خجول وعصبية، وأن الصحفيين يطاردونها لكنها ترفض مقابلتهم. وفي أحيان أخرى، كنت أتخيل ـ وستقولين عليَّ حمقاء بسبب هذا ـ أنها ارتكبت أشياء شنيعة، وأنها تخشى أن يتعرف أحد عليها. ربما هي ليست ممثلة على الإطلاق. ربما تبحث الشرطة عنها. ربما هاربة من العدالة. من المثير أحيانًا اختلاق أشياء في ذهنك، لا سيما وأنت لا ترين الكثير من الناس".

قالت توبينس: "ألم يكن يأتي أحد معها أبدًا؟".

قالت السيدة بيري: "لست متأكدة بشأن هذا. إن الجدران التي قسّمت المنزل إلى نصفين ليست سميكة، ويمكنك من خلالها أن تسمعي أصواتًا من الجانب الآخر. أعتقد أنها كانت تجلب شخصًا معها في العطلات الأسبوعية أحيانًا"، ثم أومأت وأكملت: "كان رجلًا. أعتقد أن هذا هو السبب في أنها أرادت مكانًا هادئًا مثل هذا".

قالت توبينس، وقد قررت الانضمام إليها في اختلاق أشياء عن المرأة: "رجل متزوج؟".

قالت السيدة بيري: "أجل، قد يكون رجلًا متزوجًا، ولمَ لا يكون كذلك؟".

قالت توبينس: "ربما كان زوجها هو من يأتي معها. ربما اشترى هذا المكان في منطقة ريفية لأنه أراد أن يقتلها، وربما يدفن جثتها في الحديقة".

فقالت السيدة بيري: "يا إلهي. أنت لديك مخيلة قوية، أليس كذلك؟ لم تخطر لي هذه الفكرة أبدًا".

قالت توبينس: "لا بد أن هناك *شخصًا* يعرف شيئًا عنها. أعني سماسرة العقارات وأناسًا من هذا القبيل".

قالت السيدة بيري: "أوه، أعتقد هذا. لكني أفضل عدم معرفة شيء، إذا فهمت ما أعنيه".

قالت توبينس: "أوه، أجل. أفهم ذلك".

قالت السيدة بيري: "هذا المنزل له طابع غريب. هناك إحساس بأن شيئًا قد يحدث في هذا المنزل".

قالت توبينس: "هل هناك من يأتي لتنظيف المنزل لها أو شيء من هذا القبيل؟".

قالت السيدة بيري: "من الصعب أن تجدي أحدًا في هذا المكان النائي".

انفتح باب المنزل، ودخل الرجل الضخم الذي كان يعزق في الحديقة، وذهب إلى المطبخ ليغسل يده، ثم عاد إلى غرفة الجلوس.

قالت السيدة بيري: "هذا زوجي، آموس. رحب بضيفتنا، يا آموس. إنها السيدة بيريسفورد".

قالت توبينس له: "كيف حالك؟".

كان آموس بيري رجلاً طويلاً بطيء الحركة، وقد بدا أضخم وأقوى مما بدا عليه عندما رأته توبينس في المرة الأولى. وبرغم أنه بطيء الحركة والمشي، فقد كان عظيم البنيان مفتول العضلات. قال لتوبينس: "أهلاً بك، يا سيدة بيريسفورد".

قالها الرجل بصوت سار وابتسامة، لكن توبينس تساءلت في نفسها لحظات عما إذا كان هذا الرجل متزنًا ذهنيًا بشكل كامل. كما لفت انتباهها النظرة الساذجة في عينيه، وهذا جعلها تفكر أيضًا فيما إذا كانت السيدة بيري قد أرادت مكانًا هادئًا للعيش فيه بسبب خلل ذهني لدى زوجها.

قالت السيدة بيري: "إن آموس مغرم للغاية بالحديقة".

بعد دخول آموس، انخفض حماس المحادثة. وقد كانت السيدة آموس هي أكثر مَن تحدث، لكن بدا أن شخصيتها قد تغيرت بعد حضور الزوج؛ حيث أصبحت تتحدث ببعض التوتر، وتولي انتباهًا شديدًا لزوجها. اعتقدت توبينس أن السيدة بيري تحاول تشجيع آموس على التحدث مثلما تحاول الأم تشجيع ابنها الخجول على أن يتحدث أمام الضيوف، وأن يظهر أمامهم بأفضل شكل ممكن، وألا يقلق من أن يبدو أخرق أمامهم.

نهضت توبينس بعد أن انتهت من احتساء الشاي، وقالت: "سأرحل الآن. شكرًا جزيلاً لك على حسن ضيافتك، يا سيدة بيري".

فنهض السيد بيري، قائلاً لها: "سأريك الحديقة قبل أن تغادري. هيا، *تعالي معي*".

خرجت توبينس معه إلى الحديقة، وأخذها إلى ركن خلف المكان الذي يعزق فيه.

قال السيد بيري: "أزهار جميلة، أليس كذلك؟ لديَّ بعض الأزهار التقليدية هنا. انظري إلى هذه الزهرة ذات الخطوط الحمراء والبيضاء".

قالت توبينس: "اسمها كموندون بوربير".

فقال بيري: "نحن نطلق عليها هنا 'يورك ولانكستر' نسبة إلى الحرب الورديتن. رائحتها جميلة، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "رائحتها جميلة بالفعل".

قال بيري: "هناك زهرة أفضل منها وهي زهرة هجين الشاي التي تعد من الصيحات الجديدة".

كانت الحديقة تبدو بطريقة ما مثيرة للشفقة، وكانت الأعشاب مهذبة بطريقة غير متقنة، وكانت الأزهار المقطوفة مربوطة ببعضها بطريقة غير احترافية.

قال السيد بيري: "ألوان زاهية. أحب الألوان الزاهية. هناك الكثير من الأشخاص الذين يزورون حديقتنا. أنا سعيد أنك زرتها".

قالت توبينس: "شكرًا جزيلاً لك. أعتقد أن حديقتك ومنزلك لطيفان للغاية".

قال بيري: "عليك أن تري الجانب الآخر منه".

قالت توبينس: "هل هو للبيع أم للإيجار؟ تقول زوجتك إنه لا يوجد أحد يعيش فيه حاليًا".

قال بيري: "لا أعرف. نحن لا نرى أحدًا، ولم نر أي لافتة بشأنه، ولا نرى أحدًا يأتي ليراه".

قالت توبينس: "سيكون من اللطيف العيش في منزل كهذا".

قال بيري: "أتريدين منزلًا؟".

نجحت توبينس سريعًا في إعداد إجابة وقالت: "أجل، في الحقيقة، نحن نبحث عن منزل صغير في الريف نعيش فيه بعد تقاعد زوجي، وهو سيتقاعد بعد عام، لكننا نبحث مبكرًا حتى يتسنى لنا وقت كاف".

قال بيري: "المكان هادئ هنا إذا كنت تحبين الهدوء".

قالت توبينس: "أعتقد هذا. يمكنني أن أسأل السماسرة المحليين. هل اشتريتَ منزلك بهذه الطريقة؟".

قال بيري: "في البداية رأينا إعلانًا في الصحيفة، ثم ذهبنا إلى سماسرة المنزل لأجل...".

قالت توبينس: "أين كان ذلك؟ في سوتون تشنسلر؟ هذه أقرب بلدة لكما، أليس كذلك؟".

قال بيري: "سوتون تشنسلر؟ لا، يوجد مكتب السماسرة ببلدة ماركت باسنج، واسم المكتب روسل وطومسون. يمكنك الذهاب إلى هناك، وسؤالهم".

قالت توبينس: "أجل، سأفعل. كم تبعد ماركت باسنج عن هذا المكان".

قال بيري: "إنها تبعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا عن سوتون تشنسلر، ونحو عشرة كيلومترات عن هنا. هناك طريق جيد إلى هناك من سوتون تشنسلر، لكن كل الطرق هنا غير ممهدة".

قالت توبينس: "حسنًا، إلى اللقاء، يا سيد بيري. شكرًا لك لأنك أريتني حديقتك".

توقف بيري فجأة، وقال: "انتظري"، ثم قطف زهرة، وعلقها في تجويف عروة في معطف توبينس، وقال: "تفضلي. إنها تبدو جميلة عليك".

شعرت توبينس للحظة بخوف مفاجئ من تصرف هذا الرجل الضخم الطيب بطيء الحركة. نظر الرجل إليها مع ابتسامة خبيثة، وقال مرة أخرى: "إنها تبدو جميلة عليك".

قالت توبينس في نفسها: "أنا سعيدة أنني لست شابة... لا أعتقد أنني سيروقني حينها أن يضع هذا الرجل زهرة في عروة معطفي". ودعته توبينس مرة أخرى، ورحلت عنه مسرعة.

كان باب البيت مفتوحًا، فدخلت توبينس لتودع السيدة بيري، فوجدتها في المطبخ تغسل أدوات الشاي، وبشكل تلقائي أمسكت توبينس بالمنشفة وبدأت تجفف ما تغسله السيدة بيري.

قالت توبينس: "شكرًا لكِ ولزوجكِ على لطفكما وحسن ضيافتكما لي. *ما هذا؟*".

فجأة صدر من جدار المطبخ أو بالأحرى من خلف جدار المطبخ حيث يوجد موقد قديم الطراز، صوت صريخ وجلبة وخشخشة.

فقالت السيدة بيري: "هذا غراب وقع في مدخنة المنزل الآخر. هذا يحدث في هذا الوقت من العام، وقد سقط غراب في مدخنتنا الأسبوع الماضي. إنها تصنع أعشاشًا في المداخن".

قالت توبينس: "ماذا .. في المنزل الآخر؟".

قالت السيدة بيري: "هذا غراب آخر".

سمعتا مرة آخرى صوت خشخشة وصياح لطائر مسكين؛ لذا أردفت السيدة بيري قائلة: "ليس هناك من يبالي بهذا في المنزل الفارغ. لابد أن يتم تنظيف هذه المداخن".

استمر صوت الخشخشة والجلبة.

قالت توبينس: "طائر مسكين".

قالت السيدة بيري: "أعرف. لن يستطيع الخروج مرة أخرى".

قالت توبينس: "أتعنين أنه سيموت بالداخل؟".

قالت السيدة بيري: "أجل. لقد هبط واحد في مدخنتنا، بل اثنان في الواقع. أحدهما كان طائرًا صغيرًا، وقد كان على ما يرام، وتمكنّا من إخراجه ليعود إلى الطيران مرة أخرى، أما الآخر فقد مات".

استمر صوت الصريخ والمقاومة المستميتة.

قالت توبينس: "أوه، أتمنى لو نستطيع الوصول إليه".

دخل السيد بيري من الباب، ونظر لكلتيهما قائلاً: "أتحتاجان إلى شيء؟".

قالت السيدة بيري: "هناك طائر قد سقط يا آموس. لا بد أنه في مدخنة غرفة الاستقبال في المنزل الآخر. أتسمعه؟".

قال آموس: "أجل، إنه يهبط من عش الغربان".

قالت السيدة بيري: "أتمنى لو كان بوسعنا الدخول هناك".

قال آموس: "لا يمكننا فعل شيء. هذا الطائر سيموت من الخوف، إن لم يمت بسبب آخر".

قالت السيدة بيري: "ثم تصدر رائحة كريهة منه".

قال آموس: "لن تشمي شيئًا من هنا. أنت فقط رقيقة القلب"، ثم قلب نظره بين كلتيهما، وقال: "شأن كل النساء. لكن يمكننا إخراج الطائر إذا أردتما".

قالت السيدة بيري: "كيف، هل هناك نافذة مفتوحة؟".

قال آموس: "يمكننا أن ندخل من الباب".

قالت السيدة بيري: "أي باب؟".

قال آموس: "الباب الموجود في الفناء، ومفتاحه معلق بين المفاتيح هناك".

ثم خرجوا، واتجهوا إلى نهاية الردهة، ودخلوا سقيفة بها أصص زرع، وبداخل السقيفة كان الباب الصغير المؤدي إلى المنزل الآخر. وكانت هناك ستة أو سبعة مفاتيح صدئة معلقة على مسمار بالقرب من باب السقيفة.

قال السيد بيري وهي يشير إلى أحد المفاتيح: "هذا هو المفتاح".

ثم أخذ المفتاح ووضعه في الباب، وبعد محاولات كثيرة استخدم فيها السيد بيري القوة واللين، دار المفتاح الصدئ في القفل.

دلف قائلًا: "لقد دخلت إلى هنا من قبل عندما سمعتُ صوت ماء. شخص ما قد نسي أن يغلق الصنبور بإحكام".

ثم دخل وتبعته المرأتان. كان الباب يؤدي إلى غرفة صغيرة تحتوي على أوعية بها زهور على رف، كما يوجد حوض أعلاه صنبور.

قال آموس: "هذه غرفة للعناية بالزهور. أتريان هذا؟ هناك الكثير من المزهريات المتبقية هنا".

كان هناك باب آخر للخروج من غرفة العناية بالزهور ولم يكن مغلقًا. فتحه آموس، ودلفوا منه إلى ممر يفضي إلى ما رأت توبينس أنه عالم آخر. كان الممر مفروشًا بسجادة، وكان هناك باب نصف مفتوح يتهادى منه صوت طائر يعاني. دفع بيري الباب بيده، ودخلت زوجته وتوبينس.

كانت النوافذ مغلقة، لكن شيش إحدى النوافذ لم يكن مغلقًا بإحكام، ويتسرب منه بعض الضوء. على الرغم من الإضاءة الخافتة، كان بالإمكان رؤية سجادة خضراء اللون وإن كانت باهتة، وكان هناك رف كتب على الحائط، لكن لا توجد مقاعد ولا مناضد. لا شك أن هذه الغرفة كان بها أثاث ونُقل منها، لكن الستائر والسجاجيد قد تُركت للمستأجر التالي.

تقدمت السيدة بيري نحو المدفأة، حيث كان الطائر يقبع في معاناة وهو يصيح ويُحدث جلبة. التقطت السيدة بيري الطائر قائلة: "افتح النافذة إن استطعت، يا آموس".

ذهب آموس إلى النافذة، وفتح الدرفة غير محكمة الغلق أولًا، ثم فتح الثانية، ثم فتح المزلاج، ورفع الجزء الزجاجي السفلي من النافذة لأعلى، فصدر صوت مزعج. وبمجرد انفتاح النافذة، مالت السيدة بيري، وأطلقت الغراب، الذي هبط على أرضية الحديقة وأخذ يتقافز عليها.

قال بيري: "من الأفضل أن نقتله. إنه في حالة بائسة".

قالت زوجته: "اتركه قليلاً؛ فأنت لا تعرف ما سيحدث. إن الطيور تتعافى سريعًا. الخوف هو ما يجعلها تبدو مشلولة الحركة".

وبالفعل بعد لحظات وبعد معاناة ومحاولات للرفرفة، تمكن الغراب من أن يطير ويحلق بعيدًا.

قالت السيدة بيري: "أتمنى ألا يسقط في المدخنة مرة أخرى. الطيور مخلوقات خرقاء لا تعرف أين صالحها، فالطائر يدخل بإرادته غرفة قد لا يستطيع الخروج منها أبدًا بمفرده، ثم أضافت: "يا لها من فوضى!".

حملق ثلاثتهم إلى أرضية المدفأة، حيث تساقط سخام وحصى وطوب مكسور. من الواضح أن أحدًا لم ينظف المدخنة ويعتنِ بها منذ وقت طويل.

قالت السيدة بيري، وهي تنظر إلى أنحاء المكان: "لا بد أن يأتي شخص ويعيش هنا".

وافقتها توبينس الرأي قائلة: "يجب أن يعتني شخص ما بالمكان. لابد أن يأتي مقاول ويلقي نظرة على البيت ويفعل شيئًا حياله؛ وإلا سينهار المنزل قريبًا".

"من الراجح أن الماء يترسب من سطح المنزل إلى الغرف العلوية، وهذا ظاهر على سقف الغرفة هنا".

قالت توبينس: "من المخزي تدمير منزل جميل كهذا، وهذه غرفة جميلة بحق".

نظرت توبينس والسيدة بيري إلى أرجاء المكان في إعجاب. لقد بُني هذا المنزل عام 1970، وقد حمل كل المزايا التي قد تحملها المنازل في هذه الفترة، وقد صُمم في الأصل ليشبه ورق الصفصاف.

قالت السيدة بيري: "لقد صار في حالة متهالكة الآن".

نكزت توبينس بحذائها الحطام الموجود في أرضية المدفأة.

استطردت السيدة بيري: "يجب على شخص ما تنظيف هذا".

قال زوجها: "لماذا تشغلين بنفسك بمنزل لا يخصك؟ دعيه وشأنه يا امرأة. إنه لن ينهار صباح الغد".

قلبت توبينس الطوب بحذائها، وقالت بتأفف: "أوه".

كان هناك طائران ميتان في المدفأة، ويبدو من منظرهما أنهما ماتا منذ مدة.

قال بيري: "هذا هو العش الذي هبط منذ بضعة أسابيع. من العجيب أن الرائحة ليست أقوى مما هي عليه".

قلبت توبينس بحذائها شيئًا نصفه مدفون في الرماد، وقالت: "ما هذا الشيء؟". ثم انحنت والتقطته.

قالت السيدة بيري: "لا تمسكي طائرًا ميتًا".

قالت توبينس: "هذا ليس طائرًا. لابد أنه سقط من المدخنة"، ثم حملقت إليه، واستطردت: "إنها دمية. دمية طفل".

أمعن الثلاثة النظر إليها، فوجدوا أنها بالية وثيابها ممزقة ورأسها يتدلى على كتفها، وإحدى عينيها الزجاجتين منبثقة إلى الخارج.

قالت توبينس وهي تمسكها: "إنني أتعجب كيف وصلت دمية طفل لأعلى المدخنة. أمر غريب".

الفصل الثامن

سوتون تشنسلر

بعد مغادرة المنزل المطل على القناة، قادت توبينس سيارتها عبر الطريق المتعرج الضيق الذي سيقودها إلى بلدة سوتون تشنسلر، وفقًا لكلام آموس بيري. كان طريقًا منعزلًا لا تُرى أية بيوت منه، بل كانت توبينس ترى فقط بوابات المزارع التي كان يمتد منها ممرات طينية إلى الداخل. كانت حركة المرور خفيفة للغاية؛ إذ لم يمر بتوبينس إلا محراث زراعي، وشاحنة تعلن بكل فخر عن المنتج الذي توزعه بصورة لرغيف خبز ضخم غريب الشكل. كانت توبينس قد رأت برج دار العبادة في الأفق البعيد، ثم اختفى كليًا، لكنه عاود الظهور وبدا على مقربة عندما انعطف الطريق بتوبينس على نحو مفاجئ وحاد ليمضي في طريق مشجّر. نظرت توبينس إلى عداد السرعة، فوجدت أنها قطعت نحو ثلاثة كيلومترات من لحظة خروجها من البيت المطل على القناة.

كانت دار عبادة قديمة جذابة، قائمة على مساحة كبيرة، وأمام بابها تقف شجرة توت ضخمة وحيدة.

ترجّلت توبينس من سيارتها أمام البوابة، ودخلت منها، ووقفت للحظات، ومسحت بعينيها دار العبادة من الخارج، والساحة القائمة بها، ثم رفعت المقبض الثقيل لباب دار العبادة المقوس من أعلى، والذي لم يكن مغلقًا، ودلفت إلى الداخل.

لم يكن المكان بالداخل جذابًا؛ فدار العبادة كانت قديمة بلا شك، لكنها خضعت لترميمات كثيرة في العصر الفيكتوري، وقد تسبب ما أضيف إليها من المقاعد المصنوعة من خشب الصنوبر، والنوافذ ذات الألوان الحمراء والزرقاء البراقة، في فقدانها لأي جاذبية فريدة كانت تتمتع بها فيما مضى. كانت هناك امرأة ترتدي معطفًا من الصوف وتنورة، ترتب الزهور في زهريات نحاسية في أنحاء الدار. رمقت المرأة توبينس نظرة حادة متسائلة، بينما كانت الأخيرة تسير في الممر بين المقاعد تنظر إلى اللوحات التذكارية على الجدران، ولاحظت أن أغلب اللوحات في السنوات المبكرة تعود لعائلة اسمها وارينر من رواد دار العبادة هذه: القبطان وارينر، والرائد وارينر، وسارة إليزابيث وارينر، الزوجة الرائعة لجورج وارينر. ثم بعد ذلك لوحة تسجل وفاة جوليا ستارك (زوجة رائعة أخرى) لفيليب ستارك؛ ما يوحي بأن عائلة وارينر قد اندثرت. لم تنجب هذه العائلة شخصًا معروفًا أو مثيرًا للاهتمام. خرجت توبينس من مبنى الدار، وتمشت في الخارج؛ لأنها رأت أن الدار بالخارج أفضل كثيرًا من الداخل.

كانت دار عبادة من الحجم المتوسط، وخمنت توبينس أن بلدة سوتون تشنسلر كانت تحتل أهمية فيما مضى أكثر من الآن كمركز للأرياف المحيطة بها. تركت توبينس سيارتها كما هي،

وتمشت حتى البلدة. كان يوجد بالبلدة متجر، ومكتب بريد، ونحو اثني عشر كوخًا أو منزلًا صغيرًا، وكان منزل أو اثنان مسقوفين بالقش، أما باقي المنازل فبسيطة وغير جذابة. كانت هناك ستة منازل بناها مجلس البلدة في نهاية شارع البلدة، وقد بدت هذه المنازل مختلفة بعض الشيء عن سائر المنازل الأخرى. وعلى أحد الأبواب، كانت هناك لافتة نحاسية مكتوب عليها "آرثر توماس، لتنظيف المداخن".

تساءلت توبينس ما إذا كان أي من السماسرة المسئولين عن المنزل يستعينون بآرثر هذا من أجل المنزل المطل على القناة. فكرت توبينس في كم أنها حمقاء لأنها لم تسأل عن اسم المنزل.

عادت توبينس مشيًا إلى دار العبادة وسيارتها، وتوقفت لتشاهد من كثب ساحة دار العبادة التي راقتها. كان هناك بعض الموتى المدفونين حديثًا في الساحة، وكانت معظم شواهد القبور مصممة على الطراز الفيكتوري، وقد تهالك أقدمها بفعل الفطريات والزمن. كانت الشواهد القديمة جذابة، وبعضها عبارة عن رخام عمودي منحوت عليه صورة من أعلى، ويحيط بها إكليل من الورد. تجولت توبينس بين الشواهد، ونظرت إلى الأسماء عليها، فوجدت أسماء لراحلين من عائلة وارينر أيضًا: ماري وارينر، ماتت في سن 47، أليس وارينر، ماتت في سن 33، الكولونيل جون وارينر، قتل في أفغانستان. كما كانت هناك أسماء لأطفال من عائلة وارينر، وقد كُتب تحت أسمائهم عبارات حزن، ونصوص دينية عن الأمنيات الورعة. تساءلت توبينس عما إذا كان أحد من عائلة وارينر لا يزال يعيش هنا.

من الواضح أنه لم يعودوا يُدفنون هنا؛ فأحدث شاهد قبر لهم يحمل تاريخ 1843، بالقرب من الشجرة العملاقة رأت توبينس رجل دين مسنًا منحنيًا فوق صف من شواهد القبور القديمة بالقرب من جدار خلف دار العبادة. انتصب الرجل واستدار عندما اقتربت توبينس منه.

قال الرجل بسرور: "مساء الخير".

قالت توبينس: "مساء الخير. لقد كنت أشاهد دور العبادة".

قال رجل الدين: "لقد أتلفتها التجديدات الفيكتورية".

كان رجلاً ذا صوت سار وابتسامة لطيفة، وبدا أنه في السبعين من عمره، لكن توبينس قد قدَّرت أنه أصغر من هذا، لكنه يبدو أكبر سنًا بسبب الروماتيزم وقدميه الضعيفتين.

أكمل الرجل: "كان هناك الكثير من الأموال في العصر الفيكتوري، والكثير من الحرفيين، وكانوا متدينين، لكن لم يكن لديهم حس ولا ذوق فني. هل رأيت النافذة الشرقية؟".

قالت توبينس: "أجل، إنها مريعة".

قال رجل الدين: "أتفق معك تمامًا".

قالت توبينس: "هل أنت هنا منذ زمن طويل؟".

قال رجل الدين: "منذ عشر سنوات يا عزيزتي. إنها دار عبادة جميلة، والناس هنا لطفاء، وأنا سعيد للغاية هنا"، ثم أردف في حزن: "لكن خطبي لا تعجبهم كثيرًا. أنا أبذل ما في وسعي، لكني لا أستطيع التظاهر بأني شخص عصري"، ثم قال وهو يشير إليها بالجلوس على شاهد قبر قريب: "اجلسي".

جلست توبينس في امتنان، وجلس رجل الدين على شاهد آخر قريب منها.

أضاف الرجل معتذرًا: "أنا لا أستطيع الوقوف مدة طويلة. هل بإمكاني فعل شيء لكِ أم أنك تشاهدين وحسب".

قالت توبينس: "أنا أشاهد وحسب. لقد ضللت الطريق وأنا أقود السيارة في هذه الطرق، ففكرتُ في أن ألقي نظرة على دار العبادة".

قال رجل الدين: "أجل. من الصعب أن يجد المرء وجهته هنا، فالكثير من لافتات الطرق مكسورة، ومجلس البلدة لا يصلحها كما ينبغي. لم أكن أعرف أن اللافتات مهمة هنا إلى هذا الحد؛ فالأشخاص الذين يقودون سياراتهم في هذه الطرق الفرعية الضيقة هم عادة يتنزهون ولا يحاولون الوصول إلى وجهة معينة، أما من يحاولون الوصول إلى مكان معين فيسلكون الطرق الرئيسية، خاصة الطريق السريع الجديد. هذا ما أعتقده على الأقل. إزعاج وسرعة وقيادة متهورة. يا إلهي! لا تبالي بكلامي، فأنا رجل عجوز متهالك. لن يمكنكِ تخمين ما أفعله هنا".

قالت توبينس: "لقد رأيتك تفحص بعض شواهد القبور. هل عبث أحد بالقبور؟ هل قام مراهقون بتحطيم شواهد قبور؟".

أجاب رجل الدين: "إن أذهان المراهقين تتجه إلى أشياء أخرى هذه الأيام، وهي تكسير أكشاك الهواتف العمومية وأشياء أخرى. أولاد مساكين، لا يعرفون كيف ينتفعون بوقتهم، ولا يسعهم التفكير في شيء آخر ليسليهم سوى تحطيم الأشياء. شيء محزن، أليس كذلك؟ محزن للغاية. لا، ليست هناك أضرار

مـن التـي ذكرتها؛ فـالأولاد هنا أكثـر لطفًا بشكل عـام. أنا فقط أبحث عن قبر طفلة".

تململت توبينس، وقالت: "قبر طفلة؟".

قـال رجـل الدين: "أجـل، لقد بعث لـي رسالة شخص اسمه الرائـد ووتـرز، وسألنـي عما إذا كانـت هناك طفلـة مدفونة هنا. نظـرت فـي سجـل الدار بالطبـع، ولم أجـد اسم الطفلـة، فقررت الخروج والبحث هنا على الشواهد؛ إذ ربما أخطأ موظف السجل في تدوين الاسم أو حدث أي خطأ آخر".

سألته توبينس: "ما اسم الطفلة؟".

قـال رجل الديـن: "الرائد ووترز لا يعـرف. ربما جوليا على اسم أمها".

قالت توبينس: "ما عمر الطفلة؟".

قـال رجـل الدين: "إنه لا يعـرف عمرها أيضًـا. الأمر بأسره غامـض للغايـة، وأنا أعتقد أن الرجل يظـن أن هذه قرية أخرى. لا أتذكر ولا أعرف أن شخصًا اسمه ووترز عاش هنا".

سألتـه توبينس وقـد خطر ببالها الأسماء داخـل دار العبادة: "ماذا عن عائلة وارينـدر؟ هناك الكثير من اللوحات التذكارية لهم داخل الدار، وأسماؤهم على كثير من شواهد القبور هنا".

قال رجل الدين: "لقد اندثرت هذه العائلة الآن. كان لديهم منـزل جميل يعود إلى القـرن الرابع عشر، وقد دمره حريق منذ نحـو مائة عـام، ولذا أعتقد أن كل من تبقـى من العائلة قد رحل ولـم يعـد، ثم قـام أحد الرجـال البارزين في العصـر الفيكتوري، ويدعـى ستـارك، ببناء منـزل مكان المنزل المحتـرق، وهو منزل

قبيح لكنه مريح حسبما يقولون. به حمامات عديدة وأشياء من هذا القبيل. أعتقد أن هذه الأشياء *مهمة*".

قالت توبينس: "إنه لشيء غريب للغاية أن يكتب لك شخص ويسألك عن قبر طفلة ... أهو أحد أقاربها؟".

قال رجل الدين: "إنه والد الطفلة. هذه إحدى مآسي الحرب. زواج ينهار عندما يخدم الأب في الجيش خارج البلاد، فتهرب الزوجة الشابة مع رجل آخر، بينما زوجها يقاتل بالخارج. هناك طفلة لم يرها الأب أبدًا، ولو أن هذه الطفلة ما زالت على قيد الحياة، لصارت تبلغ عشرين عامًا أو أكثر الآن".

قالت توبينس: "لِمَ قرر بدء البحث عنها بعد مرور هذا الوقت الطويل؟".

قال رجل الدين: "من الواضح أنه علم أن *لديه* طفلة منذ فترة صغيرة، وقد وردته هذه المعلومات بمحض المصادفة. قصة غريبة بأسرها".

قالت توبينس: "وما الذي جعله يعتقد أن الطفلة مدفونة هنا؟".

قال رجل الدين: "أعتقد أن شخصًا قابل زوجته في وقت الحرب، وأخبره بعد ذلك بأنها تعيش في سوتون تشنسلر. هذه الأشياء واردة الحدوث. أنت تقابلين صديقًا أو أحد المعارف لم تريه منذ سنوات، وهذا الشخص يخبرك عن أشياء من الماضي لم تصل إليك إلا من خلاله، لكن الزوجة بالتأكيد لا تعيش هنا حاليًا؛ إذ لا يوجد شخص يحمل هذا الاسم يعيش في هذه البلدة منذ وجودي بها. بالطبع ربما تعيش الأم باسم آخر، لكني أعتقد أن الأب قد استعان بمحامين ومحققين خاصين، وسيتوصلون

إلى نتيجة في النهاية على الأرجح، لكن هذه الأمور تستغرق وقتًا".

همهمت توبينس: "*أكانت هي ابنتك المسكينة؟*".

قال رجل الدين: "عذرا، ماذا تقولين، يا عزيزتي؟".

قالت توبينس: "لا شيء. لقد قالت لي امرأة شيئًا منذ بضعة أيام. "*أكانت هي ابنتك المسكينة*" لقد جفلتُ من كلامها، لكني لا أعتقد أن السيدة العجوز التي قالت هذا كانت تعرف ما تتحدث عنه".

قال رجل الدين: "أعرف. أعرف. هذا ما يحدث لي في كثير من الأحيان، فأنا أقول أشياء لا أعرف ما أعني بها، وهذا يضايقني للغاية".

قالت توبينس: "أعتقد أنك تعرف كل شيء عن الأشخاص الذين يعيشون هنا *حاليًا؟*".

قال رجل الدين: "بالتأكيد هناك من لا أعرفه، لكني أعرف الغالبية. لماذا تسألين؟ هل هناك شخص تريدين معرفة شيء عنه؟".

قالت توبينس: "إني أتساءل عما إذا كانت هناك امرأة تعيش هنا اسمها السيدة لانكستر".

قال رجل الدين: "لانكستر؟ لا، لا أعتقد أنني أتذكر أحدًا بهذا الاسم".

قالت توبينس: "هناك منزل رأيته مصادفة بينما كنت أجوب بسيارتي الطرق الريفية دون وجهة معينة".

قال رجل الدين: "أعرف. الطرق هنا لطيفة للغاية؛ حيث يمكنك أن تجدي فيها نباتات نادرة، وهنا لا يقطف أحد الزهور؛ إذ لا يأتينا سائحون أو أشخاص من هذا القبيل. وأنا نفسي أجد بعض الأزهار النادرة في بعض الأحيان".

قالت توبينس، في محاولة للخروج من موضوع النباتات: "هناك منزل مطل على القناة بالقرب من جسر مقوس، وهو يبعد نحو ثلاثة كيلومترات من هنا. كنت أريد معرفة اسمه".

قال رجل الدين: "دعيني أفكر. قناة، وجسر مقوس. هناك عدة منازل ينطبق عليها هذا. هناك مزرعة ميريكوت".

قالت توبينس: "ليس مزرعة".

قال رجل الدين: "إذن أنا أتوقع أنك تقصدين منزل بيري. آموس وأليس بيري".

قالت توبينس: "هذا صحيح. السيد بيري وزوجته".

قال رجل الدين: "إنها امرأة ذات مظهر لافت للنظر، أليس كذلك؟ فلها وجه أشبه بالوجوه في رسومات العصور الوسطى. ألم تلاحظي هذا؟ إنها ستلعب دور الساحرة في المسرحية التي نقوم بإعدادها لأطفال المدارس. إنها تشبه الساحرات، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "تشبه الساحرات الطيبات".

قال رجل الدين: "أنت محقة، يا عزيزتي. تشبه الساحرات الطيبات".

قالت توبينس: "لكن آموس ...".

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال رجل الدين: "أعرف، إنه رجل مسكين. ليس متزنًا عقليًا بشكل كامل، لكنه لا يشكل خطورة على أحد".

قالت توبينس: "لقد كانا لطيفين معي للغاية؛ فقد دعاني الاثنان للدخول واحتساء كوب من الشاي. كنت أريد معرفة اسم المنزل، ونسيت أن أسألهما. إنهما يعيشان في نصفه فقط، أليس كذلك؟".

قال رجل الدين: "أجل، أجل، في نصف كان مخصصًا قديمًا للمطبخ. أعتقد أنهما يطلقان على المنزل 'ووترسايد'، وأظن أن اسمه القديم كان 'ووترميد'، وهو اسم ألطف من الجديد في رأيي".

قالت توبينس: "من يمتلك النصف الآخر من المنزل؟".

قال رجل الدين: "كان المنزل بأسره ملكًا لعائلة برادلي في الأصل، وقد كان هذا منذ وقت طويل. أعتقد منذ ثلاثين أو أربعين سنة على الأقل. ثم بيع، وبيع عدة مرات، ثم أصبح خاويًا منذ مدة طويلة. عندما جئتُ إلى هذه البلدة، كانت صاحبة هذا المنزل تستخدمه لقضاء العطلات الأسبوعية فيه فقط، وهي ممثلة اسمها مرجريف على ما أعتقد. لم تكن تأتي هنا كثيرًا، بل تتردد على المكان من حين لآخر، لكني لا أعرفها شخصيًا؛ فهي لم تأتِ أبدًا إلى دار العبادة، وكنت أراها من على بعد أحيانًا. وهي امرأة جميلة، جميلة بحق".

قالت توبينس في مثابرة: "ومن صاحب المنزل *الآن*؟".

قال رجل الدين: "لا أعرف. ربما لا يزال ملكًا لهذه المرأة، الجزء الذي يعيش فيه بيري وزوجته مؤجر لهما فقط".

قالت توبينس: "لقد تعرفتُ على المنزل فور رؤيتي له؛ لأن لديَّ صورة له".

قال رجل الدين: "حقًّا؟ لابد إنها إحدى رسومات بوسكومب أو بوسكوبل. لا أتذكر الاسم تحديدًا، لكنه شيء من هذا القبيل. لقد كان فنانًا مشهورًا من مقاطعة كورنوال، وأظن أنه قد مات؛ حيث كان معتادًا المجيء هنا كثيرًا، ورسم جميع أنحاء المكان هنا. تصور بعض لوحاته مناظر طبيعية خلابة للغاية".

قالت توبينس: "هذه الصورة تحديدًا أُهديت إلى خالة عجوز لي توفيت منذ شهر، ومن أهداها لها امرأة اسمها السيدة لانكستر، ولهذا أسألك عن اسمها".

هز رجل الدين رأسه مرة أخرى، وقال: "لانكستر؟ لانكستر؟ لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم. أوه! ها هي السيدة التي يجب أن تسأليها... السيدة بلاي العزيزة علينا. السيدة بلاي النشطة. إنها تعرف كل شيء عن دار العبادة وتدير كل شيء فيها، بما في ذلك معهد النساء، وفريق فتيان الكشافة، وفريق فتيات الكشافة. كل شيء. اسأليها. إنها امرأة نشطة للغاية".

ثم تنهد الرجل؛ حيث يبدو أن نشاط السيدة بلاي يقلقه، واستطرد: "يطلقون عليها في البلدة نيلي بلاي. أحيانًا ما تتغنى باسمها ويردد الفتية خلفها. *نيلي بلاي، نيلي بلاي*. هذا ليس اسمها الحقيقي، بل هو جيرترود أو جيرالدين أو شيء من هذا القبيل".

كانت السيدة بلاي ـ هي نفسها المرأة ذات المعطف الصوفي التي رأتها توبينس داخل دار العبادة ـ تقترب نحوهما بخطى سريعة وهي لا تزال تحمل مرشة الري، وقد رمقت توبينس

بنظرة فضولية عميقة وهي قادمة. ومع اقترابها زادت سرعتها، وتحدثت قبل حتى أن تصل إليهما.

وقالت بسعادة لرجل الدين: "لقد انتهيتُ من مهماتي، وقد كنتُ في عجلة من أمري اليوم. أنت تعرف أنني عادة ما أعتني بأمور دار العبادة في الصباح، لكن اليوم كان لدينا اجتماع طارئ، ولن تصدق مقدار الوقت الذي استغرقه الاجتماع! الكثير من *الجدال*. أعتقد أن هناك أشخاصًا يعترضون أحيانًا لمجرد أنهم يستمتعون بهذا. كانت السيدة بارتنجتون مثيرة للحنق على نحو خاص؛ فقد كانت تريد مناقشة كل شيء، وتتساءل عما إذا كنا قد تلقينا عروضًا مختلفة كافية للأسعار من شركات مختلفة، مع أن الأمر برمته تكلفته منخفضة للغاية، كما أن دفع أو توفير بضعة شلنات لن يُحدث فارقًا كبيرًا، وعادة كانت شركة بيركينهيدز هي الأكثر موثوقية. أعتقد أنه ينبغي لك عدم الجلوس على شاهد القبر".

قال رجل الدين: "أتقصدين أن هذا لا يتناسب مع وقار رجل الدين؟".

قالت بلاي: "لا، بالطبع لا أقصد هذا *على الإطلاق*. أعتقد أن هذه الرطوبة هنا ليست جيدة لساقك المصابة بالروماتيزم"، ثم التفتت إلى توبينس بنظرة متسائلة.

فقال رجل الدين: "دعيني أقدم لك يا سيدة بلاي، السيدة ... السيدة ..."

قالت توبينس: "السيدة بيريسفورد".

قالت السيدة بلاي: "أوه، أجل. لقد رأيتك تتجولين في دار العبادة منذ قليل. لولا أنني كنت في عجلة من أمري لإنجاز

مهماتي، لكنتُ جئت إليكِ، وشرحتُ لك بعض الأشياء المثيرة عن الدار".

فقالت توبينس بأعذب صوت: "بل كان يجب عليَّ أنا أن أذهب إليكِ وأساعدك، لكني لم أكن سأفيدك كثيرًا؛ لأنه يبدو أنك تخصصين مكانًا محددًا لكل زهرة".

قالت السيدة بلاي: "لطيف منك أن تقولي هذا، لكن ذلك صحيح. إنني أعتني بالزهور في دار العبادة منذ... لا أعرف كم *سنة* قد مضت. نحن نسمح للأطفال بالعناية بأصص الزهور البرية الخاصة بهم في المهرجانات، برغم أن الأطفال المساكين ليس لديهم أدنى فكرة عن الأمر. أنا أؤيد إعطاءهم إرشادات *بسيطة*، لكن السيدة بيك ترفض تقديم أية إرشادات، وهي امرأة متزمتة في رأيها، وترى أن الإرشادات ستفسد روح المبادرة لدى الأطفال"، ثم سألت توبينس: "هل ستقيمين هنا؟".

فقالت توبينس: "كنت في طريقي إلى ماركت باسنج، فربما يمكنك أن تخبريني باسم فندق هادئ لطيف لأمكث فيه؟".

قالت السيدة بلاي: "أتوقع أن تصابي بخيبة أمل عندما تصلي إلى هذه البلدة. إنها عبارة عن مجمع أسواق، ولا يوجد فيها تجارة كبيرة كتجارة السيارات. فندق 'التنين الأزرق' حاصل على نجمتين، لكني أعتقد أن هاتين النجمتين لا تعنيان شيئًا *على الإطلاق* في بعض الأحيان. أعتقد أنك ستجدين فندق 'الحَمَل' أفضل وأهدأ. هل ستبقين هنا مدة طويلة؟".

قالت توبينس: "لا، بل سأبقى يومًا أو اثنين، بينما أقوم بجولة في أنحاء المنطقة".

قال رجل الدين: "أخشى أنه لا يوجد هنا ما يستحق المشاهدة؛ حيث لا توجد هنا آثار أو أي شيء من هذا القبيل؛ فنحن مجرد منطقة ريفية زراعية، لكنها باعثة على الهدوء. وكما قلت لك، توجد هنا بعض الزهور البرية المثيرة".

قالت توبينس: "لقد سمعتُ عن هذا، وأنا متلهفة لقطف بعض الأنواع من هذه الزهور، بينما أبحث عن منزل للعيش فيه".

قالت السيدة بلاي: "أوه، خبر مثير. هل تفكرين في الاستقرار في هذه المنطقة؟".

أجابتها توبينس: "لم نستقر أنا وزوجي على المنطقة بشكل حاسم، ونحن لسنا في عجلة من أمرنا؛ فهو لن يتقاعد قبل ثمانية عشر شهرًا، لكن من الأفضل دائمًا التريث في البحث. أنا شخصيًا أفضل أن أمكث في منطقة ما لأربعة أو خمسة أيام، وأعد قائمة بكل المنازل الصغيرة التي يُحتمل أن تناسبنا، ثم أزورها بالسيارة. إن السفر من لندن إلى هنا للمكوث ليوم واحد ورؤية منزل واحد هو أمر لا يستحق هذا العناء".

قالت السيدة بلاي: "أجئتِ بسيارتكِ إلى هنا؟".

قالت توبينس: "نعم. يجب أن أذهب إلى مكتب أحد السماسرة في ماركت باسنج صباح الغد. من الصعب أن أجد مكانًا لأمكث فيه في هذه البلدة، أليس كذلك؟".

قالت السيدة بلاي: "يوجد منزل السيدة كوبلي، وهي تستقبل الناس في منزلها في الصيف. إنها امرأة تعتني بالنظافة جيدًا، وكل غرفها تشهد بذلك. وهي ترتب الأسرّة، وتعد إفطارًا،

وربما وجبة خفيفة في المساء، لكني لا أعتقد أنها تستقبل أحدًا قبل شهر أغسطس أو يوليو على أقل تقدير".

قالت توبينس: "ربما يمكنني الذهاب إليها وأرى إن كانت ستوافق".

قال رجل الدين: "إنها امرأة فاضلة، لكن لسانها لا يكف عن التحرك؛ فهي لا تتوقف عن الكلام، ولا حتى لدقيقة واحدة".

قالت السيدة بلاي: "ما أكثر الثرثرة والقيل والقال في البلدات الصغيرة. أعتقد أنها ستكون فكرة جيدة لو ساعدتُ السيدة بيريسفورد. يمكنني أن أرافقها إلى السيدة كوبلي؛ لنرى إن كانت هناك إمكانية لاستضافتها".

قالت توبينس: "هذا تصرف لطيف منكِ للغاية".

قالت السيدة بلاي بحماس: "لنمضِ إذن. إلى اللقاء أيها المبجل. ألا زلت تبحث عن الطفلة؟ إنها مهمة محزنة، إنك لن تنجح على الأرجح. أعتقد أن طلب الأب نفسه لم يكن *منطقيًا* من الأساس".

ودعت توبينس رجل الدين، وقالت إنها يسعدها مساعدته لو استطاعت. وقالت: "لا مانع لديَّ من قضاء ساعة أو اثنتين في البحث بين شواهد القبور، وأنا أمتلك بصرًا قويًا بالنسبة إلى سني. هل ما تبحث عنه هو اسم ووترز فقط؟".

قال رجل الدين: "لا، إن السن هي المهمة. إنني أبحث عن طفلة ذات سبعة أعوام ربما. فالرائد ووترز يعتقد أن زوجته

ربما غيرت اسمها، وربما صارت الطفلة تحمل اسمًا آخر، وهو لا يعرف هذا الاسم؛ ما يجعل المهمة صعبة للغاية".

قالت السيدة بلاي: "المهمة بأسرها مستحيلة في رأيي. كان يجب ألا تقبل بأن تفعل هذا، أيها الرجل المهذب. إن ما يزعمه هذا الرجل شنيع".

قال رجل الدين: "إن الرجل المسكين يبدو مكلومًا، وتاريخه بأسره يبعث على الحزن. لكن يجب ألا أعطلكما".

فكرت توبينس في نفسها، بينما كانت ترافقها السيدة بلاي في الطريق بأنه مهما كانت شهرة السيدة كوبلي بأنها ثرثارة، فإنها لا تتحدث أكثر من السيدة بلاي التي لا يتوقف تدفق سيل من الجمل السريعة الديكتاتورية من فمها.

كان كوخ السيدة كوبلي الذي يقع خلف شارع البلدة سارًا وفسيحًا، وله حديقة منمقة من الأزهار في المقدمة، وعتبة باب بيضاء اللون، ويتزين الباب بمقبض نحاسي لامع. أما السيدة كوبلي نفسها فقد بدت وكأنها إحدى الشخصيات التي ابتكرها الروائي تشارلز ديكنز. كانت قصيرة ومكتنزة الجسم للغاية، أشبه بكرة مطاطية يمكن دحرجتها. كانت عيناها متلألئتين ومتوهجتين، وشعرها أشقر ملفوفًا في شكل نقانق مموجة، وكانت تشع منها حيوية هائلة. بعد أن أبدت المرأة بعض الارتياب، قالت: "أنا وزوجي عادة لا نستقبل زائرين إلا في الصيف، وليس في هذا الوقت من العام. ليس قبل شهر يوليو. لكن لا بأس ما دامت السيدة ستبقى بضعة أيام، ولا تمانع أن يكون المكان ليس مجهزًا تمامًا".

قالت توبينس إنها لا تمانع بأن يكون المكان غير مجهز تمامًا، وبعد أن ألقت السيدة كوبلي نظرة فاحصة على توبينس دون أن توقف سيل الكلمات المنحدر من فمها، قالت إنها يمكن مرافقتها للطابق العلوي ورؤية الغرفة؛ ومن ثم تتفقان على التفاصيل.

في هذه اللحظة، عنّفت السيدة بلاي نفسها وشعرت بالندم لأنها لم تستخلص كل المعلومات التي تريدها من توبينس مثل معرفة المكان الذي جاءت منه، وعمل زوجها، وعمرها، وما إذا كان لديها أبناء، وأمور أخرى تثير اهتمامها، لكن يبدو أنه كان لديها اجتماع في منزلها ستترأسه، وكانت تخشى احتمالية أن يستحوذ شخص آخر على هذا المنصب الذي كان محل أطماع آخرين.

طمأنت السيدة بلاي توبينس، قائلة: "ستكونين على ما يرام مع السيدة كوبلي. أنا متأكدة من أنها ستعتني بكِ. ماذا عن سيارتك الآن؟".

قالت توبينس: "سأحضرها في الحال، وستخبرني السيدة كوبلي عن أفضل مكان لركنها. يمكنني ركنها في الخارج هنا لأن الشارع واسع بما يكفي، أليس كذلك؟".

قالت السيدة بلاي: "يمكن لزوجي ركنها في مكان أفضل، وهو الحقل المجاور للطريق الجانبي هنا. ستكون السيارة بأمان هناك؛ حيث توجد بالحقل سقيفة سيركن زوجي السيارة بها".

تم ترتيب الأمور على هذا النحو بشكل ودي، وهرعت السيدة بلاي إلى موعدها، وبعد ذلك أثيرت مسألة وجبة المساء، وسألت توبينس إذا كان هناك مطعم في البلدة.

قالت السيدة كوبلي: "ليس لدينا أماكن مثل هذه للسيدات هنا، لكن إذا كنت لا تمانعين، يمكنني أن أعد لك بيضتين وشريحة لحم وربما بعض الخبز والمربى المصنوعة منزليًا".

قالت توبينس إن هذه ستكون وجبة رائعة. كانت غرفتها صغيرة لكن مبهجة وسارة؛ حيث كان ورق الحائط على شكل زهور، والسرير يبدو مريحًا، وهواء الغرفة نظيفًا بقدر نظافة المكان.

قالت السيدة كوبلي، وكأنها تصر على اعتبار توبينس عزباء: "إنه بالفعل ورق حائط جميل، يا آنسة. لقد اخترنا هذا الشكل بحيث يناسب أي أزواج حديثي الزواج يأتون لقضاء شهر العسل هنا. إنه منظره رومانسي إذا كنت تعرفين ما أعنيه".

وافقتها توبينس على أن الرومانسية شيء مرغوب فيه للغاية.

قالت السيدة كوبلي: "هؤلاء المتزوجون حديثًا ليس لديهم الكثير لينفقوه، كما كان الوضع في السابق؛ حيث تجدينهم يدخرون لشراء منزل، أو لتسديد أقساط منزل، أو تجدينهم يشترون بعض الأثاث بالتقسيط، ولا يتبقى لهم شيء لقضاء شهر عسل راقٍ. معظم هؤلاء الشباب ينفقون أموالهم بحذر، ولا يقبلون على أشياء تستنفد كل أموالهم".

ثم هبطت السيدة كوبلي الدرج مرة أخرى، وهي لا تزال مستمرة في التحدث بحماس. استلقت توبينس على السرير، وغفت لمدة نص ساعة بعد يوم مرهق، لكن كانت تساورها آمال عظيمة بشأن السيدة بلاي؛ حيث فكرت في أنها بعد أن تستريح تمامًا، فإنها ستقود محادثة بينها وبين السيدة كوبلي عن أكثر

الأشياء التي تهم توبينس؛ فقد كانت متأكدة من أنها ستعرف من السيدة كوبلي كل شيء عن المنزل المجاور للجسر، بما في ذلك من كان يعيش فيه، ومن كان يتمتع بسمعة جيدة أو سيئة في المنطقة، والفضائح التي وقعت، وموضوعات أخرى محتملة، وقد تأكدت من هذا أكثر عندما قابلت السيد كوبلي الذي كان يفتح فمه بصعوبة، وكان يتحدث في الغالب بطريقة أشبه بالهمهمة، وعادة ما يهز رأسه كعلامة على تأكيد كلام الآخرين، وأحيانًا كان يأتي اعتراضه في شكل أصوات مكتومة.

وقد بدا لتوبينس أن السيد كوبلي كان قانعًا بأن يترك زوجته تتحدث، وكان انتباهه موجهًا لأشياء أخرى، منها انشغاله بخططه في اليوم التالي، وهو يوم السوق.

وقد سارت الأمور بأفضل مما تتوقع توبينس، وكأن المحادثة جرت تحت شعار: "نحن لدينا ما تحتاجين إليه من معلومات". كانت السيدة كوبلي أشبه بجهاز راديو أو تلفاز، وكل ما عليك فعله هو الضغط على زر، وستتدفق من فمها الكلمات مصحوبة بإيماءات جسدية والكثير من تعبيرات الوجه. ولم يكن جسدها فقط هو ما يشبه الكرة المطاطية، بل كان فمها أيضًا يبدو أنه مصنوع من المطاط، بحيث بدا لتوبينس أن الأشخاص المتنوعين الذين تتحدث عنهم السيدة كوبلي يخرجون من فمها على شكل رسوم كاريكاتورية.

تناولت توبينس لحمًا وبيضًا وشرائح من الخبز السميك وزبدة، وأثنت على مربى التوت المصنوعة منزليًا، وقالت بصدق إنها أكثر ما أحبت من الطعام. وبذلت توبينس ما بوسعها لاستيعاب سيل المعلومات حتى تتمكن من تدوينه في مفكرتها

لاحقًا. لقد أصبح يتراءى لها مشهد بانورامي لماضي هذه المنطقة الريفية.

لم يكن هناك تسلسل زمني للأحداث، وهو ما صعّب الأمور على توبينس في بعض الأحيان؛ فقد كانت السيدة كوبلي تقفز من حدث وقع منذ خمسة عشر عامًا، إلى آخر وقع منذ سنتين، إلى آخر وقع الشهر الماضي. وكان كل هذا يتطلب ترتيبًا وتنظيمًا، وتساءلت توبينس في نفسها ما إذا كانت ستخرج بشيء مفيد من هذا.

لم تصل أولى محاولات توبينس إلى نتيجة، والتي تمثلت في ذكر اسم السيدة لانكستر.

قالت توبينس بصوت أظهرت فيه قدرًا كبيرًا من الغموض: "أظن أنها كانت تعيش في هذه المنطقة، فقد كانت لديها لوحة جميلة رسمها فنان أعتقد أنه كان معروفًا هنا".

قالت السيدة كوبلي: "ما اسمها مرة أخرى؟".

قالت توبينس: "السيدة لانكستر".

قالت السيدة كوبلي: "لا، لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم في هذه المنطقة. لانكستر. لانكستر. أذكر أن هناك رجلًا تعرض لحادث سيارة. لا، لقد كان اسم السيارة، وليس الرجل. لا يوجد أحد بهذا الاسم. هل يمكن أن تكون السيدة بولتون؟ إنها تبلغ سبعين عامًا تقريبًا، وربما تكون قد تزوجت برجل من عائلة لانكستر، وحملت لقبه. لقد رحلت عن هنا، وسافرت إلى الخارج، وقد سمعتُ أنها تزوجت بشخص ما".

قالت توبينس: "اللوحة التي أعطتها لخالتي رسمها شخص يدعي بوسكوبل على ما أعتقد. المربى جميلة بالمناسبة".

قالت السيدة كوبلي: "أنا لا أضع فيها تفاحًا مثلما يفعل معظم الناس. هم يقولون إن التفاح يجعلها أفضل، لكنه يسلبها نكهتها".

قالت توبينس: "أجل، أتفق معك في هذا".

قالت السيدة كوبلي: "ماذا كنت تقولين قبل قليل؟ لقد ذكرت اسمًا يبدأ بحرف الباء، لكني لا أتذكر الباقي".

قالت توبينس: "بوسكوبل".

قالت السيدة كوبلي: "أوه، تقصدين بوسكوان. أتذكره. لقد مضى خمس عشرة سنة على آخر مرة جاء فيها إلى هنا. كان قد تردد على المنطقة لعدة سنوات متعاقبة، وأحب المكان كثيرًا لدرجة أنه استأجر كوخًا، وسمح للعامل الذي يساعده بأن يعيش فيه. لقد بنى مجلس البلدة أربعة أكواخ جديدة للعمال خصيصًا.

كان السيد بوسكوان فنانًا عاديًا، وعادة ما كان يرتدي معطفًا غريبًا من القطيفة أو قماشًا مخمليًا مضلعًا، وعادة ما كانت هناك ثقوب في الملابس من عند الكوع، وكان يرتدي قمصانًا خضراء وصفراء؛ فقد كان يحب الملابس ذات الألوان الزاهية. كنت أحب لوحاته، وقد كان يقيم لها معرضًا كل عام. لا، بل كان في الصيف. لم يكن يمكث هنا في الشتاء. كانت لوحاته لطيفة لكن ليس بها شيء مثير؛ حيث كانت تظهر منزلًا وبعض الأشجار أو بقرتين تنظران من فوق سياج، لكن ألوانها كانت لطيفة وهادئة وجميلة، على عكس لوحات بعض الرسامين الشباب هذه الأيام".

سألتها توبينس: "هل يأتي الكثير من الرسامين إلى هنا؟".

قالت السيدة كوبلي: "لا، ليس كثيرًا. هناك سيدة أو اثنتان

تأتيان هنا في الصيف، وترسمان أحيانًا، لكن لا أظن أنهما بارعتان. وقد أتى شاب هنا منذ عام، وكان يرى نفسه رسامًا، ولا يحلق شعره. لا يمكنني القول بأنني أعجبني أي من لوحاته؛ فقد كانت مجرد ألوان ممزوجة بعضها مع بعض على نحو غريب في شكل دوامات، وليس فيها شيء يمكنك التعرف عليه، لكن هذا الشاب باع الكثير من لوحاته، وبسعر مرتفع أيضًا".

قال السيد كوبلي، مشتركًا في الحديث للمرة الأولى، وعلى نحو مفاجئ بحيث كادت توبينس تقفز من مقعدها: "خمسة جنيهات تكفي".

قالت السيدة كوبلي، مضطلعة بدور المفسر لكلام زوجها: "ما يعنيه زوجي أنه يجب ألا يتعدى سعر أي لوحة خمسة جنيهات؛ فتكاليف رسمها لن تتجاوز هذا الحد. هذا ما تقصده يا جورج، أليس كذلك؟".

قال جورج: "أها".

قالت توبينس: "لقد رسم السيد بوسكوان صورة لذلك المنزل المطل على القناة بجانب الجسر. ووترسايد أو ووترميد. أليس هذا اسمه؟ لقد مررت به اليوم".

قالت السيدة كوبلي: "أوه، أسلكت ذلك الطريق؟ إنه ليس طريقًا بالمعنى الحقيقي للكلمة، أليس كذلك؟ فهو ضيق للغاية. عادة ما رأيت هذا المنزل موحشًا، ولم أكن لأرغب بالعيش فيه. فهو موحش للغاية. ألا توافقني الرأي، يا جورج؟".

أصدر جورج صوتًا يعبر عن اختلافه معها في الرأي، وربما احتقاره لجبن النساء.

قالت السيدة كوبلي: "هذا هو المنزل الذي تقطنه أليس بيري".

توقفت توبينس عن طرح الأسئلة المتعلقة بالسيد بوسكوان، وقررت مسايرة السيدة كوبلي في الحديث عن أسرة بيري؛ فقد أدركت توبينس أنه من الأفضل دائمًا مسايرة السيدة كوبلي التي تقفز من موضوع لآخر.

قالت السيدة كوبلي: "*إنهما* زوجان غريبان".

أصدر جورج صوتًا مؤيدًا لكلامها.

استطردت السيدة كوبلي: "إنهما منغلقان على نفسيهما، ولا يختلطان كثيرًا بالآخرين، كما أن أليس بيري لها ملامح غريبة".

قال السيد كوبلي: "إنها مجنونة".

قالت السيدة كوبلي: "لا أعتقد أنها مجنونة. صحيح أن شعرها أشعث غير مهندم، وترتدي معاطف خاصة بالرجال، وأحذية مطاطية كبيرة معظم الوقت، وتقول أشياء غريبة، ولا تجيبك أحيانًا بشكل صحيح عندما تطرحين عليها سؤالًا، لكن لا يمكنني القول بأنها مجنونة، بل هي فقط غريبة الأطوار".

قالت توبينس: "هل يحبها الناس؟".

قالت السيدة كوبلي: "لا أحد يعرفها كثيرًا، على الرغم من أنهما يعيشان هنا منذ عدة سنوات. هناك *حكايات* كثيرة بشأنها، لكنها تظل حكايات".

لم تكن مجرد الأسئلة المباشرة تزعج السيدة كوبلي، بل كانت ترحب بها ومتلهفة للرد عليها.

قالت: "يقال إنهما يجلسان على مائدة ويستحضران الأرواح بالليل، وهناك حكايات عن أضواء تجوب المنزل ليلاً، ويقال أيضًا إن أليس تقرأ الكثير من الكتب الغامضة التي تحوي دوائر ونجومًا. إذا أردت رأيي، فأنا أظن أن آموس بيري هو فقط من يعاني خللاً دون زوجته".

قال السيد كوبلي بنبرة متسامحة: "إنه رجل ذو عقل بسيط".

قالت السيدة كوبلي: "ربما تكون محقًا بشأن هذا، لكن هناك الكثير من الحكايات بشأنه. هو رجل شغوف بحديقته، ولا يتمتع بعقلية جيدة".

قالت توبينس: "إنهما يعيشان في نصف المنزل فقط، أليس كذلك؟ لقد استضافتني السيدة بيري في منزلها وكانت لطيفة معي".

قالت السيدة كوبلي: "حقًا؟ هل فعلتْ ذلك؟ لا أعتقد أنني سأحب دخول ذلك المنزل".

قال السيد كوبلي: "إن الجانب الذي يعيشان فيه هو الأفضل".

فقالت توبينس: "أليس الجانب الآخر هو الأفضل؟ الجانب الأمامي المطل على القناة".

"هناك الكثير من الحكايات حول هذا الأمر. بالطبع لا أحد يعيش فيه منذ سنوات، ويقال إن هناك شيئًا غريبًا فيه، وأنا سمعتُ الكثير من القصص بشأن ذلك. لكن عندما تتفحصين الأمر، تجدين أنه لا يوجد أحد على قيد الحياة قد شهد هذه الحكايات؛ حيث يُزعم أنها وقعت منذ زمن بعيد يتجاوز مائة

عام. يقال إن أحد رجال البلاط الملكي بنى هذا المنزل لتعيش فيه امرأة جميلة".

سألت توبينس باهتمام: "البلاط الملكي للملكة فيكتوريا؟".

"لا أظن هذا، فهذه *الملكة* العجوز لم تكن متساهلة. أعتقد أن ذلك في عهد الملك الذي سبقها، جورج الخامس. كان هذا الرجل من البلاط الملكي يتردد على المنزل لرؤية السيدة، وتقول الشائعات إن هناك شجارًا نشب بينهما، فقطع الرجل رقبة السيدة في إحدى الليالي".

قالت توبينس: "يا لها من قصة فظيعة! وهل شُنق الرجل بسبب فعلته هذه؟".

"لا، لم يحدث هذا. تقول القصة إنه تخلص من جثتها أو إنه لم يقتلها وحبسها في المدفأة وسد المدفأة بالأحجار؟".

قالت توبينس: "حبسها في المدفأة وسد المدفأة بالأحجار!".

قال السيد كوبلي: "هناك من يقولون إنها كانت منقطعة للعبادة وقد هربت من دار العبادة، ولهذا تم حبسها. يقال إن هذا ما يُفعل بهن إذا هربن من دار العبادة".

"لكن من فعل ذلك بها ليس زميلاتها".

"لا، عشيقها هو من فعل هذا حيث. قام بسد المدفأة بالأحجار، وثبت لوحًا حديديًا عليها بمسامير. على أية حال، لم تُر المسكينة مرة أخرى وهي تتمشى بفساتينها الجميلة. غير أن هناك من يقول إنها رحلت معه إلى بلدة ما، أو عادا إلى مكان ما. وقد اعتاد الناس سماع أصوات ورؤية أضواء في المنزل، وهناك الكثير ممن يخشون الاقتراب منه في الظلام".

شعرت توبينس بأنها بالعودة إلى ما قبل عهد الملكة فيكتوريا تبتعد كثيرًا عما تبحث عنه، فسألت: "وماذا حدث بعد ذلك؟".

"لا أعتقد أنه حدث الكثير. اشترى المنزل صاحب مزرعة يدعى بلودجيك عندما كان معروضًا للبيع، لكنه لم يمكث فيه طويلاً. كان من أصحاب المزارع النبلاء، ولهذا أعجبه المنزل، لكن الأراضي الزراعية التي اشتراها هنا لم تكن جيدة؛ ولم يعرف كيف يستفيد منها، فباع المنزل. وهكذا تغيرت ملكية المنزل مرات عديدة، وكان هناك مقاولون يجيئون ويجرون تعديلات كبناء حمامات جديدة وأشياء من هذا القبيل. وفي وقت ما اشتراه زوجان وكانا بصدد تحويله إلى مزرعة دجاج. وقد نال المنزل سمعة بأنه منزل مشئوم. لكن كل هذا كان قبل أن أُولد. أعتقد أن السيد بوسكوان نفسه فكر في شراء المنزل في وقت ما، وكان هذا عندما قام برسمه".

قالت توبينس: "كم كان عمر السيد بوسكوان عندما جاء إلى هنا؟".

"ربما كان أربعين أو أكثر قليلاً. كان رجلاً حسن المظهر، وإن كان جسمه يميل إلى البدانة قليلاً. كان يعجب الفتيات كثيرًا".

نخر السيد كوبلي كالحيوانات معترضًا: "أها".

فردت عليه السيدة كوبلي بصيغة الجمع لتدرج توبينس معها في هذا الرأي: "نحن جميعًا نعرف كيف يبدو الفنانون. إنهم يذهبون إلى فرنسا ويتأثرون بأسلوب الحياة هناك".

قالت توبينس: "ألم يكن متزوجًا؟".

"لم يكن متزوجًا حين قدم إلى هنا، لكنه كان معجبًا بابنة السيدة تشارنجتون، وكانت فتاة جميلة بحق، لكنها كانت تصغره كثيرًا؛ إذ لم تكن قد تجاوزت الخامسة والعشرين".

شعرت توبينس بحيرة لدخول شخصية جديدة في المحادثة، فسألت: "ومن السيدة تشارنجتون؟".

ثم قالت في نفسها فجأة وقد غمرتها موجة تعب: "ما هذا الذي أفعله بحق السماء؟ إنني أستمع إلى القيل والقال عن أناس، وأتخيل أشياء مثل القتل لم تكن حقيقية على الإطلاق. *إنني أفيق من غفوتي الآن.* لقد بدأ الموضوع عندما بدأت سيدة عجوز لطيفة لكن بها خبلًا في تذكر قصص أخبرها بها ذلك المدعو بوسكوان أو شخص آخر ربما هو من أعطاها اللوحة، عن المنزل والأساطير المتعلقة به وعن شخص سُجن حيًا في مدفأة، واعتقدت المرأة أن هذا الشخص عبارة عن طفلة لسبب ما. وهأنذا أحقق في أوهام. لقد وصفني تومي بالحمقاء بسبب هذا الأمر، وقد كان محقًا تمامًا. *أنا* حمقاء".

انتظرت توبينس أن يتوقف سيل الكلمات المتدفق من فم السيدة كوبلي للحظات، حتى يتسنى لها أن تستأذن في الانصراف، وتتمنى لهما ليلة سعيدة، وتصعد إلى سريرها.

غير أن السيدة كوبلي كانت مستمرة في الثرثرة بسعادة وحماس.

قالت: "السيدة تشارنجتون؟ أوه، لقد عاشت هي وابنتها في منزل ووترميد فترة. كانت سيدة لطيفة، وأرملة ضابط في الجيش. لم تكن تمتلك الكثير من الأموال، لكن المنزل كان يُؤجَّر بسعر زهيد، وقد كانت تعتني بحديقة المنزل كثيرًا لأنها

كانت تحب البستنة، لكنها لم تكن بارعة في تنظيف المنزل. وقد ذهبتُ وساعدتها مرة أو اثنتين، لكني لم أستطع مواصلة هذا؛ حيث كان يتعين عليَّ قطع مسافة ثلاثة كيلومترات تقريبًا بدراجتي؛ إذ لم تكن توجد حافلات تمر من هذا الطريق".

قالت توبينس: "هل عاشت هناك لفترة طويلة؟".

السيدة كوبلي: "ليس أكثر من سنتين أو ثلاث على ما أعتقد. ثم خافت بعد أن وقعت المشكلات، ثم نشبت مشكلات أخرى بينها وبين ابنتها أيضًا، والتي أعتقد أن اسمها كان ليليان".

أخذت توبينس رشفة من الشاي الثقيل الذي تبع الوجبة، وقررت أن تنتهي من سماع قصة السيدة تشارنجتون قبل خلودها إلى الراحة.

فسألت: "ما المشكلة المتعلقة بالابنة؟ هل بسبب السيد بوسكوان؟".

قالت السيدة كوبلي: "لا، ليس السيد بوسكوان هو من أوقعها في مشكلة، بل كان شخصًا آخر".

سألت توبينس: "ومن الشخص الآخر؟ أكان شخصًا يعيش في القرية هنا؟".

قالت السيدة كوبلي: "لا أعتقد أنه كان يعيش في هذه المنطقة، بل قابلته الابنة في لندن. لقد ذهبت إلى هناك لدراسة الفنون الاستعراضية، وقد ساعدها السيد بوسكوان في الانضمام إلى مدرسة هناك اسمها سليت على ما أعتقد".

قال توبينس: "تقصدين سليد؟".

قالت السيدة كوبلي: "ربما. على أية حال، كانت تذهب إلى لندن، وتعرفت هناك على ذلك الشاب أيًا كان. لم ترق هذه العلاقة لأمها، والتي نهتها عن مقابلة هذا الشاب، لكن نهيها كان بلا جدوى. لقد كانت امرأة سخيفة في بعض النواحي، وعلى غرار معظم زوجات ضباط الجيش، كانت ترى أنه يجب على الفتيات أن يفعلن ما يُؤمرن به في طاعة عمياء. إنها امرأة متزمتة، فقد كانت الابنة مطيعة، ووافقت على الذهاب مع الأسرة إلى الهند وأجزاء أخرى، لكن عندما نهتها أمها عن رؤية هذا الشاب حسن المظهر، فإنها لم تستجب لهذا. وكان هذا الشاب يأتي إلى هنا من حين لآخر، وكانا يتقابلان خارج المنزل".

قالت توبينس مستخدمة كناية معروفة كي لا تُشعر السيد كوبلي بالحرج: "ثم وقعت الابنة في الخطيئة، أليس كذلك؟".

قالت السيدة كوبلي: "لا بد أن هذا ما حدث. على أية حال، كان الأمر واضحًا، وقد لاحظتُ هذا قبل أن تلاحظه أمها بوقت طويل. كانت الابنة فتاة جميلة ذات قوام ممشوق طويل، لكني لا أعتقد أنها من النوع الذي يستطيع الصمود في المواقف. لقد انفصل الشاب عنها، فصارت الفتاة تمشي بطريقة جامحة، وتهمهم مع نفسها. كان هذا تصرفًا وضيعًا من الشاب الذي رحل عنها عندما عرف الخبر، وكان يفترض بالأم في هذا الموقف أن تذهب وتتحدث إلى هذا الشاب وتخبره بواجباته تجاه ما حدث، لكنها لم تطق فعل هذا. على أية حال، توصلت الأم لقرار حكيم، فأخذت ابنتها ورحلت، وبعد ذلك عُرض المنزل للبيع. أعتقد أنهما عادتا مرة أخرى لأخذ باقي متعلقاتهما، لكنهما لم

تأتيا إلى البلدة أو تتحدثا مع أي شخص، ولم يعد أي منهما مرة أخرى إلى هنا. هناك بعض الأقاويل التي أثيرت، لكني لا أعرف ما إذا كانت صحيحة".

قال السيد كوبلي بشكل غير متوقع: "بعض الناس يختلقون أشياء".

قالت السيدة كوبلي: "أنت محق يا جورج، لكن يظل الاحتمال بأن ما قيل ربما يكون حقيقيًا. هذه الأشياء واردة الحدوث، وكما قلت، لقد بدا لي من منظر الفتاة أنها لم تكن بكامل وعيها".

سألتها توبينس: "ما هذه الأقاويل التي أثيرت؟".

قالت السيدة كوبلي: "أنا لا أريد التحدث في هذا، فلقد مضى وقت طويل، وأنا لا أريد قول شيء غير متأكدة من صحته. إن من حكت القصة هي لويز بادكوك، وهي فتاة تهوى الكذب جدًا، وبإمكانها اختلاق أي شيء لتسرد قصة مثيرة".

قالت توبينس: "وما الذي قالته؟".

قالت السيدة كوبلي: "قالت إن هذه الفتاة، ليليان تشارنجتون، قتلت الطفل، ثم قتلت نفسها، فجُنت الأم من فرط الحزن، وأودعها أقاربها في دار مسنين".

شعرت توبينس مرة أخرى بأن الارتباك يتصاعد في ذهنها، وأحست بأنها تكاد تتمايل في مقعدها. هل يمكن أن تكون السيدة تشارنجتون هي نفسها السيدة لانكستر؟ ربما غيرت اسمها، وأصابها خلل ذهني ما، لكن ظلت نهاية ابنتها تستحوذ على تفكيرها.

كانت السيدة كوبلي مستمرة في حديثها بلا هوادة، حيث استطردت: "أنا نفسي لم أصدق كلمة مما قالته تلك الفتاة بادكوك؛ فهي تتفوه بأي هراء. ونحن لم نكن نهتم كثيرًا بتلك الشائعات والقصص حينها؛ حيث كانت هناك أشياء أخرى تقلقنا. كانت هناك أشياء تثير الرعب في أنحاء المنطقة، أشياء حقيقية".

تساءلت توبينس في نفسها بشأن هذه النوعية من الأشياء التي قد تحدث في بلدة تبدو مسالمة مثل سوتون تشنسلر.

قالت السيدة كوبلي: "أعتقد أنك قرأت عما حدث في الجرائد حينها، أي منذ عشرين عامًا تقريبًا. لابد أنك قرأت عن حوادث قتل الأطفال هنا. في البداية، لم تعد فتاة تبلغ التاسعة من المدرسة إلى بيتها، وخرج رجال الشرطة بحثًا عنها، وعُثر عليها مخنوقة في مكان اسمه دينجلي كوبس. ما زالت تنتابني القشعريرة إلى الآن كلما فكرت في ذلك. كانت هذه هي الحادثة الأولى، ثم بعد ثلاثة أسابيع، وقعت حادثة أخرى في بلدة ماركت باسنج، وقيل إنه يمكن لرجل يقود سيارة أن يفعل هذا بسهولة.

"ثم وقعت حوادث أخرى في بلدات المنطقة، وكان يفصل بين الواحدة والأخرى شهر أو اثنان، ثم حدثت جريمة على بعد ثلاثة كيلومترات فقط من بلدتنا".

سألتها توبينس: "وهل عثرت الشرطة على الجاني؟".

قالت السيدة كوبلي: "لقد بذل رجال الشرطة قصارى جهدهم؛ حيث اعتقلوا رجلًا في وقت مبكر من الجانب الآخر من ماركت باسنج، لكنه قال إنه كان يساعد رجال الشرطة

في بحثهم. أنت تعرفين ما يعنيه هذا دائمًا، ثم اعتقلوا بعده آخرين، لكنهم كانوا دائمًا يطلقون سراحهم بعد أربع وعشرين ساعة بعدما يتأكدون أنه من المستحيل أن يتمكن هذا الشخص من فعل تلك الجريمة، أو أنه لم يكن متواجدًا في المكان الذي حدثت فيه الجريمة، أو يشهد شخص بأن الشخص المعتقل كانت لديه حجة غياب".

قال السيد كوبلي: "أنت لا تعرفين يا ليز. ربما كان رجال الشرطة يعرفون من الجاني، وفي رأيي أنهم كانوا يعرفونه *بالفعل*. وقد سمعتُ أن هذا يحدث في أحيان كثيرة، حيث تعرف الشرطة الجاني لكنها لا تمتلك الأدلة ضده".

قالت السيدة كوبلي: "إن الزوجات والأمهات والآباء يغطون على جرائم ذويهم، وهذا يحبط جهود الشرطة، حتى إن كانت تشتبه في شخص معين، فقد تقول الأم 'لقد كان ابني هنا في المنزل طوال اليوم'، أو تقول الزوجة إنها ذهبت مع زوجها إلى السينما في تلك الليلة، وأنه كان معها طوال الوقت، أو يقول أب إنه ذهب مع ابنه إلى أحد الحقل البعيدة لفعل شيء ما. لا يمكن للشرطة فعل شيء حيال هذا، فربما يظن رجال الشرطة أن الأب أو الأم أو الزوجة تكذب، لكن إذا لم يشهد شخص آخر بأنه رأى المشتبه به في مكان آخر، فإن الشرطة لا يمكنها فعل شيء. كان هذا وقتًا عصيبًا، وكنا جميعًا في حالة صدمة هنا، وعندما كنا نسمع عن اختفاء طفل، كنا نقيم اجتماعات للتشاور".

قال السيد كوبلي: "أجل، هذا صحيح".

قالت السيدة كوبلي: "كان الناس يجتمعون معًا ويخرجون للبحث، وكانوا أحيانًا يعثرون على الطفل المفقود في الحال،

وأحيانًا بعد أسابيع، وأحيانًا كان يُعثر على الطفل بالقرب من منزله في مكان لم يفكر أحد في البحث فيه"، ثم أردفت بنبرة مؤثرة: "هذه تصرفات جنونية. من الفظيع أن يوجد أناس مثل هؤلاء. يجب أن يعدموا شنقًا أو رميًا بالرصاص. أتمنى أن أنفذ الحكم فيهم بنفسي لو أتيح لي هذا. سأفعل هذا مع أي شخص يعذب ويقتل طفلًا. ما الفائدة من إيداعهم مستشفى للأمراض العقلية، وتزويدهم بكل وسائل الراحة، ثم يُطلق سراحهم عاجلًا أم آجلًا ويعودون إلى منازلهم بعد أن تقول السلطات إنه تم شفاؤهم. وهذا ما حدث في مكان ما بمقاطعة نورفولك؛ فأختي تعيش هناك وأخبرتني بالقصة. قالت إن رجلًا من أمثال هؤلاء عاد إلى منزله وبعد يومين قتل شخصًا آخر. إنه لجنون من هؤلاء الأطباء أن يقولوا إن شخصًا ما قد تعافى، في حين أن هذا غير صحيح".

قالت توبينس: "ألديك فكرة عمن يكون الجاني؟ أتعتقدين أنه كان شخصًا غريبًا عن المكان؟".

قالت السيدة كوبلي: "ربما كان غريبًا، لكن لا بد أنه كان يقيم في مكان لا يبعد أكثر من خمسة وعشرين كيلومترًا عن المنطقة. ربما كان يقيم هنا في هذه البلدة".

قال السيد كوبلي: "كنت دائمًا تشعرين بأنه يعيش هنا، يا ليز".

قالت السيدة كوبلي: "كنت أشعر بذلك لأني كنت خائفة. لقد صرتُ أتحقق من الناس كثيرًا، وكذلك أنت يا جورج. أنت كنت تنظر إلى أحدهم وتتساءل ما إذا *كان هذا* الشاب هو المجرم؛ نظرًا لأنه كان يتصرف بغرابة مؤخرًا".

قالت توبينس: "لا أظن أنه كان غريب الأطوار على الإطلاق، بل كان يبدو على الأرجح عاديًا مثل الجميع".

قالت السيدة كوبلي: "أجل، أنت محقة في هذا. لقد سمعت أن هؤلاء المجرمين لا يبدو عليهم الجنون على الإطلاق، لكن هناك آخرين يقولون إن ثمة توهجًا مخيفًا بأعينهم".

قال السيد كوبلي: "كان رئيس الشرطة حينها جيفريز، يقول إن لديه الكثير من المعلومات بشأن الجاني، لكن لم يحدث شيء".

سألت توبينس: "ألم يقبضوا على الجاني أبدًا؟".

قالت السيدة كوبلي: "نعم، فلقد وقعت هذه الجرائم في غضون ستة أشهر أو عام تقريبًا، ثم توقف كل شيء، ولم تُرتكب جريمة من هذا القبيل منذ ذلك الحين. أعتقد أن المجرم رحل بعيدًا، وهذا ما يجعل الناس يعتقدون أنهم ربما يعرفون الفاعل".

سألتها توبينس: "أتقصدين أن الفاعل هو من الأشخاص الذين رحلوا عن المنطقة؟".

قالت السيدة كوبلي: "لقد أثار هذا الأمر التكهنات بين الناس، وكثرة القيل والقال".

ترددت توبينس قبل طرح السؤال التالي، لكنها شعرت بأنه لا بأس من طرحه في ظل شغف السيدة كوبلي بالحديث.

سألتها توبينس: "من تعتقدين أنه الفاعل؟".

قالت السيدة كوبلي: "لقد مضى وقت طويل، ولا يروقني الحديث في هذا، لكن هناك أسماء ذُكرت، ومنها السيد بوسكوان".

قالت توبينس: "حقًا؟".

قالت السيدة كوبلي: "أجل، فهو فنان، والفنانون غريبو الأطوار، لكني لا أعتقد أنه الفاعل!".

قال السيد كوبلي: "قيل أيضًا إن الفاعل هو آموس بيري".

قالت توبينس: "زوج السيدة بيري؟".

قال السيد كوبلي: "أجل، إنه غريب الأطوار، وأبله بعض الشيء، ومن نوعية الأشخاص الذين قد يقدِمون على فعل شيء كهذا".

سألت توبينس: "هل كانت أسرة بيري تعيش هنا في ذلك الوقت؟".

قال السيد كوبلي: "أجل، لكن ليس في منزل ووترميد، بل كانا يقطنان في كوخ على بعد نحو تسعة أو عشرة كيلومترات. أنا متأكد من أن الشرطة وضعت آموس في دائرة المشتبه بهم".

قالت السيدة كوبلي: "لكنهم لم يجدوا ما يدينه، وقد شهدت زوجته لصالحه، وقالت إنه كان يقضي كل مساء معها في المنزل، لكن أحيانًا يقضي مساء السبت في المقهى، غير أنه لم تقع أي من الجرائم مساء السبت. بالإضافة إلى هذا، فإن أليس بيري من النوع الذي تصدقه عندما يقدم أدلة؛ فهي لا تهتز ولا تتراجع في كلامها ولا يمكن إخافتها. على أية حال، لم يكن *آموس* هو الفاعل، وأنا لم أعتقد هذا يومًا. أعرف أنني ليس لدي دليل أستند إليه، لكن لو تعين عليَّ توجيه أصابع الاتهام إلى أحد، كنت سأوجهها إلى السير فيليب".

شعرت توبينس مرة أخرى بارتباك؛ فها هي تسمع بشخصية جديدة أخرى؛ لذا سألت: "السير فيليب؟ من السير فيليب؟".

قالت السيدة كوبلي: "السير فيليب ستارك، وهو يعيش في المنزل الذي بُني مكان منزل عائلة وارينر، والذي كان يُطلق عليه المنزل القديم وقت أن كانت تعيش فيه هذه العائلة قبل أن يُحرق. يمكنك رؤية قبور عائلة وارينر في ساحة دار العبادة، وقد تواجدت هذه العائلة هنا منذ بداية القرن السابع عشر".

سألت توبينس: "وهل كان السير فيليب قريبًا لعائلة وارينر؟".

قالت السيدة كوبلي: "لا. لقد جنى هو أو والده ثروة ضخمة من صناعة الصلب أو شيء من هذا القبيل. كان السير فيليب رجلاً غريب الأطوار؛ فمع أن أعماله كانت في الشمال، لكنه عاش هنا في عزلة وكأنه ... وكأنه ..."

قالت توبينس: "وكأنه ناسك".

قالت السيدة كوبلي: "أجل، هذه هي الكلمة التي أبحث عنها. كان شاحبًا، وشديد النحافة، ومولعًا بالزهور والنباتات؛ حيث كان معتادًا جمع كل أنواع الزهور البرية الصغيرة التي لا يهتم بها أحد، بل وألف كتابًا عنها. أجل، كان ذكيًا، ذكيًا للغاية. وكانت زوجته امرأة لطيفة وجميلة للغاية، لكنها كانت تبدو حزينة دائمًا".

همهم السيد كوبلي قائلاً: "ستكونين مجنونة لو ظننت أن السير فيليب هو الفاعل. لقد كان يحب الأطفال ويقيم لهم حفلات دائمًا".

فـردت السيـدة كوبلي: "أعلم أنـه كان دائمًا يعد لهم حفلات، ويقـدم لهم جوائـز، ويقيم لهـم السباقات، ويـوزع عليهم فراولة وكعـكًا، فهـو لـم ينجب أبنـاء. وكان كثيرًا ما يوقـف الأطفال في الأزقة ويعطيهم حلوى أو مالًا ليشتروا الحلوى، لكنـي أعتقد أن تصرفاتـه كانت بهـا مبالغة غير طبيعيـة. كان رجلًا غريبًا، وقد شعـرتُ بـأن هنـاك شيئًـا ليس على ما يـرام عندمـا تركته زوجته فجأة".

سألت توبينس: "متى تركته زوجته؟".

أجابت السيدة كوبلي: "بعد ستة أشهر تقريبًا من بدء وقوع الجرائـم، وكان حينهـا قـد مـات ثلاثـة أطفـال. رحلـت السيـدة ستـارك فجـأة إلـى جنـوب فرنسـا، ولـم تعـد أبـدًا. ولـم تكن من النوعية التي تفعل شيئًا كهذا؛ فقد كانت سيدة هادئة ومحترمة، ولـم تكـن لتهجر زوجها من أجل رجل آخـر. هي ليست على هذه الشاكلة. *فلماذا* إذن رحلت وتركته؟ أنا أقول دائمًا إنها فعلت هذا لأنها عرفت شيئًا ما... اكتشفت شيئًا ما".

سألتها توبينس: "وهل ما زال السير فيليب يعيش هنا؟".

قالـت السيـدة كوبلي: "ليس بشـكل منتظم، بـل يأتي مرة أو اثنتين في العام، لكن المنزل يظل مغلقًا معظم الوقت مع وجود حارس فيه، وقد عملت السيدة بلاي سكرتيرة، وترعى شئونه".

سألت توبينس: "وزوجته؟".

قالـت السيدة كوبلي: "لقد ماتـت المسكينة بعد وقت قصير مـن سفرهـا للخـارج، وهناك لـوح تـذكاري معلق باسمهـا في دار العبـادة. لابـد أن مـا مرت بـه كان فظيعًـا، فربما كانـت تشك في البدايـة فـي تصرفـات زوجهـا دون أن تكـون متأكـدة، لكنها ربما

تأكدت بعد ذلك، ولم يكن بوسعها تحمل الأمر؛ فرحلت".

قال السيد كوبلي: "هذه تخيلات نساء".

فقالت السيدة كوبلي: "إن ما أريد قوله إنه كان ثمة خطب ما بشأن السير فيليب؛ فقد كان شغوفًا بالأطفال بشكل مبالغ فيه وغير طبيعي".

قال السيد كوبلي: "أوهام نساء".

نهضت السيدة كوبلي، وبدأت رفع الأطباق من على المائدة.

فقال السيد كوبلي: "خيرًا فعلت؛ فقد كنت ستتسببين في كوابيس لهذه السيدة لو كنت واصلت التحدث عن أشياء مر عليها سنوات، ولم يعد لها علاقة بأي شخص يعيش هنا حاليًا".

قالت توبينس: "لقد استمتعتُ بالاستماع إليها، لكني أشعر بنعاس، وأستأذن في الانصراف إلى النوم".

قالت السيدة كوبلي: "حسنًا. نحن عادة ما نخلد إلى النوم مبكرًا. لابد أنك متعبة بعد اليوم الذي مررت به".

تثاءبت توبينس وقالت: "بالفعل متعبة وأشعر بحاجة شديدة إلى النوم. طابت ليلتكما، وأشكركما جزيلا".

قالت السيدة كوبلي: "هل تريدين أن أوقظك وأعد لك كوبًا من الشاي في الصباح؟ هل الثامنة وقت مناسب لأوقظك فيه؟".

قالت توبينس: "أجل، مناسب. لكن لا ترهقي نفسك إذا كان في الأمر مشقة عليك".

قالت السيدة كوبلي: "ليس في الأمر مشقة على الإطلاق".

صعدت توبينس إلى غرفتها بخطى متثاقلة، وفتحت حقيبتها، وأخرجت عدة أشياء تحتاج إليها، وغيَّرت ملابسها،

ثم ألقت بنفسها على السرير. إن ما قالته للسيدة كوبلي كان حقيقيًا؛ فقد كانت توبينس مرهقة للغاية؛ فالأشياء التي سمعتها تدور بذهنها في دوامة مليئة بالأجسام المتحركة والتخيلات الفظيعة. أطفال موتى، الكثير من الأطفال الموتى. وكل ما كانت توبينس تريده هي معرفة طفلة واحدة ميتة خلف المدفأة، ربما هي مدفأة منزل ووترسيد. ربما كانت دمية الأطفال التي وجدتها في المنزل هي لطفل قتلته شابة مختلة ذهب عنها وعيها عندما هجرها حبيبها. قال توبينس في نفسها 'يا إلهي، ما هذه اللغة الميلودرامية التي أفكر بها'. كانت الأحداث مبعثرة دون ترتيب زمني؛ بحيث يشق على توبينس معرفة توقيت ما حدث.

خلدت توبينس إلى الراحة وحلمت بسيدة تنظر من نافذة المنزل، وهناك صوت خشخشة صادر من المدفأة، وصوت دقات مطرقة على لوح معدني كبير يتم تثبيته بمسامير. استيقظت توبينس على صوت طرق السيدة كوبلي على الباب، التي دخلت مبتهجة، ووضعت الشاي بجانب سرير توبينس، وتمنت أن تكون قد نامت جيدًا. قالت توبينس في نفسها إنه لا يوجد من يبدو مبتهجًا أكثر من السيدة كوبلي، التي يبدو أنه لم تراودها أحلام مخيفة بالأمس!

الفصل التاسع

صباح يوم في ماركت باسنج

قالت السيدة كوبلي وهي تخرج من الغرفة: "حسنًا. هذا يوم آخر، فذلك ما أقوله دائمًا عندما أستيقظ".

قالت توبينس في نفسها وهي ترشف الشاي الأسود الثقيل: "يوم آخر؟ إنني أتساءل عما إذا كنت أتصرف بحماقة؟ ربما، أتمنى لو كان تومي معي لأتحدث إليه، فلقد أربكتني ليلة أمس".

قبل أن تغادر توبينس غرفتها، دونت أشياء في مفكرتها حول عدة حقائق وأسماء سمعتها الليلة السابقة، لكنها لم تدونها عندما صعدت إلى غرفتها بالأمس نظرًا لشدة إرهاقها. لقد استمعت إلى قصص ميلودرامية من الماضي يحوي بعضها حقائق، لكن أغلبها شائعات وافتراءات ونمائم وخيالات رومانسية.

فكرت توبينس في نفسها، قائلة: "حسنًا. لقد بدأتُ في التعرف على الحياة الغرامية لعدد من الناس ابتداء من القرن الثامن عشر، لكن إلى أين يقودني كل هذا؟ ما الذي أبحث عنه؟ لم أعد حتى أعرف ما أبحث عنه. الغريب في الأمر أنني أشعر

أنني تورطتُ ولا يمكنني التراجع".

كان ينتاب توبينس شك قوي بأن أول مشكلة قد تتورط فيها ستكون مع السيدة بلاي، وشعرت بأنها تمثل أكبر تهديد لها في بلدة سوتون تشنسلر؛ ولذا حاولت تحاشي عروض المساعدة التي قد تعرضها عليها بأن قادت سيارتها سريعًا إلى ماركت باسنج، غير أن توبينس أوقفت سيارتها عندما سمعت السيدة بلاي تناديها، فأخبرتها توبينس بأن لديها موعدًا عاجلاً، فسألتها السيدة بلاي متى ستعود، لكن توبينس أعطتها إجابة غامضة. فسألتها السيدة بلاي عما إذا كان بإمكانها تناول الغداء معها، فأجابت توبينس بأنها تخشى ألا تكون قد انتهت من شئونها.

فقالت السيدة بلاي: "إذن، لنحتس الشاي معًا، الساعة الرابعة والنصف. سأنتظرك". كان هذا أشبه بأمر ملكي، فابتسمت توبينس وأومأت، ثم مضت في طريقها.

فكرت توبينس في أنها ربما إذا حصلت على أية معلومات مثيرة من سماسرة العقارات في ماركت باسنج، فإنه ربما تقدم نيلي بلاي لها معلومات إضافية مفيدة، فهي من نوعية النساء اللائي يفتخرن بأنهن يعرفن كل شيء عن الجميع، لكن المشكلة أنها ستصمم على معرفة كل شيء عن توبينس. تمنت توبينس أن تكون قد تعافت تمامًا بحلول العصر حتى تستعيد قدرتها على التظاهر بغير حقيقتها!.

قالت توبينس لنفسها: "تذكري من أنت، يا سيدة بلينكينسوب"، ثم سلكت فجأة منعطفًا حادًا وانحشرت في إحدى سقائف القش لتتجنب الاصطدام بمحراث زراعي ضخم.

وصلت توبينس إلى ماركت باسنج، وركنت سيارتها في مكان انتظار السيارات في الميدان الرئيسي، وذهبت إلى مكتب البريد، ودخلت كابينة هاتف خالية.

جاءها صوت ألبرت بصوته المعتاد المرتاب عندما يرد على الهاتف، قائلًا: "مرحبًا".

قالت توبينس: "اسمعني يا ألبرت. سأحضر إلى المنزل غدًا في موعد العشاء، وربما قبل ذلك. السيد بيريسفورد سيعود غدًا أيضًا إلا إذا اتصل وأخبرك بخلاف ذلك. أعد لنا شيئًا على العشاء، وليكن دجاجًا".

قال ألبرت: "حسنًا، يا سيدتي. أين أنت؟".

لكن توبينس أغلقت الخط.

بدا أن الحياة في ماركت باسنج تتمركز في ميدانها الرئيسي المهم؛ لذا بحثت توبينس في دليل الأماكن قبل أن تغادر مكتب البريد، فوجدت أن ثلاثة من مكاتب السمسرة الأربعة بالبلدة تقع في الميدان، والرابع في مكان اسمه شارع جورج.

دوَّنت توبينس أسماء لمكاتب، وخرجت بحثًا عنها.

بدأت بمكتب لافبودي وسليكر الذي بدا فخمًا.

واستقبلتها هناك فتاة ذات وجه منمش.

سألتها توبينس: "أريد الاستفسار عن أحد المنازل".

تلقت الفتاة ذات النمش كلامها دون اهتمام وكأن توبينس تسأل عن حيوان نادر.

وقالت: "لا أعرف ماذا تقصدين"، ثم نظرت حولها لترى ما إذا كان هناك أحد من زملائها لتمرر توبينس له.

فقالت توبينس: "أريد الاستفسار عن منزل. أنتم مكتب عقارات، أليس كذلك؟".

قالت الفتاة: "مكتب عقارات ومنظمو مزادات. سيقام مزاد محكمة كرنبري يوم الأربعاء في حال كنت مهتمة. سعر كتالوج المزاد شلنان".

قالت توبينس: "أنا لست مهتمة بالمزادات. أنا أريد أن أسأل عن منزل".

قالت الفتاة: "مفروش؟".

أجابت توبينس: "غير مفروش، وربما أستأجره أو أشتريه".

ابتهجت الفتاة ذات النمش قليلاً، قائلة: "أعتقد أنه من الأفضل أن تقابلي السيد سليكر".

وأُدخلت توبينس على الفور مكتبًا صغيرًا، وكان يجلس قبالتها شاب ضخم يرتدي بدلة من الصوف، والذي بدأ في تقليب عدد كبير من الأوراق عن مواصفات عقارات، وأخذ يقرأ لنفسه من الأوراق ويهمهم: "طريق ماندفل، بُني على يد مهندس معماري، ثلاث غرف، مطبخ أمريكي. أوه، لا، لقد بيع هذا. بيت أمابيل، عقار أنيق الطراز، أربعة أفدنة، تخفيضات للبيع السريع".

قاطعته السيدة توبينس بحزم وقالت: "لقد رأيت منزلًا أعجبني منظره في بلدة سوتون تشنسلر، أو بالأحرى بالقرب منها، بجانب قناة مائية".

بدا السيد سليكر غير متأكد، وقال: "سوتون تشنسلر. لا أعتقد أنه يوجد بسجلاتنا عقارات هناك في الوقت الحالي. ما اسم المنزل؟".

قالت توبينس: "لم أر اسمًا عليه، ربما اسمه ووترسايد أو ريفرميد، وأعتقد أنه كان يُسمى منزل الجسر أيضًا. المنزل منقسم لجزأين، والجزء الأول مستأجر، لكن مستأجريه لا يعرفون شيئًا عن الجزء الآخر، وهو الجزء المطل على القناة والذي أريده. يبدو أنه لا يسكنه أحد".

قال السيد سليكر في شيء من الاستعلاء إنه لا يستطيع مساعدتها، لكن ربما يستطيع ذلك مكتب بلودجت وبورجيس، وكانت نبرة كلامه تشير ضمنيًا إلى أن مكتب بلودجت وبورجيس أقل شأنًا من مكتبه.

ذهبت توبينس إلى مكتب بلودجت وبورجيس، والذي كان يقع في الجانب المقابل من الميدان، ويشبه إلى حد قريب مكتب لافبودي وسليكر، ولديهم النوع نفسه من فواتير البيع، ونشرات المزادات القادمة نفسها على نوافذهم المعتمة بعض الشيء. كان يبدو أن الباب الأمامي أعيد طلاؤه حديثًا بإحدى درجات اللون الأخضر، وليس من المؤكد إن كان هذا يُعد إضافة جيدة للمكان.

كانت إجراءات الاستقبال محبطة بقدر ما كانت في المكتب السابق، ثم جلست توبينس مع رجل عجوز اسمه سبريج، والذي بدا أنه شخص ذو مزاج كئيب. ومرة أخرى، ذكرت توبينس مطلبها.

قال السيد سبريج إنه يعرف المنزل الذي تسأل عنه، لكنه أخبرها بأنه لا يستطيع مساعدتها، أو بالأحرى وكما بدا عليه، فإنه لم يكن مهتمًا.

وقال: "إنه ليس معروضًا للبيع. لا يريد المالك بيعه".

سألته توبينس: "ومن المالك؟".

قال السيد سبريج: "لا أعرف بشكل مؤكد. لقد تغيرت ملكيته كثيرًا، وقد كانت هناك شائعات تقول إن الحكومة استولت عليه".

قالت توبينس: "ولِمَ تستولي الحكومة المحلية عليه؟".

قال السيد سبريج: "في الحقيقة، لو استطعت يا سيدة ... (ألقى نظرة خاطفة على اسم توبينس على ورقة أمامه) يا سيدة بيريسفورد أن تجيبي عن هذا السؤال، فستكونين أكثر حكمة من معظم الضحايا هذه الأيام. إن الطرق التي تعمل بها مجالس البلدية وجمعيات التخطيط عادة ما يكتنفها الغموض. لقد أُجريت بعض الترميمات الضرورية للجزء الخلفي من المنزل، وتم تأجيره بسعر زهيد للغاية إلى... أجل، السيد بيري وزوجته. أما بالنسبة إلى المالك الحقيقي للمنزل فهو يعيش بالخارج، ويبدو أنه لم يعد يهتم بالمكان. يقال إن الوارث كان قاصرًا، ولذا كان يدير المنزل مجموعة من الأوصياء، وكانت هناك بعض المشكلات القانونية، وكانت إجراءات حلها ستكلف كثيرًا. أعتقد أن المالك لا يمانع في هدم المنزل، ولذا لم يتم إجراء إصلاحات إلا في الجزء الذي تعيش فيه أسرة بيري. إن سعر أراضي المنازل يرتفع دائمًا، لكن ترميم المنازل المهجورة نادرًا ما يكون خطوة مربحة. إذا كنت مهتمة بمنزل من هذه الشاكلة، فأنا متأكد أن بإمكاننا أن نعرض لك شيئًا أفضل منه. هل لي أن أسأل ما الذي جذبك تحديدًا إلى هذا العقار؟".

قالت توبينس: "لقد أعجبني منظره. إنه منزل جميل *للغاية*، وقد رأيته للمرة الأولى من القطار".

حاول السيد سبريج قدر الإمكان إخفاء تعبير ملامحه التي تكاد تقول يا لسخافة النساء، وقال بهدوء: "أوه، فهمت. لكن لو كنت مكانك، لصرفت نظري تمامًا عن هذا المنزل".

قالت توبينس: "أتعتقد أن بوسعك أن تكتب إلى المالك وتسأله ما إذا كان مستعدًا للبيع، أو ربما يمكنك أن تعطيني عنوانه ..."

قال سبريج: "سنتواصل مع محامي المالك إذا كنت تصرين على هذا، لكني لا أعلق آمالًا كبيرة على الأمر".

قالت توبينس بشكل بدت فيه ساذجة وعصبية: "أعتقد أن المرء يجب أن يتعامل مع المحامين في كل شيء هذه الأيام، والمحامون دائمًا ما يتصرفون *ببطء* في كل شيء".

قال سبريج: "أجل، من المعروف أن الإجراءات القانونية بطيئة".

قالت توبينس: "والبنوك أيضًا على القدر نفسه من السوء".

قال السيد سبريج وهو مندهش قليلًا: "البنوك ..."

قالت توبينس: "الكثير من الناس يقدمون عنوان بنك ما كعنوان لهم. هذا شيء مرهق أيضًا".

قال السيد سبريج: "أجل، ما تقولينه صحيح، لكن الناس صاروا يتنقلون كثيرًا هذه الأيام، ومنهم من يسافر إلى الخارج". ثم فتح أحد أدراج المكتب، وقال: "لديَّ هنا منزل في كروجيتس،

وهي تبعد ثلاثة كيلومترات عن ماركت باسنج، وهو منزل في حالة جيدة، وله حديقة لطيفة، و..."

لكن توبينس نهضت، وقالت: "لا، شكرًا".

ثم ودعت السيد سبريج بطريقة حازمة، وخرجت إلى الميدان.

ثم قامت بزيارة سريعة إلى المكتب الثالث، الذي بدا أنه متخصص أكثر في مزارع الماشية والدجاج، والمزارع المهجورة بوجه عام.

ثم قامت بزيارة أخيرة إلى مكتب 'روبرتس ووايلي' في شارع جورج، الذي بدا مكتبًا صغيرًا لكنه مزدحم بالأعمال، غير أنه بدا أنه لا يهتم بسوتون تشنسلر و يتجاهلها، ويركز على بيع العقارات نصف المكتملة فقط بأسعار باهظة للغاية، وقد انتابت توبينس القشعريرة عندما رأت الرسم التصميمي لأحدها. ولما رأى الشاب الذي يعمل هناك العميلة المحتملة توبينس تهم بالمغادرة، أخبرها على مضض بمعلومات عن سوتون تشنسلر.

قال: "من الأفضل أن تحاولي في مكتب بلودجت وبورجيس في الميدان؛ فهذا المكتب لديه بعض العقارات في سوتون تشنسلر، لكن جميعها في حال سيئة".

قالت توبينس: "ثمة منزل بالقرب من جسر القناة، وقد رأيته من القطار. لماذا لا يريد أحد العيش هناك؟".

قال الشاب: "أوه! أعرف هذا المكان على ضفة القناة. لا أحد يريد العيش هناك؛ فالمنزل لديه سمعة بأنه مسكون".

قالت توبينس: "أتعني مسكونًا بالأشباح؟".

قال الشاب: "هكذا يقال، وهناك الكثير من الحكايات بشأنه منها أن هناك أصواتًا وأنينًا يصدر من داخله ليلًا، لكن إذا أردت رأيي، فهذه أصوات الخنافس".

قالت توبينس: "يا إلهي. إنه يبدو لي لطيفًا ومعزولًا".

قال الشاب: "معزول أكثر من اللازم بالنسبة لمعظم الناس، وهذا يجعله عرضة للفيضانات في الشتاء. فكري في ذلك".

قالت توبينس بمرارة: "أرى أن هناك الكثير من الأشياء التي يتعين عليَّ التفكير بشأنها".

وأخذت تحدث نفسها بأمور وهي في الطريق إلى مطعم لام آند فلاج لتناول الغداء.

قالت لنفسها: "هناك الكثير من الأشياء التي يتعين عليَّ التفكير بشأنها. فيضانات، وخنافس، وأشباح، وصليل سلاسل، وملاك غائبون، ومحامون، وبنوك، ومنزل لا يريده أو يحبه أحد، باستثنائي ربما. حسنًا، ما أحتاج إليه الآن هو الطعام".

كان الطعام بمطعم لام آند فلاج جيدًا ومفيدًا؛ فهو طعام صحي من المزارع، وليس تلك الأطعمة الفرنسية الزائفة التي تقدم للسياح الماريين من هنا. تناولت توبينس حساء مملحًا سميكًا، ولحمًا، وصلصة تفاح، وجبن ستيلتون، والتي كان بإمكان توبينس أن تستبدل بها برقوقًا أو كاسترد، لكنها لم تفضل هذا.

وبعد أن تمشت توبينس دون وجهة محددة، عادت إلى سيارتها وبدأت طريق العودة إلى سوتون تشنسلر، وهي تشعر بأن صباحها لم يكن مثمرًا.

وبينما هي تسلك المنعطف الأخير، لاحت لها دار عبادة سوتون تشنسلر، ورأت رجل الدين يسير مرهقًا في ساحة الدار، فتوقفت توبينس وسألته: "هل ما زلتَ تبحث عن ذلك القبر؟".

قال رجل الدين: "أوه، يا عزيزتي. إن نظري ليس جيدًا، وأغلب الكلمات قد مُسحت تقريبًا. كما أن ظهري يؤلمني أيضًا، والكثير من شواهد القبور تهدمت وصارت ملقاة بشكل مسطح على الارض، وعندما أنحني لأقرأ ما عليها، أخشى ألا ينتصب ظهري مرة أخرى".

قالت توبينس: "عليك التوقف عن هذا. إذا كنت بحثتَ عن الأسماء في سجل الدار، فإنك بذلك فعلت ما في وسعك".

قال رجل الدين: "أعلم، لكن ذلك الرجل المسكين يبدو مهتمًا ومتلهفًا للغاية. أنا متأكد أن ما أفعله بلا جدوى، لكني أشعر بأن من واجبي فعل هذا، ولم يتبق لديَّ سوى منطقة صغيرة لأبحث فيها، بدءًا من خلف شجرة التوت إلى السور البعيد، على الرغم من أن معظم المقابر في هذه البقعة تعود إلى القرن الثامن عشر، لكني أريد أن أشعر بأني أنجزت المهمة بشكل ملائم حتى لا يؤنبني ضميري بعد ذلك. سأبدأ في هذه البقعة صباح الغد".

قالت توبينس: "حسنًا، يجب ألا تنجز أكثر من طاقتك في يوم واحد. لديَّ اقتراح، وهو بعد أن أذهب لتناول الشاي مع السيدة بلاي، سأحضر وألقي نظرة بنفسي. أنت قلت من شجرة التوت حتى السور، أليس كذلك؟".

قال الرجل: "هذا صحيح، لكني لا يمكنني أن أطلب منكِ..."

قاطعته توبينس قائلة: "لا بأس في ذلك؛ فأنا أرغب في فعل

هذا، وأنا أعتقد أنها ستكون جولة مثيرة بين المقابر؛ فالكتابات القديمة على شواهد القبور تمد مخيلتي بصور عن الأشخاص الذين عاشوا هنا وأشياء من هذا القبيل. سأستمتع حقًا بهذا. عد إلى بيتك واسترح".

قال رجل الدين: "حسنًا؛ فأنا بحاجة إلى إعداد خطبتي التي سألقيها هذا المساء. أنت صديقة طيبة. لا شك في ذلك".

ابتسم لها الرجل، ثم دخل دار العبادة. نظرت توبينس إلى ساعتها، وذهبت إلى منزل السيدة بلاي، حيث توقفت أمامه، وقالت لنفسها: "أتمنى أن ينتهي هذا على خير". كان الباب مفتوحًا، وكانت السيدة بلاي تحمل طبقًا من الكعك الذي خرج لتوه من الفرن وهي متجهة من الصالة إلى غرفة الجلوس.

قالت: "مرحبًا بك، يا سيدة بيريسفورد. يُسعدني *للغاية* مجيئك. الشاي جاهز على النار"، ثم أضافت وهي تنظر بارتياب إلى حقيبة التسوق الفارغة في ذراع توبينس: "أتمنى أن تكوني قد وجدتِ ما ذهبتِ للتسوق من أجله".

فأجابت توبينس وهي تحاول التصرف بشكل طبيعي قدر الإمكان: "لم أكن محظوظة للأسف. أنت تعرفين هذه الأيام التي تتسوقين فيها، فلا تجدين اللون أو النوع الذي تريدينه. لكني أحب دائمًا التسوق في مكان جديد حتى لو لم يكن رائعًا للغاية".

أصدر براد الشاي صفيرًا، فذهبت السيدة بلاي إلى المطبخ، وفي أثناء ذلك اصطدمت بطاولة الصالة لتقع مجموعة من الخطابات التي كانت عليها في انتظار رجل البريد.

نهضت توبينس والتقطت الخطابات من على الأرض، ولاحظت وهي تعيدها إلى مكانها أن أول خطاب موجه إلى السيدة يورك، القاطنة بدار المسنات روزتيليس كورت، في عنوان بمقاطعة كمبرلاند.

قالت توبينس في نفسها: "يا إلهي. لقد بدأ يخالجني شعور بأن البلاد كلها ليس فيها إلا دار مسنين! وأظن أنني وتومي سنقيم في إحداها قريبًا!.

فمنذ عدة أيام، قام شخص يحاول أن يكون لطيفًا ومفيدًا، بإرسال خطاب لتوبينس وتومي يرشح فيه لهما دار مسنين لطيفة للأزواج في مقاطعة ديفون، التي يقطنها في الغالب متقاعدون من العمل في جهاز الاستخبارات البريطاني، ويقول إن الطعام هناك جيد للغاية، وإن بإمكانهما إحضار أثاثهما ومتعلقاتهما الشخصية.

عادت السيدة بلاي من المطبخ ومعها صينية الشاي، وجلست السيدتان تحتسيانه.

كان الحديث مع السيدة بلاي أقل درامية وثراء من الحديث مع السيدة كوبلي التي ركزت على الحصول على المعلومات أكثر من تقديمها.

أخبرت توبينس السيدة بلاي بشكل مبهم عن سنوات عملها بالخارج، وعن صعوبات الحياة الأسرية، وعن ابنها وابنتيها المتزوجتين وعن أطفالهم، ثم قامت توبينس بتوجيه مسار المحادثة بلطف نحو أنشطة السيد بلاي في سوتون تشنسلر، وهي كثيرة: معهد النساء، وفريق فتيان الكشافة، وفريق فتيات

الكشافة، واتحاد النساء المحافظات، والمحاضرات، والفن الإغريقي، وصنع المربى، والاعتناء بالأزهار، ونادي الرسم، وجمعية أصدقاء الآثار، والاعتناء بصحة رجل الدين العجوز الذي يشرد بذهنه كثيرًا والذي لابد أن يُجبر على العناية بنفسه، وحل الخلافات بين موظفي دار العبادة.

أثنت توبينس على الكعك، وشكرت مضيفتها على حسن الضيافة، ونهضت لتنصرف.

وقالت للسيدة بلاي: "أنت نشيطة بشكل مذهل، يا سيدة بلاي. لا يمكنني تخيل كيف تفعلين كل ما تفعلينه. بعد هذا اليوم من القيادة والتسوق، أنا بحاجة لأن أستريح وأغفو لنصف ساعة أو نحو ذلك على السرير، وهو سرير مريح للغاية؛ ولذا لابد أن أشكركِ كثيرًا على ترشيح السيدة كوبلي لي".

قالت السيدة بلاي: "إنها امرأة محل ثقة، وإن كانت كثيرة الكلام".

قالت توبينس: "لقد وجدتُ كل حكايتها عن الأحداث المحلية مسلية للغاية".

قالت السيدة بلاي: "إنها لا تعرف ما تتحدث عنه نصف الوقت! هل ستمكثين هنا فترة طويلة؟".

فأجابت توبينس: "لا، سأرحل غدًا. أشعر بخيبة أمل لأنني لم أجد أي منزل صغير مناسب. كان لديَّ أمل؛ إزاء منزل جذاب مطل على القناة ..."

قالت السيدة بلاي: "دعكِ من هذا المنزل؛ فهو في حالة سيئة للغاية، ومالكوه ليسوا موجودين، ووضع المنزل بأسره مزرٍ".

قالت توبينس: "إنني حتى لا أعرف من أصحاب البيت، وقد توقعت أنك تعرفين؛ حيث يبدو أنك تعرفين كل شيء هنا".

قالت السيدة بلاي: "لم أهتم أبدًا بهذا المنزل. إن ملاكه يتغيرون باستمرار ولا يستطيع المرء مواكبة كل مستجداته. إن أسرة بيري تعيش في نصف المنزل، أما النصف الآخر فقد تحول إلى خراب".

ودعت توبينس السيدة بلاي، وقادت سيارتها عائدة إلى منزل السيدة كوبلي. كان المنزل هادئًا ومن الواضح أنه فارغ، فصعدت توبينس إلى غرفتها، ووضعت حقيبة التسوق الفارغة، وغسلت وجهها، وخرجت مرة أخرى من المنزل بهدوء وهي تنظر يمينًا ويسارًا، وتركت سيارتها في مكانها، ومشت سريعًا إلى المنعطف، ثم سلكت طريقًا بين الحقول خلف القرية يقود إلى ممر يفضي إلى ساحة دار العبادة.

وصلت توبينس إلى ساحة دار العبادة بهدوء في وقت الغروب، وبدأت في فحص شواهد القبور، كما وعدت رجل الدين. لم يكن لدى توبينس أي دافع خفي لفعل ذلك، ولم تكن تأمل اكتشاف شيء محدد، بل كانت تفعل ذلك بدافع الطيبة؛ فرجل الدين العجوز شخص لطيف، وهي تود له أن يشعر بأن ضميره مرتاح تمامًا. كانت قد جلبت معها مفكرة وقلم رصاص في حال وجدت شيئًا يثير انتباهها فتدونه، وكانت تدرك أنها ستبحث فقط عن شاهد قبر لطفلة ذات سن معينة، لكن التواريخ على معظم القبور هنا كانت أقدم من النطاق الزمني الذي تبحث فيه، وإن كانت غير قديمة بما يكفي لتأخذ الشكل المثير العتيق الجذاب. وكان معظمها لأشخاص كبار في السن نسبيًا، وقد سارت توبينس

ببطء بين الشواهد وهي تتخيل صورًا عن هؤلاء الأشخاص. فهذه جين إيلوود، التي رحلت عن الحياة في 6 يناير، بعمر 45 عامًا. وهذا ويليام مارل الذي رحل عن الدنيا مأسوفًا عليه في 5 يناير. وتلك ماري تريفيس، التي ماتت وهي في الخامسة، بتاريخ 14 مارس، 1835، لكن هذا التاريخ بعيد جدًا. كُتبت على قبر ماري عبارة "أينما حللت حل الفرح". يا لك من محظوظة، يا ماري تريفيس.

كادت توبينس تصل إلى السور حيث نهاية المنطقة التي تبحث فيها، وكانت القبور هناك مهملة وقد نمت عليها نباتات، ويبدو أن لا أحد يهتم بها. ولم يعد الكثير من الشواهد منتصبًا، بل ملقى بشكل مسطح على الأرض، وكان السور متهالكًا ومتداعيًا، وكانت أجزاء منه مكسورة.

ونظرًا لأن السور يقع خلف دار العبادة مباشرة، فإنه لا يُرى من الطريق، ولا شك أن الأطفال يجيئون هنا ويخربون المكان كما يشاءون. انحنت توبينس فوق أحد الشواهد، وكانت الكلمات الأصلية متآكلة ويتعذر قراءتها، لكن عندما رفعت توبينس الشاهد من أحد الجوانب، رأت بعض الأحرف والكلمات المكتوبة بشكل غير محكم، والتي كانت تغطيها بعض الأعشاب.

حاولت توبينس تتبّع المكتوب بأصبعها السبابة، فوجدت العبارة الدينية التالية:

'من ... يلحق مكروهًا .. بأحد هؤلاء الصغار ....'

وكُتب أسفل هذه العبارة بيد غير خبيرة:

هنا ترقد ليلي ووترز

أخذت توبينس نفسًا عميقًا، ولمحت فجأة ظلًا خلفها، لكن قبل أن تلتفت، ضربها بشيء على مؤخرة رأسها، لتسقط متألمة إلى الأمام على الشاهد، لتغيب بعدها عن الوعي.

الجزء الثالث

زوجة مفقودة

الفصل العاشر

المؤتمر، وما بعده

قال اللواء السير جوسيا بن، الحاصل على وسام رفقاء الشرف ووسام أمر الخدمة المميزة، بنبرة تليق بمهابة الألقاب التي يحملها: "ما رأيك في كل هذا الهراء، يا سيد بيريسفورد؟".

فهم تومي من هذا التعليق أن جو العجوز، حسبما كان يوصف من وراء ظهره بشكل مهين، لم يكن راضيًا عن نتيجة مسار المؤتمرات التي شاركوا فيها.

أكمل السير جوسيا تعليقه قائلًا: "نحن بحاجة إلى التمهل والتدبر، فهناك كلام كثير يقال، وليس فيه ما يفيد، وإذا قال شخص شيئًا معقولًا بين الحين والآخر، يقف على الفور حوالي أربعة حمقى ويسكتونه. *أنا* لا أعرف لماذا نأتي إلى هذه الفعاليات. كلا، بل أعرف السبب، وهو أنه ليس لديَّ شيء آخر لأفعله. إذا لم أحضر هذه الفعاليات، فسأضطر إلى البقاء في المنزل. وهل تعرف ما يحدث لي هناك؟ أتعرض لمضايقات، يا بيريسفورد. مضايقات من مدبرة المنزل، ومن البستاني الذي يعتني بحديقتي، فهو رجل عجوز لا يتركني ألمس شجر الخوخ في حديقتي؛ ولذا آتي إلى هنا، مستعرضًا قوتي، ومتظاهرًا

لنفسي بأنني أؤدي مهمة مفيدة تعزز أمن هذا البلد! هذا هراء.

ماذا عنك أنت؟ أنت صغير السن نسبيًا. لماذا جئت وضيّعت وقتك؟ لن يستمع إليك أحد، حتى إذا قلت شيئًا يستحق الإنصات له".

هز تومي رأسه وقد ابتهج بعض الشيء من حقيقة أنه برغم تقدمه في العمر، فإن اللواء السير جوسيا بن يعتبره صغير السن. وقال تومي لنفسه إنه برغم أن اللواء قد تجاوز الثمانين كثيرًا، وسمعه ضعيف، ويتنفس بصعوبة، لكنه ليس أحمق.

قال تومي: "لن يُنجز شيء دون وجودك، أيها السير".

قال اللواء: "يروقني التفكير على هذا النحو. أنا مثل كلب بلا أسنان، لا يزال بإمكانه النباح. كيف حال زوجتك؟ لم أرها منذ مدة طويلة".

فقال تومي إن توبينس بخير وأتم عافية.

أثنى عليها اللواء قائلًا: "لقد كانت نشطة دائمًا، وعادة ما كانت تذكرني في عملها بالنحل. كانت دائمًا تتبع فكرة تبدو سخيفة للآخرين، لنكتشف بعد ذلك أنها ليست سخيفة، وكان هذا ممتعًا للغاية! إنها لا تشبه سيدات منتصف العمر المتلهفات هذه الأيام اللائي يتظاهرن بأنهن يناصرن قضية ما"، ثم هز رأسه، مستطردًا: "أما بالنسبة إلى فتيات اليوم، فيختلفن عن الفتيات وقتما كنت شابًا. كانت الفتيات آنذاك جميلات كاللائي يُرسمن في اللوحات، وكن يرتدين الفساتين القطنية وعليها القبعات الكلاسيكية. ألا تتذكر ذلك؟ أنت لا تتذكر بالطبع؛ فحينها كنت لا تزال تلميذًا بالمدرسة. كان علينا النظر من تحت حافة القبعة لنرى وجه الفتاة. كنا نغتاظ من ذلك، *وكانت*

الفتيات يعرفن هذا! أتذكر الآن أنه كانت لديك قريبة، خالة على ما أعتقد، أليس كذلك؟ آدا. آدا فانشاو".

قال تومي: "الخالة آدا؟".

قال اللواء: "كانت أجمل فتاة رأيتها في حياتي".

حاول تومي احتواء المفاجأة التي شعر بها؛ فإن وصف خالته آدا بأنها جميلة بدا شيئًا عصيًا على التصديق، وقد بدا جوش العجوز مترددًا وهو يتحدث عنها.

أردف اللواء: "كانت جميلة وكأنها مرسومة في لوحة. كما أنها كانت مرحة ويروقها مناكفة الآخرين دائمًا. أتذكر آخر مرة رأيتها فيها، وكنت وقتذاك ملازمًا في الجيش وبصدد الذهاب إلى الهند. سرنا معًا في نزهة على الشاطئ تحت ضوء القمر، وقطعنا مسافة كبيرة، ثم جلسنا على صخرة تطل على البحر".

نظر تومي باهتمام شديد إلى اللواء، وإلى لُغده، ورأسه الأصلع، وحاجبيه كثيفي الشعر، وكرشه الضخم، ثم فكر في الخالة آدا، وفي الشعر النابت أسفل أنفها، وابتسامتها القاتمة، وشعرها الأشيب، ونظراتها الخبيثة، ثم فكر في الزمن وما يفعله بالمرء. حاول تومي تخيل ملازم شاب وسيم يسير مع فتاة جميلة تحت ضوء القمر، لكنه فشل في ذلك.

تنهد تومي بعمق، واستطرد اللواء: "الرومانسية. إنها الرومانسية. كنت أتمنى أن أتقدم لخطبتها في تلك الليلة، لكن لا يمكنك أن تتقدم لخطبة فتاة وأنت مجرد ملازم؛ فراتبي لم يكن كبيرًا، وكان عليها الانتظار خمس سنوات حتى نتزوج. لا يمكنك أن تطلب من فتاة أن تظل مخطوبة لك خمس سنوات. أنت تعرف كيف تتم الأمور. ذهبتُ إلى الهند، ومضى وقت طويل

قبل أن أتمكن من أخذ إجازة والعودة إلى الديار. كنا قد راسل كلانا الآخر قليلاً، لكن الجمود تسرب إلى العلاقة شيئًا فشيئًا، كما يحدث عادة. لم أرها مرة أخرى، لكني أعرف أنني لم أنْسَها أبدًا، وفكرت فيها كثيرًا. أتذكر أنني كنت على وشك مراسلتها في مرة بعد سنوات من الافتراق؛ فقد سمعتُ أنها تعيش في حي كنت أعيش فيه مع بعض الأشخاص، ففكرتُ أن أذهب لرؤيتها، وأسألها إن كان بإمكاني الاتصال بها؛ غير أنني قلت لنفسي بعد ذلك 'لا تكن أحمق. من الراجح أنها صارت مختلفة تمامًا الآن'.

وقد سمعتُ شخصًا يتحدث عنها منذ سنوات، ويقول إنها من أقبح النساء اللاتي رآهن على الإطلاق. لم أتمكن من تصديق ما قاله، لكني أعتقد أنني محظوظ أنني لم أرها مرة أخرى. كيف حالها الآن؟ هل ما زالت على قيد الحياة؟".

قال تومي: "لقد ماتت منذ أسبوعين أو ثلاثة".

قال اللواء: "ماتت؟ حقًا؟ أظن أنها كانت لتبلغ الآن نحو خمسة وسبعين أو ستة وسبعين عامًا؟ ربما أكبر من ذلك".

قال تومي: "كانت في الثمانين".

قال اللواء: "إنني أتخيل الآن آدا داكنة الشعر، النابضة بالحيوية. أين ماتت؟ هل ماتت في دار للمسنات أم كانت تعيش برفقة أحد، أم ... هي لم تتزوج إطلاقًا، أليس كذلك؟".

قال تومي: "لم تتزوج، وقد كانت تمكث في دار لطيفة للمسنات اسمها قمة الجبل المشمسة".

قال اللواء: "أجل، لقد سمعت بهذه الدار. هناك نزيلة بالدار تعرفها أختي اسمها السيدة كارستيرز. هل تعرف أحدًا بهذا الاسم هناك؟".

قال تومي: "لا أعرف أحدًا هناك، فأنا كنت أذهب لزيارة خالتي وحسب".

فقال اللواء: "هذه أمور صعبة. أعني أنك لا تعرف ما يتعين عليك قوله لهن".

قال تومي: "والخالة آدا تحديدًا كانت مشاكسة وصعبة المراس للغاية".

ضحك اللواء قائلًا: "بالتأكيد كانت كذلك. كان بإمكانها أن تتحول لقطة مشاكسة إذا أرادت ذلك عندما كانت فتاة".

ثم تنهد وأردف: "التقدم في السن أمر مريع. كانت إحدى صديقات أختي تراودها خيالات، وكانت تقول إنها قتلت شخصًا ما".

قال تومي: "يا إلهي، وهل هذا صحيح؟".

قال اللواء: "لا أعتقد هذا، وليس هناك من يعتقد أنها فعلت هذا"، ثم فكر في شيء للحظات، واستطرد قائلًا: "أعتقد أنها *ربما* فعلت هذا، لكن إذا أخذت تخبر الناس بأنك قتلت أحدًا وأنت مبتهج، فلن يصدقك أحد، أليس كذلك؟ هذه فكرة غريبة، ألا توافقني الرأي؟".

سأله تومي: "ومن الذي تزعم أنها قتلته؟".

قال اللواء: "لا أعرف. زوجها ربما؟ أنا لا أعرف زوجها ولا أعرف كيف يبدو؛ فقد كانت أرملة عندما تعرفنا عليها"، ثم تنهد قائلًا: "يؤسفني ما سمعتُ بشأن آدا. لم أقرأ الخبر في الجرائد، ولو كنت قرأته، لكنت أرسلت زهورًا أو شيئًا من هذا القبيل، هذا ما كانت الفتيات يعلقنه على فساتين السهرات التي

يرتدينها، بعض الزهور. كانت صيحة جميلة. أتذكر أن آدا كانت ترتدي ذات مساء فستان سهرة لونه بنفسجي أو ما بين البنفسج والأزرق، وكانت تعلق عليه أزهارًا وردية اللون، فأعطتني واحدة، ولم تكن زهرة طبيعية بالطبع، بل كانت صناعية، وقد احتفظت بها سنوات طويلة"، ثم أضاف وقد استحوذ على انتباه تومي بالكامل: "يضحك المرء عندما يتذكر هذه الأشياء. سأخبرك بشيء يا ولدي. عندما تطعن في السن *وتصير أبله* مثلي، فإنك تصير عاطفيًا مرة أخرى. حسنًا، أعتقد أنه من الأفضل الآن أن أجرجر قدمي وأعود إلى الفصل الأخير من هذه المسرحية السخيفة التي تسمى مؤتمرًا. بلغ تحياتي إلى توبينس عندما تعود إلى الديار".

في المطار صباح اليوم التالي، فكر تومي في هذه المحادثة، وابتسم لنفسه وهو يحاول مرة أخرى تخيل صورة خالته المهيبة واللواء العنيف في شبابيهما.

قال تومي لنفسه: "يجب أن أخبر توبينس بهذه القصة التي ستضحكها. ما الذي كانت تفعله توبينس في غيابي يا ترى؟".

ثم ابتسم لنفسه.

فتح ألبرت المخلص الباب الأمامي وعلى وجهه ابتسامة ترحاب مشرقة.

وقال: "تسرني عودتك، يا سيدي".

فقال تومي وهو يسلمه حقيبته: "أنا أيضًا تسرني عودتي. أين السيدة بيريسفورد؟".

قال ألبرت: "لم تعد بعد، يا سيدي".

قال تومي: "أتعني أنها مسافرة؟".

قال ألبرت: "لقد سافرت منذ ثلاثة أو أربعة أيام، لكنها ستعود على العشاء. هذا ما قالته بالأمس عندما اتصلت".

قال تومي: "وما الذي تفعله في سفرها؟".

أجاب ألبرت: "لا أعرف يا سيدي. لقد استقلت سيارتها، لكنها أخذت معها الكثير من أدلة القطارات أيضًا. يمكن أن تكون في أي مكان الآن".

قال تومي: "هذا صحيح. ربما هي الآن في بلدة جون أورجروتس، أو لاندز إند، وربما فاتها القطار في محطة ليتل ديثر في بلدة مارش في طريق عودتها. ليبارك الله خطوط السكك الحديدية البريطانية. أنت قلت إنها اتصلت بالأمس. هل ذكرت المكان الذي تتصل منه؟".

قال ألبرت: "لا".

سأله تومي: "ما الوقت الذي اتصلت فيه بالأمس؟".

أجاب ألبرت: "صباح الأمس، قبل الغداء. قالت إن كل شيء على ما يرام، وإنها ليست متأكدة من وقت عودتها للمنزل، لكنها تعتقد أنها ستعود قبل العشاء، واقترحت تناول دجاج على العشاء. هل يناسبك هذا، يا سيدي؟".

قال تومي: "أجل"، ثم نظر إلى ساعته، واستطرد: "لكنها يجب أن تسرع بالمجيء الآن".

قال ألبرت: "سأذهب للإمساك بإحدى الدجاجات".

قال تومي مازحًا: "حسنًا. أمسكها من الذيل. كيف حالك يا ألبرت؟ أكل شيء على ما يرام في بيتك؟".

رد ألبـرت: "كنـا نخشى أننـا مصابون بالحصبـة، لكن حمدًا لله؛ فقد قال الطبيب إنها مجرد طفح جلدي".

قـال تومـي: "هذا خبـر جيد". ثـم صعد لأعلى وهـو يصفر، وذهـب إلـى الحمـام وحلـق ذقنـه واغتسل، ثـم دخل غرفـة النوم ونظـر فـي أنحائها؛ فوجدهـا تكتسي بمظهر الخـواء الذي تبدو عليـه غـرف النـوم عندما يبتعـد عنهـا شاغلوها لبعض الوقت. كانـت أجواؤهـا بـاردة وغيـر وديـة، وكان كل شيء مرتبًـا ونظيفًا تمامًـا؛ فانتـاب تومي الاكتئـاب الذي ينتاب الكلـب المخلص؛ إذ لـم يكن هناك أثـر لأفعال توبينس؛ فلا توجـد مساحيق تجميل مسكوبة، ولا كتب مفتوحة ومقلوبة على وجهها.

"سيدي"

قالها ألبرت وهو يقف عند الباب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال تومي: "ماذا؟".

قال ألبرت: "لقد بدأت أقلق بشأن الدجاجة".

قال تومي: "الدجاجة اللعينة. يبدو أنها تثير أعصابك".

قـال ألبـرت: "لقـد استعـددت بحيـث أنكمـا ستجلسـان علـى مائدة العشاء الساعة الثامنة كحد أقصى".

قـال تومي: "أنـا أيضًا اعتقدت هذا"، ثم نظر إلى ساعة يده، واستطرد: "يا إلهي، إنها الثامنة وخمس وثلاثون دقيقة".

قال ألبرت: "أجل، يا سيدي. والدجاجة ...".

قـال تومـي: "بربـك يـا ألبـرت. أخـرج الدجاجة مـن الفرن، وسنأكلهـا أنـا وأنـت. إن تأخُـر توبينس على العشاء هـو خطؤها، ويجب أن تتحمله".

قال ألبرت: "يتناول بعض الناس العشاء في وقت متأخر. لقد ذهبت إلى إسبانيا ذات مرة، ووجدت أنهم لا يتناولون العشاء قبل العاشرة. العاشرة مساءً. يا إلهي!".

قال تومي وهو شارد الذهن: "حسنًا. بالمناسبة، هل عندك فكرة عن المكان الذي مكثت فيه كل هذا الوقت؟".

أجاب ألبرت: "أتعني السيدة توبينس؟ لا أعرف، يا سيدي. أعتقد أنها انطلقت إلى أماكن عديدة. كانت فكرتها الأولى هي الذهاب إلى أماكن بالقطار على حسب ما استنتجته؛ حيث كانت تبحث في قوائم وجداول مواعيد قطارات وأشياء من هذه القبيل".

قال تومي: "حسنًا، نحن جميعًا لدينا طريقتنا في الترفيه عن النفس، ويبدو أن طريقتها هي السفر بالقطارات، لكني أتساءل أين هي الآن. ربما هي تجلس الآن في غرفة انتظار السيدات في محطة ليتل ديثر ببلدة مارش".

قال ألبرت: "إنها تعرف أنك قادم اليوم، أليس كذلك يا سيدي؟ إنها ستصل بطريقة ما. بالتأكيد ستفعل ذلك".

أدرك تومي أن ألبرت يقدم له ضمنيًا ولاءه الكامل، وقد تشارك الاثنان الإحساس بعدم رضاهما عن توبينس التي في خضم افتتانها بالقطارات، تجاهلت العودة إلى المنزل في الوقت المناسب للترحيب بزوجها كما يليق.

غادر ألبرت ليُخرج الدجاجة من الفرن كي ينقذها من الاحتراق.

كان تومي على وشك أن يتبعه، لكنه توقف وتطلع نحو رف المدفأة، ثم مشى ببطء نحوه، ونظر إلى اللوحة المعلقة أعلاه.

من الغريب أن توبينس كانت متأكدة من أنها رأت ذلك المنزل بالتحديد من قبل، في حين كان تومي يشعر بشكل مؤكد بأنه لم يره. على أية حال، كان منزلًا عاديًا تمامًا، ولا بد أن هناك الكثير من المنازل التي تشبهه.

اقترب تومي من اللوحة قدر الإمكان، لكنه كان لم يزل غير قادر على رؤيتها بشكل جيد؛ فأنزلها من مكانها، وقربها من مصباح كهربائي، ليرى منزلًا هادئًا لطيفًا، وكذلك توقيع الفنان الذي رسمه. كان اسم الفنان يبدأ بحرب الباء، لكن بقية الاسم غير واضحة. ربما بوسورث، أو بوتشير. فكر في جلب المرآة المعظمة ورؤية الاسم بشكل أوضح، لكنه سمع صوت جرس جميل قادم من الصالة. كان ألبرت معجبًا للغاية بالأجراس السويسرية التي جلبها تومي وتوبينس من قرية جريندلفالد بسويسرا، وكان يعجبهما استخدام ألبرت لهذه الأجراس كوسيلة لإعلامهما بأن الطعام جاهز. كان العشاء جاهزًا، فذهب تومي إلى غرفة الطعام وفكر في عدم وصول توبينس إلى الآن. فحتى لو ثُقب أحد إطارات السيارة، وهو ما يبدو محتملًا، كانت ستتصل لتعتذر عن التأخير وتشرح السبب.

قال تومي لنفسه: "حري بها أن تعرف أنني سأقلق". بيد أنه كان لا يقلق بشأن توبينس أبدًا؛ لأنها كانت تتدبر أمورها بشكل جيد، لكن ألبرت قلب تفكيره عندما قال وهو يقدم له طبقًا من سلطة الكرنب ويهز رأسه عابسًا: "أتمنى ألا تكون قد تعرضت لحادث".

قال تومي: "ارفع هذا الطبق. أنت تعرف أنني أكره الكرنب. ما الذي يجعلك تظن أنها تعرضت لحادث؟ إن الساعة التاسعة

ونصف فقط".

قال ألبرت: "القيادة على الطرق خطرة للغاية هذه الأيام، ويمكن لأي شخص التعرض لحادث".

رن الهاتف، فقالت ألبرت: "إنها المتصلة"، ثم وضع طبق سلطة الكرنب على البوفيه في عجالة، وخرج مسرعًا من الغرفة، ونهض تومي، وترك طبق الدجاج، وتبع ألبرت، وهو يقول: "سأرد أنا"، لكن ألبرت كان قد رد على الهاتف.

قال ألبرت: "من أنت، يا سيدي؟ أجل، السيد بيريسفورد في المنزل الآن"، ثم التفت إلى تومي وقال: "الدكتور موراي يسأل عنك، يا سيدي".

تساءل تومي للحظات: "الدكتور موراي؟". إن الاسم يبدو مألوفًا، لكن ظل للحظات غير قادر على تذكر من هو الدكتور موراي. فكر في أنه ربما يكون الاتصال بسبب تعرض توبينس لحادث، لكنه تنهد في ارتياح عندما تذكر أن الدكتور موراي هو الطبيب الذي يعتني بالمسنات في دار قمة الجبل المشمسة. ربما للاتصال علاقة بأوراق دفن الخالة آدا. ربما هناك أوراق كان يجب على تومي أو دكتور موراي توقيعها.

قال تومي: "مرحبًا، معك بيريسفورد".

قال دكتور موراي: "أنا سعيد لأني وجدتك. أرجو أن تكون قد تذكرتني. أنا الطبيب الذي كان يعتني بخالتك، السيدة فانشاو".

قال تومي: "بالطبع أتذكرك. ما الذي يمكنني فعله لك؟".

قال دكتور موراي: "إنني أود التحدث إليك. هل بإمكاننا أن

نتقابل في المدينة في أحد الأيام؟".

قال تومي: "لا بأس في هذا. لكن ... أهذا شيء لا يمكننا التحدث فيه عبر الهاتف؟".

قال دكتور موراي: "أفضل عدم التحدث فيه عبر الهاتف. إن الأمر ليس عاجلًا، لكني أود التحدث معك".

سأله تومي: "أهناك خطب ما؟". تعجب تومي من طرحه هذا السؤال؛ إذ ما الذي يستدعي حدوث خطب ما.

قال دكتور موراي: "لست متأكدًا. ربما أنا أهوِّل المسألة. لكن هناك تطورات غريبة للأحداث في دار المسنات".

سأله تومي: "ألهذا الأمر علاقة بالسيدة لانكستر؟".

اندهش الطبيب من السؤال وأجاب: "السيدة لانكستر؟ لا، لقد رحلتْ عن الدار منذ مدة قبل وفاة خالتك. هذا موضوع مختلف تمامًا".

قال تومي: "لقد كنت مسافرًا، وعدتُ من فوري إلى المنزل. سأتصل بك صباح الغد لتحديد موعد".

قال دكتور موراي: "حسنًا، سأعطيك رقمي. سأكون في عيادتي حتى العاشرة صباحًا".

سأل ألبرت تومي عندما عاد إلى غرفة الطعام: "أخبار سيئة؟".

فقال تومي بغضب: "كفاك تشاؤمًا بحق السماء، يا ألبرت. لا، ليست أخبارًا سيئة".

قال ألبرت: "لقد اعتقدت أن السيدة ربما ..."

قال تومي: "إنها على ما يرام، وهي دائمًا كذلك. ربما ذهبت تقتفي أثر قطة برية أو شيء من هذا قبيل. أنت تعرف أنها تحب هذه الأمور؛ لذا سأتوقف عن القلق عليها. خذ طبق الدجاج هذا، فلقد أبقيتَه ساخنًا في الفرن إلى أن صار غير صالح للأكل. اجلب لي بعض القهوة، ثم سأذهب إلى السرير".

قال ألبرت: "ربما يرد منها خطاب قد تأخر في البريد. أنت تعرف حال مكاتب البريد لدينا، أو ربما ترد منها برقية، أو ربما تتصل بنا".

غير أنه في اليوم التالي، لم يرد منها اتصال ولا خطاب ولا برقية.

نظر ألبرت إلى تومي، وفتح فمه وأغلقه عدة مرات دون أن يتحدث، متوقعًا أن تومي لن يرحب بأية توقعات كئيبة منه.

أخيرًا أشفق تومي على ألبرت من الصمت، وابتلع آخر قطعة من الخبز المحمص وعليه مربى البرتقال، وأتبع ذلك برشفة قهوة، وقال: "حسنًا، يا ألبرت. سأقولها أنا أولًا. *أين هي؟* ما الذي حدث لها؟ وماذا سنفعل حيال هذا؟".

قال ألبرت: "اذهب إلى الشرطة يا سيدي".

قال تومي: "لست متأكدًا من هذه الخطوة".

قال ألبرت: "لو كانت قد تعرضت لحادث ...."

قاطعه تومي: "إن رخصة قيادتها وأوراقًا أخرى تثبت هويتها، والمستشفيات تبلغ الأقارب سريعًا حال وقوع حادث. أنا لا أريد أخذ خطوة متسرعة ربما لا تريدها توبينس. أليس لديك أية فكرة على الإطلاق عن المكان الذي ذهبتْ إليه يا ألبرت؟ ألم

تقل شيئًا؟ ألم تذكر مكانًا معينًا أو اسمًا ما؟".

هز ألبرت رأسه.

سأله تومي: "كيف كان شعورها؟ سعيدة؟ متحمسة؟ حزينة؟ قلقة؟".

فجاء رد ألبرت سريعًا: "كانت متحمسة، بل وتتفجر حماسًا".

قال تومي: "مثل كلب صيد يتعقب فريسة".

قال ألبرت: "هذا صحيح، يا سيدي. أنت تعرف كيف تشعر السيدة توبينس عندما ..."

قال تومي: "عندما تتبع شيئًا ما... الآن أنا أتساءل..." توقف تومي وأخذ يفكر في أشياء.

لقد حدث شيء ما، وبناء عليه، وكما قال تومي لألبرت، بدأت توبينس تتبع الأمر مثلما يتتبع كلب الصيد رائحة فرائسه. لقد اتصلتْ منذ يومين لتقول إنها ستعود، فلماذا لم تعد؟ فكر تومي في أنها ربما جالسة الآن في مكان ما ومنهمكة في إخبار الناس بأكاذيب لدرجة أنها لا تستطيع التفكير في أي شيء آخر!

لو كانت توبينس منهمكة في سعيها، فإنها ستغضب بشدة لو أسرع تومي كالحمل الخائف إلى الشرطة وأخبرهم بأن زوجته اختفت. تخيل تومي توبينس وهي تقول له حينها 'كيف تتصرف بهذه الحماقة! يمكنني الاعتناء بنفسي *تمامًا*. لا بد أن تكون قد عرفت هذا بعد كل هذا الوقت!' (لكن هل يمكنها الاعتناء بنفسها؟).

لكن لا يسع تومي أن يعرف بشكل مؤكد إلى أين قد يأخذها خيالها.

هل سيأخذها إلى خطر *ما*؟ حتى الآن لا توجد أية أدلة على وجود خطر إلا في خيال توبينس.

لو ذهب تومي إلى الشرطة، وقال إن زوجته لم تعد إلى المنزل بعدما قالت إنها عائدة في اليوم التالي، لسخر رجال الشرطة في داخلهم منه، وسألوه بلباقة عن أصدقاء زوجته الرجال!

قال تومي لألبرت: "سأجدها بنفسي. إنها في *مكان ما*، فليس لديّ فكرة ما إذا كانت في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب، وهي حمقاء؛ لأنها لم تذكر مكانها عندما اتصلتْ".

قال ألبرت: "ربما اختطفتها عصابة ما".

قال تومي: "أوه، انضج يا ألبرت؛ فلقد كبرتَ على أن تصدّق هذه الأشياء!".

سأله ألبرت: "ماذا ستفعل، يا سيدي؟".

نظر تومي إلى ساعته، وقال: "سأذهب إلى لندن. أولًا، سأتناول الغداء في النادي مع دكتور موراي الذي اتصل بي بالأمس، ولديه ما يقوله بشأن خالتي المتوفاة. ربما أستفيد منه في بحثي عن توبينس؛ فعلى أية حال، لقد بدأ الأمر في دار المسنات، كما سآخذ معي تلك اللوحة المعلقة فوق مدفأة غرفة نومنا".

قال ألبرت: "أتعني ستأخذها إلى الشرطة؟".

قال تومي: "لا، سآخذها إلى شارع بوند".

الفصل الحادي عشر

شارع بوند، ودكتور موراي

ترجَّل تومي من سيارة الأجرة، ودفع الأجرة للسائق، ثم انحنى ليأخذ اللوحة المغلفة بطريقة خرقاء، وقد حاول وضع اللوحة المغلفة تحت ذراعه قدر الإمكان، ودخل ما يسمى بالمعرض الأثيني الجديد، وهو من أعرق وأهم معارض اللوحات في لندن.

لم يكن تومي شغوفًا بالفن إلى حد كبير، لكنه جاء إلى المعرض لمقابلة صديق له من أحد المشتغلين الذين يكسبون قوتهم من العمل بهذا المكان.

"يكسب قوته" هي مقولة كلاسيكية تليق بكل ما يوحي به المكان من رقي، بما في ذلك الاهتمام المتعاطف، والتحدث همسًا، والابتسامات الجميلة.

أقبل على تومي شاب أشقر الشعر، وكان وجهه يضيء بابتسامة تقدير.

وقال: "مرحبًا، يا تومي. لم أرك منذ فترة طويلة. ما الذي تحت ذراعك؟ لا تقل لي إنك بدأت ترسم لوحات في سنك المتقدمة؟ الكثير من الناس يفعلون هذا، وعادة ما تكون النتائج مؤسفة".

قال تومي: "أشك في أن الفن الإبداعي كان في دائرة اهتماماتي يومًا ما، لكن يجب أن أعترف بأنني وجدت نفسي منجذبًا بقوة منذ بضعة أيام إلى كتاب صغير يشرح بأبسط طريقة ممكنة كيف يمكن لطفل في الخامسة من عمره أن يرسم باستخدام الألوان المائية".

قال الرجل: "فليساعدنا الله إذا كنت تنوي فعل ذلك".

قال تومي: "الحقيقة يا روبرت أنني جئت هنا فقط لأستعين بمعرفتك باللوحات. أريد رأيك في هذه اللوحة".

أخذ روبرت اللوحة من تومي بعناية، وقام بإزالة التغليف الأخرق من عليها بمهارة، وبحنكة رجل معتاد فك أغلفة الطرود التي تحوي أعمالًا فنية من جميع المقاسات، ثم أخذ اللوحة ووضعها على كرسي، وحدق إليها مليًا، ثم تراجع خمس أو ست خطوات إلى الوراء.

ثم التفت إلى تومي، وسأله: "حسنًا، ماذا عن هذه اللوحة؟ ماذا تريد أن تعرف عنها؟ أتريد بيعها؟ أهذا ما في الأمر؟".

قال تومي: "لا، لا أريد بيعها يا روبرت. أريد معرفة معلومات عنها. أولًا، أريد معرفة من رسمها".

قال روبرت: "في الواقع، إذا أردتَ بيعها، فسيكون هذا سهلًا للغاية هذه الأيام، ولكن هذا كان صعبًا منذ عشرة أعوام، لكن أعمال بوسكوان صارت صيحة مرة أخرى".

سأله تومي: "بوسكوان؟ هل هذا اسم الرسام؟ لقد رأيت التوقيع يبدأ بحرف الباء، لكني لم أستطع قراءة الاسم".

قال روبرت: "أجل، اسمه بوسكوان. كان فنانًا شهيرًا منذ

خمسة وعشرين عامًا، وكانت مبيعات لوحاته جيدة، وأقيم لها الكثير من المعارض. كان فنانًا جيدًا من الناحية التقنية، لكن كالمعتاد، دارت عجلة الزمن، ولم تعد أعماله تتوافق مع الصيحة الرائجة، إلى أن صار الطلب على أعماله منعدمًا تقريبًا، لكن مؤخرًا عادت أعماله للرواج مرة أخرى ومعها أعمال ستيتشوورت، وفونديلا.

كرر تومي الاسم قائلًا: "بوسكوان".

فقال روبرت بلطف: "ب .. و .. س.. ك .. و .. ا .. ن".

سأله تومي: "هل لا يزال يرسم؟".

أجابه روبرت: "لا، لقد مات وهو في سن كبيرة؛ حيث كان يبلغ الخامسة والستين على ما أعتقد. كان رسامًا مرموقًا، وله الكثير من اللوحات، ونحن في الواقع نفكر في إقامة معرض له في غضون أربعة أو خمسة أشهر، وأعتقد أننا سنشهد إقبالًا كبيرًا عليه. ما سبب اهتمامك بهذا الفنان؟".

قال تومي: "إنها قصة يطول شرحها. يومًا ما سأصحبك لتناول الغداء، وسأحكي لك الوقائع من البداية. إنها قصة طويلة معقدة، وحمقاء بعض الشيء. ما أريد معرفته هو كل شيء عن بوسكوان، وما إذا كنت تعرف مكان المنزل المرسوم في اللوحة".

قال روبرت: "لا أعرف مكان المنزل؛ فقد كان معتادًا رسم هذه الأشياء. عادة ما تكون رسوماته عن منازل ريفية صغيرة في مناطق معزولة إلى حد ما، وأحيانًا مزرعة، وأحيانًا تحيط بها بقرة أو اثنتان. في بعض الأحيان يرسم عربة مزرعة من على مسافة بعيدة، مشاهد ريفية هادئة. لا شيء سطحي أو فوضوي،

فقد كان أسلوبه مميزًا وقد أحبه الناس. كثير من الأشياء التي رسمها كانت في فرنسا، نورماندي في الغالب، وكانت لدور عبادة، ولديَّ لوحة له هنا الآن. انتظر دقيقة وسأحضرها لك".

ثم ذهب إلى رأس الدرج، ونادى شخصًا بالأسفل، ثم عاد بعد وقت قصير ومعه لوحة صغيرة وضعها على مقعد آخر.

ثم قال: "ها هي اللوحة. دار عبادة في نورماندي".

قال تومي: "أجل، إنه النمط نفسه. تقول زوجتي عن المنزل في اللوحة التي أحضرتها معي إنه لا يعيش فيه أحد. الآن أفهم ما كانت تعنيه؛ فمنظر دار العبادة هذا يوحي بأن لا أحد يرتادها ولن يرتادها أحد".

قال روبرت: "ربما شعرت زوجتك بشيء ما، وهو هدوء وسكينة المساكن من دون البشر. لم يكن بوسكوان يرسم بشرًا في كثير من الأحيان، لكنه كان أحيانًا يرسم شخصًا أو اثنين وسط مناظر طبيعية، لكنه في الغالب كان لا يفعل هذا. أعتقد أن هذا الإحساس بالانعزال هو ما يمد أعماله بجاذبية خاصة؛ حيث يبدو وكأنه محا كل البشر، ومن دونهم عم السلام أنحاء الريف. عندما أتدبر أعماله، أعتقد أن هذا هو الحس العام الذي تنقله. اليوم يكثر الناس وتكثر السيارات على الطريق وتكثر الضوضاء والجلبة. لنعد إلى الطبيعة حيث السكينة، السكينة التامة".

قال تومي: "أجل، أتفهم هذا. أي طراز من الرجال كان بوسكوان؟".

قال روبرت: "لا أعرفه شخصيًا؛ فأنا لم أعاصره. يقال إنه كان معتدًا بنفسه، وكان يرى نفسه فنانًا أفضل مما هو عليه في

الحقيقة، لكنه كان لطيفًا ومحبوبًا، كما كان مولعًا بالفتيات".

سأله تومي: "أليست لديك أية فكرة عن مكان هذا الجزء من الريف؟ إنه في إنجلترا على ما أظن".

قال روبرت: "أعتقد هذا. أجل. هل تريد مني أن أعرف المكان لك؟".

قال تومي: "أيمكنك ذلك؟".

قال روبرت: "ربما أفضل شيء هو أن تسأل زوجته، أو أرملته بالأحرى، إيما وينج، وهي نحاتة شهيرة، ليست غزيرة الإنتاج، لكن أعمالها عظيمة، وهي تعيش في حي هامبستيد بلندن. يمكنني أن أعطيك العنوان؛ فقد كنا نتراسل معها كثيرًا مؤخرًا بشأن المعرض الذي سنقيمه لأعمال زوجها، كما أننا سنعرض بعضًا من منحوتاتها الصغيرة. سأجلب لك العنوان".

ثم ذهب إلى المكتب، وبحث في سجل، وكتب شيئًا على بطاقة ورقية، ثم عاد، وقدمها إلى تومي.

وقال: "تفضل يا تومي. لا أعرف ما اللغز العميق الرهيب الذي تستكشفه؛ فأنت دائمًا رجل ألغاز، أليس كذلك؟. إن اللوحة التي أحضرتها من الأعمال الجيدة لبوسكوان. ربما نود وضعها في المعرض. سأرسل إليك خطابًا لتذكيرك بالمعرض عند اقتراب موعده".

سأله تومي: "ألا تعرف امرأة تسمى السيدة لانكستر؟".

قال روبرت: "لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم. هل كانت فنانة أو شيئًا من هذا القبيل؟".

قال تومي: "لا، لا أعتقد هذا. إنها امرأة عجوز كانت تعيش في دار مسنات في السنوات القليلة الماضية، وعلاقتها بالموضوع أن هذه اللوحة كانت ملكًا لها وأعطتها لخالتي".

قال روبرت: "لا يمكنني القول إنني أتذكر أحدًا بهذا الاسم. من الأفضل أن تذهب وتتحدث مع السيدة بوسكوان".

سأله تومي: "هلا تصفها لي؟".

قال روبرت: "هي تصغر زوجها بعدة سنوات، وتمتلك شخصية مميزة"، ثم أومأ برأسه مرة أو اثنتين، وأردف: "أجل، شخصية مميزة، وأعتقد أنك سترى هذا عندما تقابلها".

ثم أخذ الصورة، وذهب بها إلى رأس الدرج، وأعطى تعليمات لشخص بالأسفل بأن يعيدها إلى مكانها.

قال تومي: "من اللطيف أن يكون لديك الكثير من العاملين رهن إشارتك".

ثم التفت حوله ليلاحظ المكان للمرة الأولى.

وقال في نفور: "ما هذا؟".

قال روبرت: "هذه أحد أعمال شاب أوروبي مثير للانتباه اسمه بول جاجروسكي. يقال إنه رسم كل أعماله وهو تحت تأثير المخدرات. أتعجبك اللوحة؟".

حملق تومي إلى اللوحة القماشية فوجد أنها عبارة عن حقل من النباتات ذات اللون الأخضر اللامع، ويمتلئ بالأبقار المشوهة.

قال تومي: "بصراحة لا".

نادى روبرت: "فلستين، اذهب واجلب لنا الغداء".

قال تومي: "لا أستطيع؛ فلديَّ موعد مع طبيب في النادي".

سأله روبرت: "هل أنت مريض؟".

أجاب تومي: "أنا في أفضل صحة. إن ضغط دمي جيد للغاية لدرجة أن كل طبيب أذهب إليه يصاب بخيبة أمل".

قال روبرت: "فلماذا إذن تريد مقابلة طبيب؟".

قال تومي بابتهاج: "أنا ذاهب فقط لرؤية طبيب بشأن شخص آخر. شكرًا على مساعدتك. إلى اللقاء".

حيا تومي دكتور موراي وهو ينتابه الفضول؛ حيث كان يعتقد أن الأمر متعلق بالإجراءات الرسمية لوفاة الخالة آدا، لكن لماذا، بحق السماء، لم يذكر أي شيء على الأقل عن الموضوع في المكالمة الهاتفية؟ لم يستطع تومي تخيل السبب.

قال دكتور موراي وهو يصافح يده: "أعتذر عن تأخري قليلاً، لكن المرور كان مزدحمًا للغاية، ولم أكن متأكدًا تمامًا من المكان. فأنا لا أعرف هذه المنطقة من لندن جيدًا".

قال تومي: "من المؤسف أنك اضطررت إلى قطع كل هذه المسافة إلى هنا. كان بإمكاني مقابلتك في مكان آخر أكثر ملاءمة".

سأله دكتور موراي: "هل لديك متسع من الوقت الآن؟".

قال تومي: "أجل، في الوقت الحالي. لقد كنت مسافرًا الأسبوع الماضي".

قال دكتور موراي: "أجل، أعتقد أن شخصًا أخبرني بهذا عندما اتصلت بمنزلك".

أشار تومي إلى دكتور موراي بالجلوس، واقترح عليه تناول شراب، وعرض عليه سيجارة. عندما استقر الرجلان في مقعديهما بأريحية، بدأ دكتور موراي المحادثة.

وقال: "أنا متأكد أنني أثرت فضولك، لكننا في حقيقة الأمر لدينا مشكلات في دار قمة الجبل المشمسة. الأمر صعب ومربك، ولا شأن لك به، لكنك ربما تعرف شيئًا قد يساعدني".

قال تومي: "بالطبع. سأفعل كل ما بوسعي. أهذا شيء متعلق بخالتي السيدة فانشاو؟".

قال دكتور موراي: "ليس بشكل مباشر، لكن بطريقة ما. بإمكاني ائتمانك على أسرار، أليس كذلك، يا سيد بيريسفورد؟".

قال تومي: "بالطبع يمكنك ذلك".

قال دكتور موراي: "في حقيقة الأمر، كنت أتحدث منذ بضعة أيام مع صديق مشترك بيننا، وأخبرني بعدة أشياء عنك، منها أنك قمت بمهمة حساسة في الحرب الأخيرة".

قال تومي بأسلوب مراوغ: "أوه، لم أكن لأصف المهمة بهذا الوصف الجاد للغاية".

قال دكتور موراي: "أوه، أنا أدرك أن هذا شيء لا ينبغي الحديث عنه".

قال تومي: "أنا لا أظن أن الحديث عنه مهم في هذه الأيام؛ فلقد انتهت الحرب منذ أمد بعيد، وكنت أنا وزوجتي في العمل حينذاك".

قال دكتور موراي: "على أية حال، ليس لهذا علاقة بما أريد التحدث إليك بشأنه، لكن على الأقل أشعر بأن بإمكاني التحدث

إليك بصراحة وأنا أثق بأنك لن تفشي ما سأقوله، وإن كان من المحتمل أن نلجأ إلى إعلان الأمر لاحقًا".

سأله تومي: "أنت قلت إن هناك مشكلات في دار المسنات، أليس كذلك؟".

قال دكتور موراي: "بلى، لقد ماتت إحدى المريضات لدينا، واسمها السيدة مودي. لا أعرف ما إذا كنتَ قد قابلتها من قبل، أو ما إذا كانت خالتك قد تحدثت عنها".

قال تومي متفكرًا: "السيدة مودي؟ لا، لا أعتقد هذا، حسبما أتذكر على الأقل".

قال دكتور موراي: "لم تكن أكبر المريضات سنًّا، ولم تكن قد بلغت السبعين من العمر بعد، ولم تكن بها علة جسدية خطيرة، لكنها كانت امرأة دون أقارب مقربين، ولا أحد يعتني بها من عائلتها، وهي تنتمي إلى الفئة التي أطلق عليها فئة المشاغبات، وهي تضم النساء اللائي يشبهن الدجاج عندما يكبرن في السن؛ فيصحن مثل الدجاج، وينسين أشياء، ويقحمن أنفسهن في مشكلات ثم يقلقن بشأن العواقب، وينفعلن من لا شيء، لكن ليس هناك خطب بهن وعقولهن ليست مختلة بالمعنى الدقيق".

قال تومي: "لكنهن يصحن وحسب".

قال دكتور موراي: "هذا صحيح. كانت السيدة مودي تصيح كالدجاج. كانت تسبب للممرضات الكثير من المتاعب، ومع ذلك كن مغرمات بها، وعادة ما كانت تنسى أنها تناولت طعامها؛ فكانت تُحدث جلبة؛ لأنه لم يُقدم لها الطعام، في حين أنها تكون قد فرغت من فورها من تناول وجبة جيدة".

قال تومي وقد انفرجت أساريره: "أوه، تقصد السيدة كاكاو؟".

قال دكتور موراي: "أستميحك عذرًا؟".

قال تومي: "معذرة، فهذا اسم أطلقته أنا وزوجتي عليها. كانت تنادي الممرضة جين في أحد الأيام بينما كنا نعبر الممر، وتقول إنها لم تحتس الكاكاو الخاص بها. كانت امرأة صغيرة الحجم مشاكسة، لكن تبدو ملامحها لطيفة، وقد أضحك تصرفها كلينا؛ ومن ثم اعتدنا تسميتها بالسيدة كاكاو. إذن أنت تقول إنها ماتت".

قال دكتور موراي: "أنا لا أندهش عمومًا من حدوث وفاة؛ فمن المستحيل عمليًا توقع وفاة إحدى المسنات. إن هناك نساء مصابات بأمراض خطيرة، فيظن الطبيب من واقع الفحص الطبي أنهن لن يعشن لأكثر من عام، لكن أحيانًا تعيش هؤلاء النساء لعشر سنوات أخرى. إنهن يتشبثن بالحياة بقبضة قوية لا يتمكن الاعتلال الجسدي من فكها، وهناك نساء أخريات يتمتعن بصحة جيدة بشكل معقول؛ ما يدفع الطبيب للاعتقاد بأنهن سيعشن طويلًا، غير أنهن يصبن بالتهاب الشعب الهوائية أو الإنفلونزا، ويبدو عليهن أنهن لا يمتلكن القدرة على مقاومة هذا المرض، ويمتن على أثره بسهولة مذهلة. كما قلت، إنني كطبيب لنزيلات بدار مسنات لا أندهش عند حدوث وفاة كنت أراها غير متوقعة إلى حد ما، غير أن حالة السيدة مودي كانت مختلفة؛ فقد ماتت في أثناء نومها دون أن يظهر عليها أية علامة لمرض، ولا أستطيع منع نفسي من الشعور بأن موتها كان غير متوقع. سأستخدم تلك العبارة التي دائمًا ما حيرتني

في مسرحية *ماكبث* لشكسبير. لقد تساءلت دائمًا ما الذي كان يعنيه ماكبث عندما قال عن زوجته "كان يجب أن تموت فيما بعد".

قال تومي: "أجل، أتذكر أنني كنت أسأل نفسي ذات مرة ما يعنيه شكسبير بهذا. لقد نسيتُ من هو مخرج العرض الذي حضرته، والممثل الذي لعب دور ماكبث، لكن كان هناك إيحاء قوي في هذه النسخة المعروضة تحديدًا، وقد لعب الممثل دور ماكبث بطريقة توحي بأنه كان يلمح للطبيب بأنه من الأفضل أن تُزاح السيدة ماكبث عن الطريق، وعندما شعر ماكبث بالأمان بعد وفاة زوجته وأحس بأنه لم يعد بإمكانها أن تضره بسبب طيشها أو التدهور السريع لحالتها الذهنية، فقد عبر عن حزنه الصادق على وفاتها، قائلًا "كان يجب أن تموت فيما بعد"".

قال دكتور موراي: "هذا بالضبط ما شعرتُ به إزاء السيدة مودي. أنا أشعر بأنه كان يجب أن تموت فيما بعد، وليس قبل ثلاثة أسابيع دون أسباب واضحة".

لم يرد تومي، بل نظر إلى الطبيب متسائلًا.

استطرد دكتور موراي قائلًا: "يواجه الأطباء مشكلة معينة، وهي أنه إذا لم يكن الطبيب متأكدًا من سبب وفاة المريض، فليس أمامه سوى طريقة واحدة للتأكد، وهي التشريح، لكن أقارب المتوفى لا يرحبون بهذه الخطوة، غير أنه إذا طلب الطبيب تشريح الجثة واتضح ـ وهذا محتمل جدًا ـ أن المريض توفي لأسباب طبيعية أو بسبب مرض ليست له علامات أو أعراض ظاهرية، فإن الحياة المهنية للطبيب تتأثر بقوة لأنه أخطأ في التشخيص".

قال تومي: "أتفهم صعوبة هذا".

قال دكتور موراي: "أقارب السيدة مودي هم أبناء عمومة بعيدون، وقد سعيتُ للحصول على موافقتهم بدعوى أن لديَّ اهتمامًا طبيًا بمعرفة سبب الوفاة. عندما يموت مريض في أثناء نومه، فمن المستحسن أن يضيف الطبيب السبب إلى معرفته الطبية. وقد أرسلت لأقاربها من أجل الحصول على الإذن، ولم أجعل الأمر رسميًا للغاية، ومن حسن الحظ أنهم وافقوا بسهولة لأنهم لم يكونوا يكترثون كثيرًا لأمر مودي، وشعرتُ بارتياح لذلك. ورأيتُ أنه إذا تم تشريح الجثة، واتضح أن كل شيء على ما يرام، يمكنني أن أصدر شهادة وفاة دون مشكلات؛ إذ يمكن لأي شخص أن يموت بما يطلق عليه غير المتخصصين سكتة قلبية، والتي تنتج عن أسباب عديدة مختلفة، لكن قلب السيدة مودي كان في الواقع في حالة جيدة للغاية بالنسبة إلى سنها. كانت تعاني الروماتيزم والتهاب المفاصل، ومشكلات في الكبد بين حين وآخر، لكن لا يبدو أن أيًا من هذه الأشياء قد يؤدي إلى وفاتها وهي نائمة".

توقف دكتور موراي عن الكلام، ففتح تومي فمه وأغلقه مرة أخرى دون أن يتحدث. فأومأ دكتور موراي وأكمل قائلًا: "أجل، يا سيد بيريسفورد. أنت تعلم ما أعنيه. لقد نتجت الوفاة عن جرعة زائدة من المورفين".

اتسعت حدقتا عيني تومي، وقال دون وعي: "يا إلهي!".

قال دكتور موراي: "أجل. هذا يبدو عصيًا على التصديق، لكن لا مفر من الحقائق التي يظهرها التحليل. السؤال هنا هو: كيف تعاطت السيدة مودي المورفين؟ إن المورفين لم يوصف

لها كمريضة؛ لأنها لم تكن تعاني آلامًا شديدة، ومن ثم فهناك ثلاثة احتمالات: ربما تعاطت السيدة مودي المورفين عن طريق الخطأ، وهذا مستبعد، أو ربما تكون قد تناولت الدواء الخاص بمريضة أخرى عن طريق الخطأ، لكن هذا أيضًا غير محتمل؛ لأن المريضات لا يُترك معهن أية كميات من المورفين، كما أننا لا نقبل في الدار مدمنات العقاقير اللاتي قد يخفين مثل هذه الأشياء بحوزتهن. ربما تكون قد تعاطته عمدًا بغرض الانتحار، لكني أجد صعوبة في تقبل هذا؛ فبرغم أن السيدة مودي كانت تقلق كثيرًا، لكنها كانت شخصية مرحة للغاية، وأنا متأكد أنها لم تفكر في إنهاء حياتها، والاحتمال الثالث هو أن هناك من أعطاها جرعة قاتلة من المورفين عمدًا. لكن من فعل هذا، ولماذا؟ في الطبيعي يحق للسيدة باكارد، باعتبارها مديرة الدار وممرضة مرخصة، حيازة كميات من المورفين وعقاقير أخرى، والتي تحتفظ بها في دولاب محكم الغلق، ففي حالات مثل عرق النسا والتهاب المفاصل، قد تشعر المريضة بآلام شديدة حادة، وهنا قد يُسمح أحيانًا بتعاطي المورفين. وقد تمنينا أنه ربما نجد ظروفًا أُعطيت فيها السيدة مودي كمية خطيرة من المورفين أو تعاطته هي عن طريق الخطأ ظنًّا منها أنه علاج لعسر الهضم أو الأرق، لكننا لم نجد ظروفًا يُحتمل أن يكون هذا قد حدث فيها. ما فعلناه ثانيًا، بناء على اقتراح السيدة باكارد، وقد وافقتُ عليه، أن ننظر في سجلات الوفيات التي وقعت في الدار في آخر عامين، ويسعدني القول إنها لم تكن حالات كثيرة، بل كانت سبعًا فقط، وهذه نسبة جيدة للغاية بالنظر إلى الفئة العمرية للنزيلات. كانت هناك حالتا وفاة بسبب الالتهاب الرئوي، وهذا شيء شائع للغاية، وحالتان بسبب الإنفلونزا،

وهذا سبب محتمل دائمًا للوفاة في أشهر الشتاء نظرًا للمناعة الضعيفة للنساء الهشات المسنات، هذا بالإضافة إلى ثلاث حالات أخرى".

توقف دكتور موراي لحظات، ثم قال: "سيد بيريسفورد، أنا لست مرتاحًا بشأن الحالات الثلاث الأخرى، وتحديدًا بشأن حالتين منها. إن أسباب هذه الوفيات محتملة، لكن يمكنني القول إن احتمال وقوعها *ضعيف للغاية*. إنني بعد تأمل ودراسة أشعر بأنني غير راضٍ تمامًا عن أسباب هذه الوفيات. على المرء أن يتقبل احتمالية أنه ربما يوجد بقمة الجبل المشمسة قاتل ربما يقتل لخلل عقلي به، وهو قاتل لا يشك فيه أحد نهائيًا".

ساد الصمت عدة لحظات، ثم تنهد تومي وقال: "أنا لا أشكك فيما تقوله لي، لكن بصراحة، هذا يبدو غير معقول. هذه الأشياء لا تحدث بالتأكيد".

تجهم دكتور موراي، وقال: "بل واردة الحدوث تمامًا، ويمكنني أن أعدد لك حالات مرضية من هذا القبيل. كانت هناك امرأة تعمل طاهية في عدد في البيوت، وكانت امرأة لطيفة ودودًا ذات منظر سار، تخدم من تعمل لديهم بإخلاص، وتطهو جيدًا، وتستمتع بوجودها معهم، ثم عاجلاً أم آجلاً، تتغير الأمور، وتبدأ في دس سم الزرنيخ في سندويتشات أو في طعام التنزه دون دافع واضح. فتجد هناك سندويتشين أو ثلاثة مسممة بين بقية السندويتشات، وتحدد المصادفة المحضة الضحية التي ستتناول هذه السندويتشات المسممة، ولم يكن يُشتبه في تسمم متعمد. كانت هذه المرأة تستمر في خدمة منزل ما لثلاثة أو أربعة أشهر دون أن يظهر عليها أية أمارات

الاختلال العقلي، ثم تغادر لتعمل لدى عائلة أخرى، وفي غضون ثلاثة أسابيع، يموت اثنان من أفراد العائلة بعد تناولهما لحمًا على الإفطار مثلًا، ونظرًا لأن كل هذه الحوادث وقعت في أجزاء مختلفة من إنجلترا، وعلى فترات غير منتظمة، فقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى تتمكن الشرطة من تعقب المرأة، والتي كانت تستخدم اسمًا مختلفًا في كل مرة، وهناك بالطبع الكثير من الطاهيات الماهرات اللطيفات في منتصف العمر؛ ومن ثم كان من الصعب معرفة هوية هذه المرأة بالتحديد".

سأله تومي: "ولماذا كانت تفعل هذا؟".

قال دكتور موراي: "لا أعتقد أن أحدًا يعرف السبب في الحقيقة، لكن هناك العديد من النظريات المختلفة، لا سيما تلك التي قالها الأطباء النفسيون، ومنها أن هذه المرأة كانت ذات خيالات روحانية، وبدا لها أن هناك أمرًا إلهيًا صدر لها بتخليص العالم من أشخاص معينين، لكن يبدو أنها لم تكن تحمل ضغينة شخصية تجاههم.

ثم هناك هذه المرأة الفرنسية جين جيبرون، التي كان يُطلق عليها المرأة العطوف، فقد كان يبدو عليها الضيق الشديد عندما يمرض أطفال جيرانها؛ فكانت تسرع إلى الأطفال، وتجلس بجانبهم على السرير وترعاهم في تفانٍ. لكن مرة أخرى، يكتشف الناس بعد مضي وقت أن الأطفال الذين نعتني بهم هذه المرأة *لا يتعافون أبدًا، بل يموتون جميعًا. لماذا؟* الحقيقة أن طفلها مات وهي شابة، وبدا أن حزنها طغى عليها، وربما كان هذا سبب سلسلة جرائمها؛ إذ كانت تفكر بعقلية أنه إذا مات *طفلها*، فيجب أن يموت أطفال النساء الأخريات، أو ربما كما يعتقد البعض، كان طفلها هو أحد ضحاياها".

قال تومي: "كلامك هذا يصيبني بالقشعريرة".

قال الطبيب: "إنني أستخدم الأمثلة الأشد وقعًا على النفس، لكن ربما يكون الأمر أبسط من هذا. أنت ربما تذكر قضية أرمسترونج، الذي كان إذا أهانه أحد بأية طريقة ما، أو حتى ظن أرمسترونج بأن هذا الشخص أهانه، كان يدعوه لتناول الشاي ومعه سندويتشات مسممة بالزرنيخ. كان مصابًا بنوع من الحساسية المفرطة، وإن كانت جرائمه الأولى بدافع منافع شخصية بحتة كالحصول على ميراث، أو التخلص من زوجة من أجل الزواج بأخرى.

ثم هناك الممرضة وارينر التي كانت تدير دارًا للمسنات. كانت تطلب من النزيلات أن يكتبن لها ميراثهن على أن تضمن لهن إقامة مريحة حتى الموت، لكن الموت لم يكن يتأخر كثيرًا، والسبب هنا أيضًا هو المورفين. كانت امرأة لطيفة، وكانت تعتبر نفسها فاعلة خير دون أي تردد".

سأله تومي: "إذا كان افتراضك عن حالات الوفاة هذه صحيحًا، هل لديك فكرة عمن يكون الجاني؟".

قال دكتور موراي: "لا، لا توجد مؤشرات من أي نوع. عند الأخذ في الاعتبار أن القاتل ربما يكون مجنونًا، فإنه من الصعب للغاية التعرف على بعض مظاهر هذا الجنون. هل القاتل مثلاً شخص يكره المسنات لأن هناك امرأة مسنة آذته أو دمرت حياته؟ هل هو شخص لديه أفكار بشأن القتل الرحيم ويرى أنه يجب قتل أي شخص تجاوز الستين عامًا رأفة به؟ قد يكون أي شخص بالطبع. مريضة؟ ممرضة؟ أحد العاملين بالدار؟".

سأله تومي: "لكن لماذا جئت إليَّ؟ ما الذي بوسعي فعله؟".

أجاب دكتور موراي: "لقد كانت خالتك السيدة فانشاو نزيلة بالدار لبضع سنوات، وكانت حالتها العقلية جيدة، وإن كانت تتظاهر بعكس ذلك كثيرًا؛ حيث كانت لها طرق غير تقليدية لتسلية نفسها عبر التظاهر بأنها خرفة، لكنها كانت في الواقع واعية بشكل كامل تقريبًا في الدار. ما أريد منك فعله هو أن تحاول أنت وزوجتك جديًا أن تتذكرا أي شيء ربما قالته السيدة فانشاو أو لمحَت إليه، والذي ربما قد يمدنا بدليل ما، ربما شيئا رأته أو لاحظته السيدة فانشاو، أو شيئًا أخبرها به شخص ما، أو شيئًا كانت تفكر فيه بشكل خاص. النساء المسنات يشاهدن ويلاحظن الكثير، ولا شك أن امرأة فطنة مثل السيدة فانشاو كانت تعرف قدرًا مذهلًا مما يحدث في دار المسنات. إن هؤلاء السيدات المسنات لا يشغلهن شيء، ولديهن اليوم بأكمله ليلاحظن أشياء، ويصلن إلى استنتاجات قد تبدو خيالية، لكن أحيانًا تكون حقيقية تمامًا على نحو مفاجئ".

هز تومي رأسه، وقال: "أعرف ما تقصده، لكني لا أتذكر شيئًا من هذا القبيل".

قال دكتور موراي: "فهمتُ أن زوجتك مسافرة. ألا تعتقد أنها ربما تتذكر شيئًا لم تنتبه أنت له؟".

قال تومي: "سأسألها، لكني أشك في هذا. تردد لحظات، ثم قرر التحدث عما يدور في ذهنه، قائلًا: "اسمع، كان هناك شيء يقلق زوجتي بشأن إحدى النزيلات، اسمها السيدة لانكستر".

قال دكتور موراي: "السيدة لانكستر؟ ماذا عنها؟".

قال تومي: "ترى زوجتي أن السيدة لانكستر غادرت الدار فجأة على نحو غريب بصحبة من يدعون أنهم أقاربها، وكانت

هذه السيدة قد أعطت خالتي لوحة كهدية، وحاولت زوجتي التواصل مع السيدة لانكستر لمعرفة ما إذا كانت تريد استرداد اللوحة".

قال دكتور موراي: "هذا تصرف لطيف من السيدة بيريسفورد".

قال تومي: "لكنها وجدت صعوبة في التواصل معها؛ حيث كانت قد حصلت على عنوان الفندق الذي من المفترض أن السيدة لانكستر تقيم فيه مع أقاربها، لكن لم يكن أحد منهم يقيم بهذا الفندق ولا حجز غرفًا فيه".

قال دكتور موراي: "حقًا؟ هذا غريب للغاية".

قال تومي: "أجل، لقد رأت توبينس أن الأمر غريب للغاية أيضًا، فلقد غادروا الدار دون أن يتركوا عنوانًا آخر في دار المسنات. في الواقع، لقد قمنا بعدة محاولات للتواصل مع السيدة لانكستر أو السيدة جونسون، أعتقد أن هذا هو اسمها، لكننا لم نتمكن من ذلك. تواصلنا مع محام أعتقد أنه من دفع كل فواتير السيدة لانكستر في الدار، وأجرى كل الترتيبات مع السيدة باكارد، لكنه لم يعطنا سوى عنوان بنك، والبنوك لا تعطيك أية معلومات".

قال موراي: "لا تقدم البنوك معلومات إلا بموافقة العملاء".

قال تومي: "لقد راسلت زوجتي البنك بشأن السيدة لانكستر وأيضًا السيدة جونسون، لكنها لم تتلق أي رد".

قال موراي: "هذا يبدو غير معتاد، لكن الناس لا يردون على الخطابات دائمًا، فربما سافروا خارج البلاد".

قال تومي: "ربما، والأمر لا يشغلني، لكنه يشغل زوجتي التي بدت مقتنعة أن ثمة خطبًا وقع للسيدة لانكستر، بل إنها في خلال الوقت الذي سافرتُ فيه، قالت إنها ذاهبة لتحري الأمر. لا أعرف تحديدًا ما تعنيه بهذا. ربما الذهاب شخصيًا إلى الفندق، أو البنك، أو محاولة التحدث مع المحامي. على كل حال، كانت تنوي المحاولة والحصول على المزيد من المعلومات".

نظر الدكتور موراي إليه بأدب، لكن النظرة شابها بعض الملل.

وسأله: "ما الذي تظنه تحديدًا؟".

قال تومي: "إنها تظن أن السيدة لانكستر في خطر من نوع ما، بل وربما حدث لها شيء ما".

رفع الطبيب حاجبيه، وقال: "أوه، حقًا. إنني أجد صعوبة في ..."

قاطعه تومي قائلًا: "قد يبدو هذا سخيفًا بالنسبة إليك، لكن زوجتي اتصلت بالمنزل وقالت إنها ستعود مساء الأمس، *لكنها لم تعد إلى الآن؟*".

سأله دكتور موراي: "هل قالت بشكل قاطع إنها *ستعود* إلى المنزل؟".

قال تومي: "أجل، كانت تعرف أنني عائد إلى المنزل من مؤتمر عمل بالأمس، فاتصلت بخادمنا ألبرت، وأخبرته بأنها عائدة على العشاء".

تطلع دكتور موراي إلى تومي ببعض الاهتمام، وسأله: "هل هذا تصرف غير معهود منها؟".

فأجابه تومي: "أجل، غير معهود *تمامًا* منها. إذا كانت ستتأخر أو حصل تغيير في خططها، فإنها ستتصل أو سترسل برقية".

سأله دكتور موراي: "وهل أنت قلق بشأنها؟".

قال تومي: "نعم، بالطبع".

قال دكتور موراي: "مم! وهل أخبرت الشرطة؟".

قال تومي: "لا. ما الذي ستظنه الشرطة؟ أنا ليس لديَّ سبب للاعتقاد بأنها في مشكلة أو خطر، أو شيء من هذا القبيل. أعني أنها إذا تعرضت لحادث أو أودعت مستشفى ما، لأبلغني شخص ما بهذا سريعًا، أليس كذلك؟".

قال دكتور موراي: "أجل، هذا ما سيحدث إذا كان معها أوراق هوية".

قال تومي: "إن معها رخصة قيادة، وربما خطابات وأشياء أخرى متعددة".

عبس وجه دكتور موراي.

وأردف تومي في عجالة: "أنت الآن تأتي وتخبرني بكل هذه الأشياء عن دار المسنات، وعن نساء متن ما كان يفترض أن يمتن. لنفترض أن هذه السيدة العجوز علمت شيئًا أو رأت شيئًا أو شكَّت في شيء، وبدأت تثرثر عنه؛ ومن ثم كان يجب إسكاتها بطريقة ما، فتم إبعادها عن المكان سريعًا، وأخذها إلى مكان لا يمكن تعقبها فيه. ينتابني شعور قوي بأن الأمر كله مرتبط ببعضه".

قال دكتور موراي: "هذه أمور غريبة. غريبة بالتأكيد. ما الذي تنوي فعله إزاء ذلك؟".

قال تومي: "سأشرع في البحث بنفسي، وسأبدأ بهؤلاء المحامين. ربما هم أشخاص نزهاء، لكن عليَّ التحقق بنفسي وأتوصل إلى استنتاجاتي الخاصة".

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني عشر

تومي يقابل صديقًا قديمًا

من الجهة المقابلة من الطريق، وقف تومي يمسح بعينيه مبنى مكتب المحاماة.

كان المبنى منمقًا وعتيق الطراز، وبدت اللوحة النحاسية التي تحمل اسم المكتب قديمة، لكن تم تلميعها بشكل جيد. عبر تومي الطريق، واجتاز الباب المتأرجح، لتحييه أصوات الكتابة السريعة على الآلات الكاتبة.

ثم اتجه إلى نافذة على اليمين، مكتوب فوقها الاستعلامات.

كانت تطل من النافذة غرفة صغيرة بها ثلاث نساء يكتبن على الآلات الكاتبة، ورجلان منكبان على مكتبيهما يكتبان وثائق.

كان يسود الغرفة مناخ باهت عتيق تغلفه أجواء قانونية رتيبة.

نهضت من أمام الآلة الكاتبة امرأة في منتصف الثلاثينات من عمرها تقريبًا، حادة الملامح، وشعرها أشقر باهت، وترتدي نظارة دون دعامات الأذن، وجاءت إلى النافذة.

وقالت: "هل يمكنني مساعدتك؟".

قال تومي: "أريد مقابلة السيد إكليس".

صارت الملامح الحادة للمرأة أكثر حدة، وسألته: "هل لديك ميعاد مسبق؟".

قال تومي: "لا، لكني سأظل في لندن اليوم فقط".

قالت المرأة: "أخشى أن السيد إكليس مشغول هذا الصباح، لكن ربما يمكنك مقابلة فرد آخر من الشركة".

قال تومي: "أريد مقابلة السيد إكليس تحديدًا. لقد راسلته بضع مرات".

قالت المرأة: "حسنًا، أعطني اسمك".

أعطاها تومي اسمه وعنوانه، وذهبت السيدة الشقراء لتتحدث في الهاتف الموجود على مكتبها، وعادت بعد إجرائها مكالمة سريعة.

وقالت: "سيصحبك الموظف إلى غرفة الانتظار؛ حيث سيقابلك السيد إكليس في غضون عشر دقائق".

أُدخل تومي غرفة انتظار تحتوي على مكتبة تضم مجلدات قديمة ومملة عن القانون، ومائدة مستديرة مغطاة بصحف مختلفة. جلس تومي في الغرفة وفكر في الأساليب التي خطط لها لمفاتحة السيد إكليس في الأمر، وتساءل كيف يبدو هذا الرجل. عندما دخل مكتبه أخيرًا، ونهض السيد إكليس لاستقباله، شعر تومي بأنه لا يرتاح لهذا الرجل دون سبب معين. وتساءل تومي في نفسه عن سبب عدم ارتياحه له دون وجود سبب وجيه. كان السيد إكليس يبدو رجلًا تتراوح سنه بين

الأربعين والخمسين، وله شعر رمادي، ووجه طويل ذو ملامح حزينة وتعبيرات جامدة، وعين تشي بفطنة، وابتسامة لطيفة تتناقض مع الملامح الحزينة الطبيعية لوجهه.

قال السيد إكليس: "السيد بيريسفورد؟".

قال تومي: "أجل. إنه موضوع تافه في الحقيقة، لكنه يقلق زوجتي. أعتقد أنها كتبت إليك، وربما اتصلت بك هاتفيًا لتسأل إن كان بإمكانك أن تعطيها عنوان امرأة اسمها السيدة لانكستر".

قال السيد إكليس بملامح جامدة: "السيدة لانكستر". لم يكن هذا سؤالًا حتى، بل ترك السيد إكليس الاسم هكذا معلقًا في الهواء.

قال تومي لنفسه: "إنه رجل حذر، لكن من الطبيعي أن يكون المحامي حذرًا. أنا شخصيًا أفضّل أن يكون المحامي الخاص بي حذرًا".

أردف تومي قائلًا للسيد إكليس: "كانت هذه السيدة تعيش حتى وقت قريب في دار للمسنات اسمها قمة الجبل المشمسة، وهي دار جيدة للغاية. في الواقع، كانت خالتي تعيش هناك وتشعر بسعادة وراحة كبيرة".

قال السيد إكليس: "نعم، بالطبع، بالطبع. لقد تذكرتها الآن. السيدة لانكستر. أعتقد أنها لم تعد تعيش هناك، أليس كذلك؟".

قال تومي: "هذا صحيح".

قال السيد إكليس: "لا أتذكر كل شيء حاليًا"، ثم مد يده نحو سماعة الهاتف قائلًا: "سأنعش ذاكرتي في الحال".

لكن تومي عاجله قائلاً: "سأخبرك بالأمر ببساطة. كانت زوجتي تريد الحصول على عنوان السيدة لانكستر لأن معها شيئًا خاصًا بها، وهي لوحة في الواقع. وكانت السيدة لانكستر قد قدمتها كهدية لخالتي السيدة فانشاو، وقد توفيت خالتي حديثًا، وآلت مقتنياتها إلينا، بما في ذلك اللوحة التي أعطتها السيدة لانكستر لها. تحب زوجتي هذه اللوحة كثيرًا، لكنها تشعر بالذنب حيالها؛ حيث تفكر في أنه ربما تسترجع السيدة لانكستر هذه اللوحة؛ ومن ثم تشعر بأنه يجب عليها أن تعرض على السيدة لانكستر استعادتها".

قال السيد إكليس: "حسنًا، فهمت. هذا تصرف يوحي بيقظة ضمير زوجتك".

ابتسم تومي في سرور، وقال: "ليس بوسع المرء أن يعرف ما قد يشعر به كبار السن إزاء ممتلكاتهم. ربما كانت السيدة لانكستر يسعدها أن تحظى خالتي باللوحة؛ نظرًا لأنها كانت معجبة بهذه اللوحة، لكن بعد موت خالتي بعد وقت قصير من حصولها على هذه الهدية، فربما ليس عدلًا أن تؤول اللوحة إلى غرباء. لا يوجد عنوان محدد على اللوحة، لكنها تظهر بيتًا في ريف ما. كل ما أعرفه أنه ربما يكون بيتًا عائليًا له علاقة بالسيدة لانكستر".

قال السيد إكليس: "حسنًا، حسنًا، لكني لا أعتقد ...".

قطع كلامه صوت طرق على الباب. انفتح الباب، ودخل موظف ووضع ورقة أمام السيد إكليس، والذي نظر فيها.

وقال: "أجل، أجل. أتذكر الآن. أعتقد أن السيدة ..."، ثم نظر إلى بطاقة تومي على المكتب، وقال: "السيدة بيريسفورد

قد اتصلت وتحدثت معي، وأشرت عليها بالتواصل مع بنك ساوثرن كانتريز، فرع هامرسميث. هذا هو العنوان الوحيد الذي أعرفه، فقد كانت الخطابات تُرسل إلى عنوان البنك، ومنه إلى السيدة ريتشارد جونسون، والسيدة جونسون على ما أعتقد أنها ابنة أخ أو ابنة أخت السيدة لانكستر أو من الأقارب البعيدين لها. وكانت السيدة جونسون هي من قامت معي بكل الترتيبات المتعلقة بإقامة السيدة لانكستر في دار قمة الجبل المشمسة، وقد طلبتُ أن أستعلم بشكل كامل عن الدار؛ لأنها سمعت عنها فقط من صديقة بشكل عرضي".

قال تومي: "لكن السيدة لانكستر رحلت عن الدار فجأة".

قال السيد إكليس: "نعم، نعم، أعتقد هذا. يبدو أن السيدة جونسون عادت بشكل غير متوقع من أفريقيا. الكثير من الناس فعلوا هذا! أظن أنها كانت تعيش مع زوجها في كينيا منذ سنوات عديدة. وبعد عودتهما، كانا يجريان الكثير من الترتيبات الجديدة، وشعرا بأن بإمكانهما الاعتناء شخصيًا بقريبتهما العجوز، لكني أخشى أني لا أعرف المكان الحالي للسيدة جونسون. لقد تلقيتُ خطابًا منها تشكرني فيه، وتبلغني بسداد ما كانت تدين لنا به من مال، وأعلمتني بأنه إذا كانت هناك حاجة للاتصال بها، فعليَّ مراسلتها على عنوان البنك؛ لأنها لم تكن قد استقرت هي وزوجها بعد على المكان الذي سيقيمان فيه. أخشى يا سيد بيريسفورد أن هذا هو كل ما أعرفه".

كان أسلوبه لطيفًا لكن حاسمًا؛ إذ لم يظهر إحراجًا أو اضطرابًا من أي نوع، وكانت نبرة صوته توحي بأنه يتحدث بكلام قاطع لا لبس فيه، لكن أسلوبه لان قليلاً حين قال

مطمئنًا: "أنا لم أكن لأقلق لو كنت مكانك يا سيد بيريسفورد، أو بالأحرى لو كنت مكان زوجتك، فالسيدة لانكستر امرأة عجوز كثيرة النسيان، وهي على الأرجح نسيت أمر هذه اللوحة التي أهدتها تمامًا. إنها على ما أظن في الخامسة والسبعين أو السادسة والسبعين، وأنت تعرف أن الناس في هذه السن ينسون بسهولة".

سأله تومي: "هل كنت تعرفها شخصيًا؟".

أجاب السيد إكليس: "لا، لم أقابلها أبدًا".

قال تومي: "لكنك كنت تعرف السيدة جونسون؟".

قال السيد إكليس: "كنت أقابلها عندما كانت تجيء إليَّ من حين لآخر لاستشارتي في الترتيبات. كانت تبدو امرأة بشوشًا وعملية، وقد أجرت الترتيبات بكفاءة"، ثم وقف وقال: "أنا آسف أنني لا أستطيع مساعدتك، يا سيد بيريسفورد".

كان السيد إكليس بهذا يضع نهاية لطيفة، لكن حاسمة، للمقابلة.

خرج تومي إلى شارع بلومسبري، وبحث عن تاكسي. لم تكن اللوحة المغلفة التي يحملها ثقيلة، لكن حجمها كبير نسبيًا. نظر تومي لأعلى إلى المبنى الذي غادره من فوره للحظات. كان يبدو مكتبًا مرموقًا عتيقًا لا تشوبه شائبة، وليس فيه ما يعيبه ظاهريًا، ولا يوجد خطب في السيد إكليس، الذي لم تصدر عنه أية إشارة ارتباك أو جزع أو مراوغة أو عدم ارتياح. فكر تومي في تجهم أنه من المفترض عند ذكر السيدة لانكستر أو السيدة جونسون، أن تصدر من السيد إكليس نظرة مراوغة أو محملة بالشعور بالذنب، أو أي شيء يوحي بأن الأمر ليس على ما يرام،

لكن هذا لم يحدث؛ حيث بدا السيد إكليس رجلًا على قدر من الأدب، بحيث لم يتضايق من الوقت الذي ضيعه في الرد على أسئلة تومي.

ورغم كل ذلك، حدَّث تومي نفسه بأنه *لا يرتاح إلى السيد إكليس*، وتبادر إلى ذهنه ذكريات مبهمة من الماضي عن أشخاص لم يكن يرتاح لهم، ولم يكن يستند في هذا إلا إلى حدسه، والذي كانت تتضح صحته في النهاية، لكن ربما الأمر أبسط من ذلك. إذا كنت قد تعاملتَ في حياتك مع الكثير جدًّا من الشخصيات، يتولد لديك شعور ما إزاء هويتها الحقيقية، مثلما يعرف تاجر التحف الخبير بشكل غريزي منظر وملمس التحف المزيفة قبل خضوعها للفحص. هو يعلم وحسب أن ثمة *خطبًا* بهذا الشيء. الأمر نفسه ينطبق على اللوحات الفنية، وكذلك مع موظف البنك عند تعامله مع نقود مزورة.

قال تومي لنفسه: "إن مظهر السيد إكليس يبدو قويمًا، وكلامه يبدو قويمًا، لكني أشعر مع ذلك أنه شخص حقير". أشار تومي إلى سيارة أجرة، فرمقه السائق بنظرة باردة مباشرة، ومضى في طريقه دون أن يتوقف له.

نظر تومي في أنحاء الشارع، بحثًا عن سيارة أجرة يقودها شخص أكثر احترامًا. كان هناك عدد من المارة على الرصيف، بعضهم مسرعون، وبعضهم يمشون على مهل. كان هناك رجل ينظر إلى اللافتة النحاسية في الجانب المقابل من الطريق، وبعد أن فحصها بإمعان، استدار؛ فاتسعت حدقتا عيني تومي في اندهاش، فقد كان يعرف هذا الوجه. شاهد تومي الرجل وهو يسير إلى نهاية الشارع، ثم توقف والتفت وعاد للسير فيه مرة

أخرى. خرج شخص من المبنى خلف تومي، وفي هذه اللحظة، زاد الرجل في الجهة المقابلة من الشارع من سرعة مشيه قليلاً حتى يتمكن من المشي بمحاذاة الرجل الذي خرج من باب المبنى في الجهة المقابلة، وكان الرجل الذي خرج من المبنى الذي يضم مكتب المحاماة هو السيد إكليس. وفي هذه اللحظة، تهادت سيارة أجرة أمام تومي بشكل يشجع على الركوب، فرفع يده، وتوقف السائق، واستقل تومي السيارة.

سأله السائق: "إلى أين؟".

تردد تومي للحظات وهو ينظر إلى اللوحة المغلفة. كان على وشك إعطاء السائق عنوانًا، لكنه غيَّر رأيه، وقال: "14 شارع ليون".

وصل تومي وجهته بعد ربع ساعة. دفع للسائق أجرته، ورن جرس الباب، وسأل عن السيد إيفور سميث. وعندما دخل غرفة في الطابق الثاني، كان هناك رجل جالس على طاولة تواجه النافذة، والذي التفت عند دخول تومي، وقال ببعض الدهشة: "مرحبًا، يا تومي. من الرائع رؤيتك. لقد مضى وقت طويل. ما الذي تفعله هنا؟ هل تتسكع وحسب بحثًا عن أصدقائك القدامى؟".

قال تومي: "ليس بالضبط يا إيفور".

سأله إيفور: "أظن أنك في طريق عودتك للمنزل من المؤتمر؟".

قال تومي: "أجل".

قال إيفور: "الكثير من الهراء المعتاد في المؤتمر، أليس كذلك؟ لا يتم التوصل إلى استنتاجات، ولا يُقال شيء مفيد".

قال تومي: "هذا صحيح. مجرد مضيعة للوقت".

أردف إيفور: "أعتقد أنكم قضيتم معظم الوقت في الاستماع إلى بوجي وادوك العجوز وهو يثرثر. المؤتمر ممل للغاية، ويزداد سوءًا عامًا بعد عام".

جلس تومي في المقعد الذي سحبه له إيفور، وقبل السيجارة التي عرضها عليه، قائلاً: "أعرف أن هذا احتمال بعيد، لكني كنت أتساءل ما إذا كنت تعرف شيئًا مشينًا عن محام اسمه إكليس في مكتب محاماة اسمه بارتينجديل وهاريس".

رفع الرجل الذي يُدعى إيفور سميث حاجبيه، فقد كان حاجباه مناسبين للغاية لأن يُرفعا. كانت نهاية الحاجب القريبة من الأنف مرتفعة، والنهاية المقابلة القريبة من الخد منخفضة إلى حد مذهل، وهذا يجعله يبدو مثل رجل تلقى صدمة قوية عند أقل قدر من الإثارة. لكن هذه الحركة كانت تبدو طبيعية للغاية على وجهه.

قال إيفور: "حسنًا، حسنًا، حسنًا. هل قابلت إكليس هذا في مكان ما؟".

قال تومي: "المشكلة أنني لا أعرف شيئًا عنه".

قال إيفور: "وأنت تريد معرفة أي شيء عنه؟".

قال تومي: "أجل".

قال إيفور: "مم. ولِمَ جئت لزيارتي؟".

قال تومي: لقد رأيتُ أندرسون في الشارع الذي به المبنى. مضى وقت طويل منذ آخر مرة رأيته فيها، لكني تعرفت عليه. وكان يراقب شخصًا ما في المبنى الذي خرجتُ منه. هناك

مكتبان في هذا المبنى، أحدهما عبارة عن مكتب محاسبة معتمد. بالطبع ربما كان أندرسون يراقب أحد المكتبين أو أيًا من العاملين في أحد المكتبين. لكن كان هناك رجل يسير في الشارع وقد بدا لي أنه السيد إكليس، وهذا جعلني تساءل ما إذا كنتُ محظوظًا لدرجة أن الشخص الذي يراقبه أندرسون هو السيد إكليس؟".

قال إيفور سميث: "مم. حسنًا يا تومي. لطالما كنتَ جيدًا في التخمين".

سأل تومي: "من هو *إكليس؟*".

قال إيفور: "ألا تعرف؟ أليست لديك أية فكرة عنه".

قال تومي: "ليست لديَّ فكرة على الإطلاق. بدون ذكر كلام كثير، لقد ذهبتُ إليه للحصول على بعض المعلومات بشأن سيدة عجوز غادرت دارًا للمسنات مؤخرًا. وكان السيد إكليس هو المحامي المعني بترتيب الإجراءات لها، ويبدو أنه قام بذلك بمهارة وكفاءة تامتين. كنت أريد معرفة عنوانها الحالي، لكنه أخبرني بأنه لا يعرفه. هناك احتمال بأنه لا يعرفه بالفعل، لكن لدي شكًا في ذلك. إنه بمنزلة الخيط الوحيد لديَّ لمعرفة مكان هذه السيدة".

قال إيفور: "وأنت تريد العثور على هذه السيدة؟".

قال تومي: "أجل".

قال إيفور: "لا أعتقد أن ما سأقوله سيروقك، لكن يُعرف عن السيد إكليس أنه محام محترم للغاية، ويجني دخلًا كبيرًا، ولديه عملاء مرموقون للغاية؛ فهو يتعامل مع أصحاب الأراضي، والطبقات الراقية، والجنود والبحارة المتقاعدين،

واللواءات، وقادة البحرية، ومن على شاكلتهم. إنه رجل يحظى باحترام كبير، لكن يخيل إليَّ مما تقوله أنه تحدث معك في نطاق حدود قانونية صارمة".

فقال تومي مخمنًا: "لكنكم مهتمون به".

تنهد إيفور، وقال: "أجل، نحن مهتمون للغاية بالسيد جيمس إكليس. إننا مهتمون به منذ أكثر من ست سنوات، ولكننا لم نحرز تقدمًا كبيرًا".

قال تومي: "هذه معلومات مثيرة للغاية؛ ولذا سأسألك مرة أخرى، من هو السيد إكليس بالضبط؟".

قال إيفور: "أتعني ما الذي نشتبه فيه بشأن السيد إكليس؟ باختصار، نحن نشتبه في أنه من أكبر العقول المدبرة لأنشطة إجرامية في البلاد".

نظر إليه تومي في اندهاش، وقال: "أنشطة إجرامية؟".

قال إيفور: "أجل. لكنها ليست جرائم قتل ولا جاسوسية. وحسبما اكتشفناه من معلومات، إن هذا الرجل لم يرتكب جريمة في حياته؛ إذ لم يسبق له أن سرق، أو زوَّر شيئًا، أو اختلس أموالًا، ولا يمكننا إيجاد أدلة ضده. لكن كلما وقعت سرقة كبيرة منظمة مخطط لها بعناية، نجد في الخلفية اسم السيد إكليس الذي يعيش حياة ليس فيها ما يُلام عليه.

قال تومي مفكرًا: "ست سنوات".

قال إيفور: "ربما حتى أكثر من ذلك. لقد استغرق الأمر منا بعض الوقت لتتبع نمط الأشياء. سطو على البنوك، وسرقات لمجوهرات خاصة، وغيرها من الجرائم التي تتضمن أموالًا

باهظة، وكانت كلها أفعالًا تتبع نمطًا معينًا يدفعك للاعتقاد بأن عقلًا واحدًا هو من دبرها جميعًا. إن الأشخاص الذين نفذوا هذه الجرائم لم يخططوا لها على الإطلاق، بل كانوا ينفذون ما يقال لهم، ويفعلون ما يؤمرون به. إنهم لم يدبروا شيئًا، بل كان شخص آخر هو العقل المدبر".

سأله تومي: "وما الذي جعلك تشك في إكليس؟".

هز إيفور رأسه مفكرًا، وقال: "إنها قصة يطول شرحها. إكليس رجل كثير المعارف والأصدقاء؛ فهناك أشخاص يلعب الجولف معهم، وهناك من يعتنون بسيارته، وهناك شركات سمسرة يستثمر فيها أمواله، كما أن لإكليس مصالح في شركات تمارس أعمالًا نزيهة. إن خطط الجرائم تتضح، لكن دوره فيها لا يتضح، باستثناء تغيبه الملحوظ في مناسبات معينة، فمثلًا تقع حادثة سرقة كبيرة لبنك خُطط لها ببراعة (وتكلفت مبالغ كبيرة) لضمان هروب اللصوص. لكن أين يكون السيد إكليس في أثناء وقوع الجريمة؟ في مونت كارلو أو زيوريخ، أو حتى يصطاد السلمون في النرويج. لكن تأكد أنه يوجد في مكان يبتعد عن مكان وقوع الجريمة مائة كيلومتر على الأقل".

قال تومي: "لكنك مع ذلك تشك فيه؟".

قال إيفور: "أجل، بل ومتأكد تمامًا من ذلك، لكني لا أعرف ما إذا كنا سنتمكن من القبض عليه. إن الرجل الذي حفر النفق في أرضية البنك، والرجل الذي ضرب حارس الأمن الليلي وأفقده الوعي، والصراف المتواطئ من البداية، ومدير البنك الذي أمد الجناة بالمعلومات، لا أحد من هؤلاء يعرف إكليس، وربما لم يروه من قبل. إن هذه السرقات عبارة عن سلسلة

طويلة، ويبدو أن لا أحد يعرف إلا الذي يفوقه بمرتبة واحدة فقط في السلسلة".

قال تومي: "الخطة القديمة المعروفة بالخلية".

قال إيفور: "تقريبًا، لكن بها بعض التغييرات المبتكرة. يومًا ما سنحصل على فرصة، ويومًا ما سيعرف شخص *شيئًا* ما كان يجب أن يعرفه. ربما يكون شيئًا تافهًا، لكن ربما يكون كافيًا بشكل عجيب ليشكل دليلًا في النهاية".

سأله تومي: "هل هو متزوج، ألديه أسرة؟".

قال إيفور: "لا، إنه لا يقبل على مخاطرات كهذه. إنه يعيش بمفرده في المنزل مع مدبرة منزل وبستاني وخادم، وهو يُسرّي عن نفسه بأسلوب معتدل جميل، وأنا أجزم بأن كل من دخل بيته كضيف هم أشخاص لا تحوم حولهم شبهات".

قال تومي: "وهل ظهرت ملامح الثراء على أحد؟".

قال إيفوا: "لقد تطرقتَ إلى نقطة جيدة، يا توماس. لا بد أن تظهر ملامح الثراء على أحد. لا بد أن يُلاحَظ أن أحدهم يزداد ثراء. لكن ذلك الجزء مدبَّر بعناية، فهناك المكاسب الكبيرة في سباقات الخيول، والاستثمارات في الأسهم والسندات، وهي جميعًا أشياء تبدو طبيعية، واحتمالية جني مبالغ هائلة منها هي احتمالية كبيرة، فكلها تبدو في ظاهرها تعاملات حقيقية. هناك الكثير من المال المكدس في بلاد مختلفة وأماكن مختلفة. إنها عمليات مالية كبيرة وواسعة النطاق، ودائمًا ما تتنقل الأموال من مكان لآخر".

قال تومي: "حسنًا، أتمنى لك التوفيق في الإيقاع بالرجل".

قال إيفور: "أعتقد أنني سأتمكن من هذا، وربما يتحقق ذلك إذا دفعته للخروج من روتينه".

قال تومي: "كيف ذلك؟".

قال إيفور: "عبر الخطر. أن أجعله يشعر بالخطر، أو أن أجعله يشعر بأن هناك من يسعى في أثره بأن أولّد لديه شعورًا بعدم الارتياح. إذا دفعتَ المرء للشعور بعدم الارتياح، فقد يفعل شيئًا أحمق. قد يرتكب أخطاء. هذه هي الطريقة التي ننال بها من أمهر الرجال الذين يخططون ببراعة ولا تزل أقدامهم. دع شيئًا ما يزعجهم بشدة، وسيرتكبون أخطاء. هذا ما أتمناه. الآن دعنا نسمع قصتك، فربما لديك شيء يفيدني".

قال تومي: "إن ما لديَّ ليست له علاقة بهذه الجرائم. أخشى أنه شيء بسيط للغاية".

قال إيفور: "حسنًا، لنسمعه".

أخبره تومي بالقصة دون أن يعتذر عن تفاهتها؛ فقد كان يعلم أن إيفور ليس بالرجل الذي يحتقر التفاهة.

في الواقع، أدرك إيفور مباشرة المسألة التي جلبت تومي إلى هنا.

وسأله: "أتقول إن زوجتك اختفت؟".

قال تومي: "إن هذا ليس من طباعها".

قال إيفور: "هذا أمر خطير".

قال تومي: "خطير للغاية بالنسبة إليَّ".

قال إيفور: "أدرك ذلك، ولم أقابل زوجتك إلا مرة واحدة، وهي امرأة ذكية".

قال تومي: "إذا قررتْ تعقب الأمور، تصبح مثل كلب صيد يطارد فريسة".

سأله إيفور: "ألم تذهب إلى الشرطة؟".

قال تومي: "بلى".

قال إيفور: "ولمَ لا؟".

قال تومي: "أولًا، لأني لا يسعني الاعتقاد سوى أنها بخير. إن توبينس دائمًا ما تجتاز الأمور على خير. إنها فقط شغوف بتتبع الأشياء، وربما لم يتسن لها الوقت للاتصال".

قال إيفور: "ممم. لا أرتاح لذلك. أنت قلت إنها تبحث عن منزل، أليس كذلك؟ ربما تكون هذه معلومة مثيرة للاهتمام؛ لأنه من الخيوط التي نتبعها لكنها لم تقدنا إلى أشياء مهمة هو موضوع سماسرة المنازل".

نظر إليه تومي باندهاش، وقال: "سماسرة المنازل؟".

قال إيفور: "أجل. سماسرة منازل عاديون لطيفون في بلدات صغيرة في أجزاء مختلفة من إنجلترا، لكنها لا تبتعد كثيرًا عن لندن. يقوم مكتب السيد إكليس بالكثير من الأعمال مع سماسرة المنازل ولصالحهم. أحيانًا يكون السيد إكليس هو محامي المشترين، وأحيانًا محامي البائعين، وهو يستعين بالعديد من سماسرة المنازل نيابة عن العملاء. وإننا نتساءل أحيانًا لماذا يفعل هذا؛ إذ لا يبدو أن أيًا من هذا مربح للغاية".

قال تومي: "لكنك تعتقد أن هذا ربما يعني شيئًا أو يقود إلى شيء؟".

قال إيفور: "إذا كنت تتذكر حادثة السرقة الكبيرة لبنك ساوثرن لندن منذ بضع سنوات، كان اللصوص يتقابلون في منزل منعزل في الريف. لم يكن يلاحظهم أحد في البداية، لكنهم جاءوا بالمسروقات وخبأوها هناك. بدأ الناس في الحي يتحدثون بشأنهم، ويتساءلون عن هؤلاء الأشخاص الذين يأتون ويرحلون في أوقات غير معتادة. كانت هناك أنواع مختلفة من السيارات تأتي في منتصف الليل، وترحل بعد ذلك. الناس في الأرياف ينتابهم فضول شديد إزاء جيرانهم، وبناء على ذلك، أغارت الشرطة على المنزل، ووجدوا بعض المسروقات، وقبضوا على ثلاثة رجال، وقد تم التعرف على واحد منهم".

قال تومي: "ألم يقدْكم هذا إلى شيء؟".

قال إيفور: "ليس تمامًا. لقد رفض الرجال التحدث، وترافع عنهم محامون جيدون، وتم الحكم عليهم بالسجن لفترة طويلة، لكن في غضون سنة ونصف السنة، تم تهريبهم جميعًا ببراعة".

قال تومي: "أتذكر أنني قرأت شيئًا عن هذا. لقد اختفى رجل من المحكمة بينما كان يرافقه حارسان".

قال إيفور: "هذا صحيح. لقد نُفذت عمليات التهريب بمهارة وصُرف على تنفيذها مبالغ كبيرة. لكننا نعتقد أن المسئول عن هذه العملية أدرك أنه ارتكب خطأ بأن احتفظ بمنزل واحد لوقت طويل؛ فأثار ذلك انتباه السكان المحليين. ربما فكر هذا الشخص أنه من الأفضل توزيع المجرمين التابعين له بحيث يعيشون في ثلاثين منزلًا مثلًا في *أماكن مختلفة*؛ حيث يأتي مجموعة من الأشخاص ويقطنون منزلًا،

لنقل مثلاً أمًا وابنتها، أو أرملة، أو جنديًا متقاعدًا وزوجته. أشخاص يبدون هادئين ولطفاء، يجرون إصلاحات بالمنزل، ويستعينون بمقاول محلي، ويحسنون السباكة، وربما يستعينون بشركة من لندن لعمل ديكورات المنزل، ثم بعد عام أو عام ونصف العام، تنشأ ظروف، ويبيع السكان المنزل، ويسافرون للعيش في الخارج. أشياء من هذا القبيل، وكلها أمور تبدو طبيعية ولطيفة، وخلال إقامة هؤلاء الأشخاص بالمنازل، يتم استخدام هذه الأماكن لأغراض مشبوهة! لكن لا أحد يشك في شيء. هناك أصدقاء يأتون لزيارتهم، لكن ليس كثيرًا، بل من حين لآخر. وفي ليلة ما، تقام حفلة بمناسبة الذكرى السنوية لارتباط زوجين في منتصف العمر أو مسنين، أو حفلة بمناسبة تخرّج شاب. وهناك الكثير من السيارات التي تتردد على هذه المنازل. لنقل مثلاً إن هناك خمس عمليات سرقة كبيرة وقعت في غضون ستة أشهر، فإن المسروقات تتنقل أو تُخبأ في خمسة منازل مختلفة في خمسة أجزاء مختلفة من البلاد، بدلاً من أن توضع بمكان واحد. هذه كلها مجرد افتراضات، عزيزي تومي، لكننا نعمل على الأمر. لنقل إن تلك السيدة العجوز تخلت عن ملكية اللوحة التي بها المنزل، ولنفترض أن هذا هو المنزل الذي رأته زوجتك في مكان ما وذهبتْ لتتحرى عنه، ولنفترض أن شخصًا ما لا يريد أن يتم التحري عن هذا المنزل تحديدًا. قد تكون لهذا صلة بقضيتنا".

قال تومي: "هذا احتمال مستبعد".

قال إيفور: "نعم، أتفق معك، لكننا نعيش في زمن الاحتمالات البعيدة، حيث يحدث ما لا يُصدَّق".

ترجل تومي مرهقًا من رابع سيارة أجرة استقلها ذلك اليوم، وألقى نظرة تقييمية على المكان. كانت سيارة الأجرة قد أنزلته في زقاق ذي نهاية مسدودة بمنطقة هامبستيد هيث، وقد بدا أن الزقاق يخضع "لتطويرات" فنية. كان كل منزل يختلف اختلافًا كبيرًا عن المنزل المجاور له، وبدا المنزل الذي يقصده تومي أنه يتكون من إستوديو كبير ذي سقف زجاجي يغطيه، وتتراص على أحد جوانبه ثلاث غرف. كما كان هناك سلم مطلي بلون أخضر فاتح يمتد إلى خارج المنزل. فتح تومي البوابة الصغيرة، وسار في الممر المؤدي إلى الباب، ولما لم يرَ جرسًا، طرق الباب. انتظر للحظات دون أن يتلقى ردًا، فطرق الباب مرة أخرى، لكن هذه المرة بصوت أعلى.

انفتح الباب فجأة لدرجة أن تومي كاد يسقط إلى الوراء، وتبدت منه امرأة تقف عند عتبة الباب. كان أول انطباع لتومي من النظرة الأولى أن هذه من أقبح النساء اللائي رآهن في حياته؛ إذ كانت تمتلك وجهًا عريضًا مفلطحًا أشبه بفطيرة، وعينين كبيرتين من لونين مختلفين تمامًا، إحداهما خضراء والأخرى بنية، وجبهة بارزة، وشعر أشعث. كان تلبس رداء عمل أرجواني اللون عليه بقع من عجينة النحت. لاحظ تومي أن اليد التي تمسك بالباب المفتوح جميلة للغاية. قالت المرأة بصوتها العميق الجذاب: "ما الأمر؟ أنا مشغولة؟".

سألها تومي: "هل أنت السيدة بوسكوان؟".

قالت السيدة بوسكوان: "أجل. ماذا تريد؟".

قال تومي: "اسمي بيريسفورد. كنت أتساءل إن كان بإمكاني التحدث إليك بضع دقائق".

قالت السيدة بوسكوان: "لا أعرف. هل الأمر ضروري؟"، ثم أردفت وعينها على اللوحة المغلفة التي يحملها تحت ذراعه: "هل الأمر متعلق بلوحة ما؟".

قال تومي: "أجل، إنه يتعلق بإحدى لوحات زوجك".

قالت السيدة بوسكوان: "هل تريد بيعها؟ لديَّ الكثير من لوحاته، ولا أريد شراء المزيد منها. خذها إلى أحد المعارض؛ فلقد بدأوا في شراء أعماله حاليًا. إنك لا تبدو كما لو كنت في حاجة إلى بيع لوحات".

قال تومي: "لا، لا أريد بيع أي شيء".

لقد شعر تومي بصعوبة شديدة في التحدث إلى هذه المرأة. بالرغم من اختلاف لوني عينيها عن بعضهما، فإنهما كانتا عينين لطيفتين، وقد كانتا تنظران من فوق كتف تومي وكأنهما مهتمتان بشيء بعيد.

قال تومي: "أرجوكِ. اسمحي لي بالدخول، فالموضوع يصعب شرحه".

قالت السيدة بوسكوان: "إذا كنت رسامًا، فأنا لا أريد التحدث إليك. إنني أجد الرسامين مملين دائمًا".

قال تومي: "أنا لست رسامًا".

رمقته المرأة من أعلى لأسفل، وقالت: "حسنًا، إنك لا تبدو واحدًا منهم"، ثم قالت باستهانة: "أنت تبدو موظفًا حكوميًا".

قال تومي: "هل يمكنني الدخول، يا سيدة بوسكوان؟".

قالت السيدة بوسكوان: "لست متأكدة. انتظر".

ثم أغلقت الباب فجأة، ووقف تومي منتظرًا، ثم بعد نحو أربع دقائق، انفتح الباب مرة أخرى.

وقالت السيدة بوسكوان: "حسنًا، يمكنك الدخول".

قادت السيدة بوسكوان تومي من الباب إلى سلم ضيق يؤدي إلى الإستوديو الكبير. وفي أحد أركان الإستوديو كان يوجد أحد المنحوتات، وعدة أدوات بجانبه مثل مطارق وأزاميل. كما كان يوجد أيضًا رأس منحوت. لقد بدا المكان وكأن عصابة من الهمج قد داهمته مؤخرًا.

قالت: "لا يوجد مكان للجلوس هنا".

ثم قذفت بعدة أشياء كانت على مقعد خشبي، ودفعت المقعد ناحية تومي.

وقالت: "اجلس هنا، وتحدث إليَّ".

قال تومي: "إنه لكرم منكِ أن تسمحي لي بالدخول".

قالت: "هو كذلك بالطبع، لكنك تبدو قلقًا للغاية. أنت قلق بشأن شيء ما، أليس كذلك؟".

قال: "هذا صحيح".

فردت: "هذا ما ظننته. ما الذي يقلقك؟".

رد تومي بإجابة فاجأته هو شخصيًا: "زوجتي".

قالت: "أوه، قلق بشأن زوجتك؟ لا شيء غريب في هذا. الرجال قلقون دائمًا بشأن زوجاتهم. ما الأمر؟ هل هربت مع شخص ما؟".

قال: "لا، لا شيء من هذا القبيل".

قالت: "هل تحتضر؟ مصابة بالسرطان؟".

قال: "لا. أنا فقط لا أعرف مكانها".

فقالت: "وهل تظن أنني أعرف مكانها؟ حسنًا، أخبرني باسمها وبشيء عنها إذا كنت تعتقد أن بإمكاني أن أجدها، وإن كنت غير متأكدة من رغبتي في هذا، ولهذا يجب أن أحذرك".

قال تومي: "حمدًا لله. إن الحديث معكِ أسهل مما كنت أظن".

قالت: "وما علاقة اللوحة بالأمر؟ هذه لوحة، أليس كذلك؟ يبدو هذا من شكلها".

أزال تومي الغلاف من على اللوحة.

وقال: "إنها لوحة تحمل توقيع زوجك. أريد منكِ أن تخبريني بما تعرفينه عنها".

قالت: "حسنًا. ما الذي تريد معرفته بشأنها تحديدًا؟".

قال: "متى؟ وأين تم رسمها؟".

نظرت السيدة بوسكوان إليه، وللمرة الأولى بدا في عينيها بعض الاهتمام.

وقالت: "حسنًا، هذا ليس صعبًا. يمكنني أن أخبرك بكل شيء عنها. لقد رُسمت منذ نحو خمسة عشر عامًا. لا، بل أعتقد قبل ذلك. إنها أحد أعمال زوجي الأولى. أظن أن تاريخها يعود إلى عشرين عامًا".

سألها تومي: "وهل تعرفين أين هذا المكان؟".

قالت: "أجل. أتذكر المكان جيدًا. إنها لوحة لطيفة دائمًا ما أحببتها، وأحببت هذا الجسر المقوس الصغير والمنزل. اسم

المكان سوتون تشنسلر، وهو يبعد نحو أحد عشر أو اثني عشر كيلومترًا عن بلدة ماركت باسنج، والمنزل نفسه يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن بلدة سوتون تشنسلر. إنه مكان جميل ومنعزل".

اقتربت السيدة بوسكوان من اللوحة، وانحنت، ونظرت إليها من كثب.

وقالت: "هناك شيء غريب في اللوحة، غريب للغاية".

لم ينتبه تومي لكلامها، وسألها: "ما اسم المنزل؟".

قالت: "لا أتذكر في الحقيقة، لكن اسمه تغير عدة مرات. لقد وقع عدد من المآسي به على ما أعتقد، وكان يأتي السكان الجدد ويغيرون اسمه. سُمي في مرة منزل القناة، وفي مرة أخرى منزل الجسر، ثم ميدوساید أو ريفرساید".

سألها: "من كان يعيش هناك؟ أو من يعيش هناك حاليًا؟ هل تعرفين؟".

قالت: "لا أعرف. لكن عندما رأيت المنزل للمرة الأولى، كان يعيش فيه رجل وفتاة، وكانا يأتيان في العطلات الأسبوعية، ولم يكونا متزوجين على ما أعتقد. كانت الفتاة فنانة استعراضية أو ممثلة. كلا، أعتقد أنها فنانة استعراضية. وكانت جميلة لكن حمقاء. كانت ساذجة وكثيرة الطلبات. وأتذكر أنها كانت تروق لويليام".

سألها: "وهل رسمها؟".

قالت: "لا، لم يكن يرسم أشخاصًا. كان يقول أحيانًا إنه يريد رسم الناس، لكنه لم يُقدم على ذلك. كان دائمًا يتصرف بسخافة إزاء الفتيات".

قال: "هل كانا هما من يعيشان في المنزل عندما رسمه زوجك؟".

قالت: "أجل، أعتقد هذا، لكن ليس طوال الوقت، بل في العطلات الأسبوعية فقط. ثم نشب بينهما خلاف ما، وأعتقد أن الرجل رحل وتركها، أو هي من رحلت وتركته. أنا لم أكن موجودة في المنطقة حينها، بل كنت أعمل في جامعة كوفنتري. بعد ذلك، عاشت بالمنزل طفلة ومعها مربيتها. لا أعرف من الطفلة ولا من أين جاءت، لكني أظن أن المربية كانت تعتني بها، ثم أعتقد أن شيئًا ما حدث للطفلة. إما أن الممرضة أخذتها ورحلت إلى مكان آخر، وإما أنها توفيت. لماذا تريد معرفة الأشخاص الذين عاشوا في المنزل منذ عشرين عامًا؟ الأمر يبدو لي غريبًا".

قال تومي: "أريد معرفة كل شيء بإمكاني معرفته عن المنزل. إن زوجتي سافرت لتبحث عن هذا البيت، وقد قالت إنها رأته من نافذة قطار في مكان ما".

قالت السيدة بوسكوان: "هذا ممكن. إن هناك خط قطار يمر بالجهة الأخرى من الجسر، ويمكنك رؤية المنزل جيدًا من هذه الجهة. لماذا تريد زوجتك أن تجد هذا المنزل؟".

شرح لها تومي الأمر باختصار، فنظرت إليه في شك.

ثم قالت: "هل خرجتَ من فورك من مستشفى للأمراض العقلية؟ هل خرجت منه لكنك ما زلت تحت الملاحظة؟".

قال تومي: "أظن أنني قد أبدو هكذا، لكن الأمر في الحقيقة بسيط للغاية. لقد أرادت زوجتي إيجاد هذا المنزل؛ ومن ثم حاولت الذهاب في عدة رحلات بالقطار لتعرف أين رأته، وأنا

أعتقد أنها وجدت المنزل بالفعل. أعتقد أنها ذهبت إلى هذا المكان. سوتون ...."

قالت: "سوتون تشنسلر. لقد كانت بلدة صغيرة هادئة، لكنها ربما تطورت وتغيرت الآن".

قال تومي: "ربما. لقد اتصلت زوجتي وقالت إنها ستعود للمنزل لكنها لم تعد، وأنا أريد معرفة ما حدث لها. أعتقد أنها ذهبت إلى هناك، وبدأت تتحرى عن المنزل وربما تعرضت لخطر ما".

سألته: "وما الخطورة في الأمر؟".

قال تومي: "لا أعرف. كلانا لا يعرف. إنني حتى لا أظن أن هناك أية خطورة بشأن المنزل، لكن زوجتي تظن خلاف ذلك".

سألته: "أهذا حدس أم حقيقة؟".

قال: "ربما. فمن طباعها أن تتبع حدسها. هل تعرفين أو سمعت يومًا عن امرأة اسمها السيدة لانكستر منذ عشرين سنة أو في أي وقت؟".

قالت: "السيدة لانكستر؟ لا، لا أعتقد هذا. هذه من نوعية الأسماء التي قد يتذكرها المرء. ما موضوع السيدة لانكستر هذه؟".

قال تومي: "إنها المرأة التي كانت تمتلك هذه اللوحة، وقد أعطتها لخالتي كهدية في لفتة جميلة، ثم رحلت عن دار المسنات بشكل مفاجئ؛ حيث أخذها أقاربها إلى مكان ما. وقد حاولت تتبع مكانها، لكن هذا ليس سهلا".

قالت: "إنني أتساءل من منكما المخبول، أنت أم زوجتك؟ يبدو عليك أنك تفكر في كثير من الأشياء وفي حالة اضطراب".

قال تومي: "أجل، أنا في حالة اضطراب وكل هذا بلا داع. هذا ما تقصدينه، أليس كذلك؟ أعتقد أنك محقة".

قالت السيدة بوسكوان وقد غيرت نبرة صوتها: "لا، أنا لم أقل إنك مضطرب بلا داع".

نظر إليها تومي متسائلًا.

فأردفت: "هناك شيء غريب في هذه اللوحة، غريب للغاية. إنني أتذكر هذه اللوحة جيدًا مثلما أتذكر معظم لوحات ويليام رغم كثرتها".

سألها تومي: "هل تتذكرين من اشتراها إذا كانت قد بيعت؟".

قالت: "لا، لا أتذكر. أجل، أعتقد أنها بيعت. لقد بيعت مجموعة كبيرة من لوحاته في أحد معارضه، وكانت من بينها هذه اللوحة، بالإضافة إلى لوحات أخرى رسمها قبلها ببضع سنوات وأخرى بعدها ببضع سنوات، وقد بيع الكثير من هذه اللوحات، بل تقريبًا كلها. لكني لا أتذكر الآن من اشتراها. هذه تفاصيل يصعب تذكرها".

قال: "أنا ممتن لك ولكل ما تذكرته".

قالت: "أنت لم تسألني عن سبب قولي إن هناك شيئًا غريبًا في اللوحة التي أحضرتها معك هنا".

قال: "أتقصدين أن شخصًا آخر غير زوجك هو من رسمها؟".

قالت: "لا، إن ويليام هو من رسم هذه اللوحة، وأعتقد أنه سمّاها في كتالوج اللوحات 'منزل على القناة'، لكنها لم تكن كذلك. هناك شيء مختلف فيها".

مدت السيدة بوسكوان أصبعها الملطخ بعجينة النحت، وأشارت به إلى موضع تحت الجسر الذي يربط ضفتي القناة.

وقالت: "هنا. أترى ذلك؟ هناك قارب مربوط تحت الجسر، أليس كذلك؟".

قال تومي مرتبكًا: "هذا صحيح".

قالت: "حسنا، لم يكن هذا القارب في اللوحة عندما رأيتُها آخر مرة. إن ويليام لم يرسم هذا القارب أبدًا. وعندما عُرضت اللوحة، *لم يكن بها أي قارب من أي نوع*".

قال: "أتعنين أن شخصًا غير زوجك رسم القارب هنا فيما بعد؟".

قالت: "نعم. هذا غريب، أليس كذلك؟ إنني أتساءل عن السبب. لقد ذُهلتُ عندما رأيت القارب في البداية. أنا متأكدة أن ويليام لم يرسمه، ولم يضفه بعد ذلك إلى اللوحة في أي وقت. شخص ما فعل ذلك. من هو يا ترى؟".

ثم نظرت إلى تومي وأردفت: "ولماذا فعل ذلك؟".

لم يكن لدى تومي إجابة ليقدمها، بل اكتفى بالنظر إلى السيدة بوسكوان. إن الخالة آدا كانت لتصفها بالمشتتة الطائشة، لكن تومي كان يراها من زاوية أخرى. إنها امرأة غامضة تقفز من موضوع لآخر بشكل مفاجئ. هي تقول شيئًا، ثم تتبعه بعد لحظات بشيء آخر ليست له علاقة بما سبقه. كان

تومي يرى أنها امرأة تعرف أكثر مما تفصح به. هل كانت تحب زوجها أم كانت تغار منه أم كانت تحتقره؟ لم يكن في أسلوبها وكلماتها ما يشير إلى أيٍّ من ذلك، لكن تومي خالجه شعور بأن القارب المرسوم المربوط تحت الجسر قد سبب لها إحساسًا بعدم الارتياح. لقد كرهتْ وجود القارب في اللوحة. فجأة تساءل تومي في نفسه عن مدى صحة كلامها. هل يمكنها حقًا أن تتذكر منذ سنوات بعيدة ما إذا كان بوسكوان قد رسم هذا القارب بجانب الجسر؟ فهذا القارب عبارة عن عنصر بسيط وغير بارز في اللوحة. لو كان قد مضى عام مثلًا على آخر مرة رأت فيها اللوحة ... لكن من الواضح أنه قد مضى وقت أطول من هذا كثيرًا، وقد شعرت بعدم ارتياح إزاء ما رأته. نظر تومي إليها مرة أخرى، فوجد أن عينيها منصبتان عليه، لكن ليس في تحدٍّ، بل في تفكير عميق.

قالت: "ما الذي ستفعله الآن؟".

كانت هذه الإجابة على الأقل سهلة؛ فقد كان تومي لا يجد صعوبة في تحديد ما سيفعله آنذاك.

فقال لها: "سأذهب إلى منزلي اليوم لأرى إن كانت قد وردت أي أنباء عن زوجتي، وإذا لم يرد شيء، فسأذهب إلى ذلك المكان. سوتون تشنسلر. أتمنى أن أجد زوجتي هناك".

قالت السيدة بوسكوان: "هذا يتوقف على أشياء".

فقال تومي بحدة: "أية أشياء؟".

تجهمت السيدة بوسكوان، وبدا أنها تهمهم لنفسها، قائلة: "إني لأتساءل أين هي؟".

قال تومي: "تقصدين مَن؟".

كانت السيدة بوسكوان قد أشاحت ببصرها عنه، لكنها في هذه اللحظة عادت تنظر إليه مرة أخرى.

وقالت: "أقصد زوجتك. أتمنى أن تكون بخير".

قال: "ولمَ لا تكون بخير؟ أخبريني، يا سيدة بوسكوان. هل ثمة خطب ما في هذا المكان المسمى سوتون تشنسلر؟".

فقالت وهي تفكر: "في سوتون تشنسلر؟ في المكان؟ لا، لا أعتقد هذا. ليس في *المكان*".

قال تومي: "أعتقد إذن أنك تقصدين المنزل. المنزل المطل على القناة، وليس بلدة سوتون تشنسلر".

قالت السيدة بوسكوان: "أجل، المنزل. كان منزلًا جيدًا بُني من أجل المحبين".

سألها: "وهل عاش محبون فيه؟".

أجابت: "أحيانًا، لكن ليس كثيرًا. لو بُني منزل ما من أجل العشاق، يجب أن يعيش فيه عشاق".

قال: "وليس أن يستخدمه أحد سواهم".

قالت السيدة بوسكوان: "أنت سريع الملاحظة. لقد فهمتَ ما أعنيه، أليس كذلك؟ يجب ألا يُستخدم المنزل في غير ما شُيد من أجله. لن يقبل المنزل ذلك".

قال: "هل تعرفين أي شيء عن الأشخاص الذين عاشوا هناك في السنوات الأخيرة؟".

هزت رأسها، وقالت: "لا. لا. لا أعرف شيئًا عن المنزل على الإطلاق؛ فهو لم يكن مهمًا لي يومًا".

قال: "لكنك تفكرين في شيء ما، لا، بل في شخص ما؟".

قالت السيدة بوسكوان: "أجل، أنت محق في هذا. أنا أفكر في شخص ما".

قال: "هل يمكنك أن تخبريني عن الشخص الذي تفكرين فيه؟".

قالت السيدة بوسكوان: "ليس هناك ما يقال في الحقيقة. إن المرء فقط يتساءل أحيانًا عن أين يوجد شخص ما، وما حدث له، وما قد تطور في حياته. هذا هو ما أشعر به"، ثم لوَّحت بيدها، وقالت بشكل غير متوقع: "أتريد تناول سمك مدخن؟".

قال تومي في اندهاش: "سمك مدخن؟".

قالت: "لقد صادف أن لديَّ سمكتين أو ثلاثًا، وفكرتُ في أنك ربما تريد تناول شيء قبل اللحاق بالقطار، ووترلو هي محطة القطار الذاهب إلى سوتون تشنسلر. كنا فيما مضى نغيِّر قطارًا آخر في بلدة ماركت باسنج، وأتوقع أن هذا النظام لا يزال قائمًا".

كانت تطلب منه الانصراف ضمنيًّا بهذه الكلمات، وقد استجاب لها.

الفصل الثالث عشر

ألبرت والأدلة

طرفت توبينس عينيها، وكانت الرؤية مشوشة قليلاً. حاولت رفع رأسها من على الوسادة، لكن سرى بجسدها ألم حاد، فتركت رأسها يستقر مرة أخرى على الوسادة. أغلقت عينيها لحظات، ثم فتحتهما ثانية، وطرفت مرة أخرى.

وبشعور من أنجز شيئًا، استطاعت توبينس التعرف على المكان المحيط بها. وقنعت بهذا التقدم الذهني، فلم تحاول التوصل لاستنتاجات أخرى. لقد كانت في جناح مستشفى، ورأسها يؤلمها. لماذا يؤلمها رأسها، ولِمَ هي في المستشفى؟ سألت توبينس نفسها: "هل تعرضتُ لحادث؟".

كانت هناك ممرضات يتحركن حول الأسِرَّة، وهذا يبدو طبيعيًا. أغلقت توبينس عينيها، وحاولت أن تفكر بحذر. فتبادر إلى ذهنها رؤية باهتة لرجل عجوز يرتدي زي رجال الدين، فقالت توبينس لنفسها في شك: "أبي؟ أهذا أبي؟". لم يكن في وسعها التذكر، لكنها خمنت ذلك.

فكرت توبينس: "لكن لماذا أنا موجودة في مستشفى؟ أعني لو كنت ممرضة، لكنت أرتدي زي الممرضات. ممرضات جنود".

ظهرت ممرضة فجأة بجانب سريرها.

وقالت بمرح مصطنع: "أتشعرين بتحسن الآن يا عزيزتي؟ أنت في حال أفضل، أليس كذلك؟".

لم تكن توبينس متأكدة ما إذا كانت في حال أفضل، ثم قالت الممرضة شيئًا عن كوب شاي لطيف.

قال توبينس لنفسها في امتعاض: "يبدو أنني مريضة"، وأخذ يدور برأسها العديد من الأفكار والكلمات غير المترابطة.

فقالت: "جنود. ممرضات جنود. أنا ممرضة جنود".

أحضرت الممرضة بعض الشاي، وأسندت توبينس وهي ترشفه، وقد سرى الألم برأسها مرة أخرى، وقالت بصوت مسموع: "ممرضة جنود. كانت هذه وظيفتي".

نظرت الممرضة إليها وهي لا تفهمها.

فأضافت توبينس حقيقة، قائلة: "رأسي يؤلمني".

قالت الممرضة: "ستتحسنين قريبًا".

رفعت الممرضة الكوب عن فم توبينس، وقالت لممرضة أخرى وهي تمضي: "الممرضة رقم 14 مستيقظة، وهي تهذي بكلمات".

قالت الممرضة الأخرى: "ماذا قالت؟".

قالت الممرضة: "مجرد هذيان".

قالت رئيسة ممرضات الجناح: "سنرى بشأن هذا الأمر. أسرعي أيتها الممرضة، ولا تضيعي النهار كله مع هذا الكوب".

استلقت توبينس على سريرها وهي نصف يقظة، ولم يكن عقلها قد تمكّن بعد من معالجة الأفكار المشتتة.

وشعرتُ بأن هناك شخصًا تعرفه يجب أن يوجد هنا، وأن هناك شيئًا غريبًا في هذا المستشفى؛ فهو ليس المستشفى الذي تتذكره. لم يكن هذا هو المستشفى الذي عملت ممرضة به. كانت تعمل بمستشفى للجنود، في جناح الجراحة، في الصفين ألف وباء. فتحت توبينس عينيها، وألقت نظرة أخرى على المكان، وقررت أنها لم تر هذا المستشفى من قبل، وأن هذا المكان ليس له علاقة بتمريض الجنود وقت الحرب.

قالت توبينس: "أين أنا يا ترى؟ ما هذا المكان؟". حاولت التفكير في اسم مكان ما، لكنها لم تستطع سوى التفكير في مكانين، وهما لندن وساوثهامبتون.

ذهبت رئيسة ممرضات الجناح إليها، وقالت: "أتمنى أن تكوني أحسن حالًا الآن".

قالت توبينس: "أنا على ما يرام. ما الذي حدث لي؟".

قالت رئيسة الممرضات: "هناك جرح برأسك. أعتقد أنه يؤلمك قليلًا، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "يؤلمني بالفعل. أين أنا؟".

قالت رئيسة الممرضات: "في مستشفى ماركت باسنج الملكي".

فكرت توبينس في هذه المعلومة؛ فلم تعنِ لها شيئًا على الإطلاق.

وقالت: "رجل دين عجوز".

قالت رئيسة الممرضات: "عذرًا؟".

قالت توبينس: "لا شيء محدد، أنا ..."

قاطعتها رئيسة الممرضات: "نحن لم نتمكن من كتابة اسمك في سجل التغذية بعد".

وأمسكت بقلمها مستعدة وهي تنظر مستفهمة إلى توبينس.

قالت توبينس: "اسمي؟".

قالت رئيسة الممرضات: "أجل"، ثم أضافت مبتسمة: "من أجل السجلات".

صمتت توبينس لحظات وهي تفكر في اسمها. ما اسمها؟ قالت توبينس لنفسها: "ما أسخف هذا! يبدو أنني نسيته، لكن لا بد أن لديَّ اسمًا". وفجأة انتابها شعور بالارتياح عندما مر وجه رجل الدين العجوز بذهنها بشكل خاطف، فقالت توبينس بثقة اسمها الحقيقي: "بالطبع. اسمي برودنس".

تهجأت رئيسة الممرضات: "ب ـ ر ـ و ـ د ـ ن ـ س".

قالت توبينس: "هذا صحيح".

فسألتها رئيسة الممرضات: "ما اسم العائلة؟".

قالت توبينس: "كاولي. ك ـ ا ـ و ـ ل ـ ي".

قالت رئيسة الممرضات: "يسعدنا أننا فعلنا هذا"، ثم ذهبت ويبدو عليها أمارات شخص لم يعد قلقًا بشأن بسجلاته.

شعرت توبينس بنوع من الرضا تجاه نفسها. برودنس كاولي ممرضة الجنود، وأبوها رجل الدين، والحرب التي تدور رحاها. ثم قالت توبينس لنفسها: "هذا غريب. يبدو أنني مخطئة تمامًا، وأن كل هذا حدث منذ وقت طويل"، ثم همهمت لنفسها، قائلة: "أكانت هي ابنتك المسكينة؟". تساءلت توبينس أهي من قالت هذا من فورها أم شخص آخر؟

عادت رئيسة الممرضات مرة أخرى، وقالت: "ما عنوانك يا آنسة أو مدام كاولي؟ هل كنت تسألين عن طفلة؟".

قالت توبينس: "أكانت هذه طفلتك المسكينة؟ هل قال شخص ما هذا لي أم أنا من كنت أقوله؟".

قالت رئيسة الممرضات: "لو كنت مكانك، لحظيتُ ببعض النوم، يا عزيزتي".

غادرت رئيسة الممرضات، وذهبت بالمعلومات التي حصلت عليها إلى المكان المناسب.

قالت: "يبدو يا دكتور أنها استعادت وعيها، وتقول إن اسمها برودنس كاولي، لكن يبدو أنها لا تتذكر عنوانها، وقد قالت شيئًا عن طفلة ما".

قال الطبيب وكأنه يسمع معلومات مألوفة: "حسنًا، سنمنحها أربعًا وعشرين ساعة أخرى. يبدو أنها تعافت من ارتجاج المخ بشكل جيد".

بحث تومي عن مفتاح الباب، لكن قبل أن يستخدمه، انفتح الباب، ووقف ألبرت على عتبته.

سأله تومي: "هل عادت توبينس؟".

هز ألبرت رأسه ببطء.

قال تومي: "ألم يرد أي شيء منها على الإطلاق؟ مكالمات أو خطابات أو برقيات؟".

قالت ألبرت: "لا شيء يا سيدي، لا شيء على الإطلاق، ولم يرد شيء من أي شخص آخر أيضًا. إنها في قبضتهم وهم الآن يرصدون الموقف. هذا هو رأيي. إنها في قبضتهم".

قال تومي: "ما الذي تعنيه بأنها في قبضتهم بحق الجحيم؟ إنها الأشياء التي تقرؤها. قبضة من؟".

قالت ألبرت: "أنت تعلم ما أعنيه. العصابة".

سأله تومي: "أية عصابة؟".

قال ألبرت: "ربما عصابة بدائية تستخدم السكاكين أو عصابة دولية".

قال تومي: "توقف عن هذا الهراء. أتعلم ما الذي أفكر فيه؟".

نظر له ألبرت متسائلًا.

قال تومي: "أعتقد أن عدم قيام توبينس بإبلاغنا بأي شيء حتى الآن ما هو إلا عدم مراعاة لمشاعرنا".

قال ألبرت: "حسنًا، أرى ما تعنيه"، ثم أردف بأسى: "أنت تفكر على هذا النحو لأنه يطمئنك قليلا"، ثم أخذ اللوحة المغلفة من تحت ذراع تومي، وقال: "أرى أنك عدتَ ومعك اللوحة".

قال تومي: "أجل، لقد عدت ومعي اللوحة اللعينة، ولم تفدني بشيء".

سأله ألبرت: "ألم تعرف أي شيء من خلالها؟".

قال تومي: "لست متأكدًا. لقد عرفت شيئًا من خلالها، لكني لا أعلم إن كان سيفيدني بشيء. ألم يتصل دكتور موراي أو السيدة باكارد من دار المسنات؟".

قال ألبرت: "لم يتصل أحد باستثناء بائع الخضار، وقال إن لديه باذنجانًا جيدًا؛ فهو يعرف أن السيدة توبينس تحب

الباذنجان كثيرًا، ودائمًا ما يخبرها عندما يكون لديه، لكني أخبرته بأنها ليست موجودة بالمنزل حاليًا. لقد أعددتُ لك دجاجًا على العشاء".

قال تومي بحدة: "من المذهل أنك لا تفكر في شيء سوى الدجاج".

قال ألبرت: "لقد طبختُ لك دجاجة صغيرة".

قال تومي: "ستكفي".

رن التليفون، فهب تومي من مقعده، وأسرع إلى الهاتف.

وقال: "مرحبًا .. مرحبًا؟".

فجاءه صوت خافت من بعيد يقول: "السيد توماس بيريسفورد؟ هل يمكنك استقبال مكالمة شخصية من مدينة إينفرجشلي؟".

قال تومي: "أجل".

أتاه الصوت قائلًا: "انتظر على الخط، من فضلك".

انتظر تومي وقد هدأت استثارته، وبعد انتظاره بعض الوقت، جاءه صوت ابنته الهش.

قالت: "مرحبًا، هل هذا أنت يا أبي؟".

قال تومي: "ديبورا!".

قالت: "لماذا تبدو متقطع الأنفاس هكذا؟ هل كنت تركض؟".

فكر تومي في أن البنات انتقاديات دائمًا.

قال لها: "إنني ألهث لأني رجل عجوز. كيف حالك، يا ديبورا؟".

قالت: "أنا على ما يرام. اسمع يا أبي، لقد رأيت شيئًا في الجريدة، وربما رأيته أنت أيضًا، وهو خبر عن سيدة تعرضت لحادث وموجودة بالمستشفى".

قال: "حقًا؟ لا أعتقد أنني قرأت أو لاحظت هذا الخبر. لماذا؟".

قالت: "الخبر ليس سيئًا للغاية. أعتقد أنه عن سيدة كبيرة في السن تعرضت لحادث، وقالت إن اسمها برودنس كاولي، لكنهم لم يتمكنوا من العثور على عنوانها".

قال: "برودنس كاولي؟ أتعنين ..."

قالت: "أجل. إنني فقط أتساءل. هذا هو اسم أمي، أليس كذلك؟ أعني أنه كان اسمها".

قال: "بالطبع".

قالت: "لقد كنت أنسى دائمًا اسم برودنس. أعني أننا لم نكن نناديها أبدًا بهذا الاسم. لا أنت ولا أنا ولا ديريك".

قال تومي: "هذا صحيح. لم تكن معروفة بهذا الاسم".

قالت: "هذا صحيح. ألا تعتقد أن هذه السيدة ربما تكون أحد أقاربها؟".

قال: "ربما. أين هذا المستشفى؟".

قالت: "أعتقد أن الخبر قال مستشفى في ماركت باسنج، وهم يريدون معرفة المزيد عنها. أعرف أن هذا سخيف، وأن هناك كثيرًا من النساء اسمهن برودنس، وكثيرًا من العائلات

اسمها كاولي، لكني فكرت في أن أتصل وأطمئن أن أمي بالمنزل وبخير".

قال تومي: "أجل، فهمت".

قالت: "حسنًا، يا أبي. هل أمي بالمنزل؟".

قال تومي: "لا، ليست بالمنزل، ولا أعرف إذا ما كانت بخير أم لا".

قالت ديبورا: "ماذا تعني؟ ما الذي فعلته أمي؟ أعتقد أنك كنت في لندن، في تلك الاجتماعات السرية السخيفة المقامة على أطلال الماضي، والتي تقابل خلالها أصدقاءك القدامى".

قال تومي: "هذا صحيح، وقد عدت من هناك مساء الأمس".

قالت: "وهل تفاجأتَ بأن أمي ليست موجودة أم كنت تعلم أنها ليست موجودة بالمنزل؟ بربك يا أبي، أخبرني. أعلم أنك قلق. أنا أعرف متى تكون قلقًا. لقد سعت أمي وراء شيء ما، أليس كذلك؟ أتمنى أن تتعلم أمي أنه حريٌّ بها في سنها أن تجلس في هدوء ولا تفعل شيئًا".

قال تومي: "لقد كانت قلقة بشأن شيء ما له علاقة بموت خالتي آدا".

قالت: "شيء مثل ماذا؟".

قال: "شيء قالته إحدى النزيلات بدار المسنات لأمك. هذه السيدة أخبرت أمك بالكثير، وانتاب أمك القلق إزاء بعض الأشياء التي قالتها، عندما ذهبنا لتفقد مقتنيات خالتي بعد وفاتها، فكرنا في أن نتحدث مع هذه السيدة العجوز، لكن بدا أنها رحلت عن الدار فجأة".

قالت: "هذا يبدو طبيعيًا للغاية، أليس كذلك؟".

قال: "لقد جاء بعض أقاربها وأخذوها".

قالت ديبورا: "هذا شيء طبيعي للغاية. ما الذي دفع أمي للقلق؟".

قال تومي: "لقد انتابها إحساس بأن ثمة خطبًا ما وقع لهذه السيدة".

قالت: "فهمت".

قال: "هناك شيء مريب؛ إذ يبدو أن هذه السيدة اختفت، لكن الأمر يبدو في ظاهره طبيعيًا؛ فقد تضمن فواتير لدى المحامين وبنوك وسائر هذه الأشياء؛ غير أننا لم نستطع العثور على مكان هذه المرأة".

قالت: "أتعني أن أمي ذهبت للبحث عنها في مكان ما".

قال: "أجل، ولم تعد حين قالت إنها عائدة منذ يومين".

قالت: "ولم تتلق أية أخبار عنها؟".

قال: "لا".

قالت ديبورا بحدة: "أتمنى لو تستطيع الاعتناء بأمي كما يجب".

قال تومي: "لم يستطع أحد الاعتناء بها كما يجب، ولا حتى أنت، يا ديبورا. لقد فعلت أمك مثلما فعلت في أثناء الحرب، حيث قامت بأمور كثيرة لا شأن لها بها".

قالت: "لكن الوضع مختلف الآن؛ فقد صارت كبيرة في السن، ويجب عليها أن تجلس في المنزل وتعتني بنفسها. أعتقد أنها كانت تشعر بالملل، وهذا هو السبب الرئيسي لكل هذا".

قال تومي: "أنت قلت مستشفى ماركت باسنج، أليس كذلك؟".

قالت: "في ميلفوردشاير. إنها تبعد ساعة أو ساعة ونصف الساعة عن لندن بالقطار على ما أظن".

قال تومي: "حسنًا، وهناك بلدة بالقرب من ماركت باسنج اسمها سوتون تشنسلر".

قالت ديبورا: "وما علاقة هذا بالموضوع؟".

قال تومي: "إنها قصة يطول شرحها، ولها علاقة بلوحة مرسوم فيها منزل مطل على قناة".

قالت ديبورا: "لا أعتقد أن بإمكاني سماعك جيدًا. ما الذي تتحدث عنه؟".

قال تومي: "لا تشغلي بالك. سأتصل بمستشفى ماركت باسنج، وسأستعلم عن الأمر. لديَّ إحساس بأنها أمك. عندما يصاب الناس بارتجاج في المخ، فعادة يتذكرون في البداية أشياء حدثت لهم في طفولتهم، ويستمر التذكر تدريجيًّا وصولًا إلى الحاضر، وقد عادت أمك إلى اسمها قبل الزواج. ربما تعرضت لحادث سيارة، لكني لن أتفاجأ إذا كانت قد تعرضتْ لضربة على الرأس من قبل شخص ما. هذه نوعية الأشياء التي تحدث لأمك عندما تتوغل في الأمور. سأعلمك بما سأتوصل إليه".

بعد أربعين دقيقة، نظر تومي بيريسفورد إلى الساعة في يده، وتنهد كما يتنهد الشخص الذي بلغ منه الإرهاق مبلغًا، وهو يضع سماعة الهاتف.

حضر ألبرت، وقال: "ماذا عن عشائك، يا سيدي؟ أنت لم تأكل شيئًا، لكني أعتذر إليك لأنني نسيت الدجاجة واحترقت".

قال تومي: "لا أريد تناول شيء، لكني أريد شرابًا قويًا".

قال ألبرت: "وهو كذلك، يا سيدي".

بعد لحظات، جلب ألبرت شرابًا منعشًا تناوله تومي وهو يجلس على مقعده البالي لكنه مريح.

قال تومي: "يُخيل إليَّ الآن أنك تريد معرفة كل شيء؟".

قال ألبرت بنبرة محملة بشيء من الاعتذار: "أنا أعرف معظم الأمر في الواقع يا سيدي. نظرًا لأن الأمر يخص سيدتي، فقد سمحتُ لنفسي برفع السماعة الأخرى في غرفة النوم. أعتقد أنك لا تمانع في هذا يا سيدي بما أن الموضوع يخص سيدتي".

قال تومي: "لن ألومك، بل إنني في الواقع ممتن لهذا؛ لأنني لن أضطر لأن أشرح لك ما حدث".

قال ألبرت: "أنت تحدثت مع الجميع، أليس كذلك؟ المستشفى والطبيب ورئيسة الممرضات".

قال تومي: "لا حاجة لتعيد سرد ما حدث".

قال ألبرت: "مستشفى ماركت باسنج. إنها لم تقل كلمة عن هذه البلدة، ولم تترك عنوانًا أو شيئًا من هذا القبيل".

قال تومي: "إنها لم تخطط للذهاب لهذا المكان في البداية. حسبما فهمت، قام شخص على الأرجح بضربها على رأسها في مكان منعزل، ثم أخذها بسيارة وتركها على جانب الطريق،

بحيث يبدو أن هناك من صدمها بالسيارة وهرب. أيقظني الساعة السادسة والنصف غدًا. أريد السفر مبكرًا".

قال ألبرت: "أنا متأسف أن دجاجتك احترقت في الفرن مرة أخرى. لقد وضعتها فيه لتسخينها فقط ثم نسيتها".

قال تومي: "دعك من الدجاج. لطالما رأيتُ أنها طيور سخيفة تركض تحت السيارات وتصيح. ادفن جثة الدجاجة في الصباح الباكر، وأقم لها جنازة تليق بها".

سأله ألبرت: "إن زوجتك ليست على مشارف الموت، أليس كذلك، يا سيدي؟".

قال تومي: "هلا تكبح خيالاتك الميلودرامية. لو كنت تستمع جيدًا، لعرفت أنها تتعافى بشكل جيد، وتعرف من هي أو من كانت، والمكان الذي توجد فيه، وقد أكدوا لي هناك أنهم سيبقونها في المستشفى لحين وصولي وتحمل المسئولية عنها. بالتأكيد لن يُسمح لها بالخروج بمفردها والقيام ببعض أعمال التحري الحمقاء مرة أخرى".

قال ألبرت: "بمناسبة الحديث عن أعمال التحري ..."، ثم تردد في إكمال الجملة وهو يتنحنح.

قال تومي: "لا أريد الحديث عن هذه الأشياء تحديدًا. دعك من هذا، يا ألبرت. اشغل نفسك بتعلم المحاسبة أو البستنة أو شيء آخر".

قال ألبرت: "لقد كنت أفكر ... أعني أنه من منطلق الأدلة،..."

سأله تومي: "أية أدلة؟".

قال ألبرت: "لقد كنت أفكر في أشياء".

قال تومي: "هذا هو منبع كل المشكلات في الحياة؛ التفكير".

قال ألبرت مرة أخرى: "الأدلة. اللوحة هي دليل على سبيل المثال، أليس كذلك؟".

لاحظ تومي أن ألبرت علق لوحة المنزل المطل على القناة على الحائط.

استطرد ألبرت: "إذا كانت اللوحة دليلًا على شيء ما، فما الشيء الذي تعد اللوحة دليلًا عليه؟". شعر ألبرت بالحرج قليلًا من الرداءة التي صاغ بها العبارة، لكنه تابع قائلًا: "لا بد أنها تعني شيئًا ما. ما أفكر فيه إذا سمحت لي أن أذكره ..."

قال تومي: "قل ما عندك يا ألبرت".

قال ألبرت: "كنت أفكر في ذلك المكتب".

قال تومي: "مكتب؟!".

قال ألبرت: "أجل، ذلك المكتب الذي نقلته شركة نقل الأثاث مع المنضدة الصغيرة والمقعدين وأشياء أخرى. أنت قلت إنها مقتنيات عائلية، أليس كذلك؟".

قالت تومي: "كانت هذه الأشياء ملكًا لخالتي آدا".

قال ألبرت: "هذا ما كنت أعنيه يا سيدي. هذه هي الأماكن التي تجد فيها الأدلة. في المكاتب القديمة والأنتيكات".

قال تومي: "ربما".

قال ألبرت: "أعرف أن هذا ليس من شأني، وأفترض أنه ما كان يجب عليَّ البحث فيه، لكن بينما كنتَ بعيدًا عن المنزل، لم

أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة عليه".

قال تومي: "أتعني على المكتب؟".

قال ألبرت: "أجل، فقط من أجل رؤية ما إذا كان هناك دليل ما. إن مكاتب مثل هذه قد تحوي أدراجًا سرية".

قال تومي: "ربما".

قال ألبرت: "ومن ثم ربما يكون هناك دليل مخبأ في الدرج السري".

قال تومي: "هذه فكرة معقولة، لكن على حد علمي، لا يوجد سبب يدفع الخالة آدا لإخفاء أشياء في أدراج سرية".

قال ألبرت: "لا يسعك معرفة ما تفكر فيه السيدات المسنات؛ حيث يروقهن دس الأشياء في أماكن خفية مثل الغراب أو العقيق، لقد نسيتُ أيهما يفعل ذلك. تجدهن يحتفظن بوصية سرية أو شيء مكتوب بحبر سري أو كنز ما".

قال تومي: "أنا آسف يا ألبرت، لكني مضطر لأن أخيب ظنك؛ فأنا متأكد أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل في ذلك المكتب العائلي العتيق اللطيف الذي كان ملكًا للخال ويليام، وهو رجل آخر تحول لشخص سريع الغضب في أواخر حياته بالإضافة لإصابته بالصمم التام".

قال ألبرت: "ما فكرتُ فيه يا سيدي هو أنه لن يضر لو ألقيتُ نظرة عليه، أليس كذلك؟"، ثم أضاف مبررًا: "إنه يحتاج إلى تنظيف على أية حال. أنت تعرف كيف تكون حالة هذه الأشياء برفقة السيدات المسنات؛ فهن لا يقمن بإفراغ المحتويات غير

الضرورية نظرًا لأمراض الروماتيزم وصعوبة التنقل".

فكر تومي لحظات، وتذكر أنه وتوبينس ألقيا نظرة سريعة على الأدراج، ووضعا محتوياتها كما هي في مظروفين كبيرين، وأخرجا من الأدراج السفلية للمكتب بضع بكرات من خيوط الصوف وسترتين ووشاحًا مخمليًّا أسود وأغطية وسادات، ووضعا هذه الأشياء مع ملابس وأشياء أخرى بغرض التخلص منها، كما تفحصا أيضًا الأوراق التي كانت بالمظروفين عند عودتهما إلى المنزل، لكنهما لم يجدا فيها شيئًا مهمًّا.

قال ألبرت: "لقد تفحصنا محتويات المظروفين، بل وقضينا أمسيتين في ذلك في الواقع. كانت المحتويات عبارة عن خطاب أو اثنين قديمين ممتعين، وبعض الوصفات لطهي اللحم، وبعض الوصفات الأخرى لحفظ الفاكهة، وبعض سجلات وكوبونات تموينية، وأشياء تعود إلى وقت الحرب. لم يكن من بين المحتويات شيء مهم".

قال ألبرت: "حسنًا. هذه مجرد أوراق وأشياء مألوفة مثلما تقول. مجرد أغراض عادية يحتفظ بها الجميع في المكاتب والأدراج، لكني أعني الأشياء السرية الحقيقية. عندما كنت صبيًّا، عملتُ لدى تاجر أنتيكات لمدة ستة أشهر، وقد تعرفت على الأدراج السرية من خلال عملي. عادة ما تتشابه أنماط هذه الأدراج، وهي تنحصر في ثلاثة أو أربعة أنواع معروفة. ألا تعتقد أنه يجب علينا يا سيدي إلقاء نظرة؟ أنا لم أحب فعل هذا في أثناء غيابك، وإلا كان هذا تبجحًا مني". رمق ألبرت تومي بنظرة تشبه نظرة كلب يستعطف صاحبه.

قال تومي مستسلمًا: "حسنًا، يا ألبرت. لنذهب ونَر".

قال تومي في نفسه وهو يقف بجانب ألبرت وينظران إلى المكتب الذي ورثه عن خالته آدا: "مكتب لطيف، محتفظ بحالته الجيدة، وبطلائه القديم الجميل، ويدل على جودة وبراعة حرفيي الماضي".

ثم قال لألبرت: "هيا، ابدأ. الكرة الآن في ملعبك. لكن لا تفسد شيئًا في المكتب".

قال ألبرت: "لقد كنت حذرًا للغاية؛ فلم أكسر شيئًا فيه ولم أستخدم سكينًا أو أي شيء من هذا القبيل. أولًا، سنقوم بإنزال هذا القلاب، ونضعه على هذين اللوحين اللذين ينسحبان للخارج. أترى، يتم إنزال القلاب بهذه الطريقة، وكانت خالتك آدا تجلس عليه. كانت لديها حافظة أوراق أنيقة موجودة في الدرج الأيسر".

قال تومي: "ثمة درجان هنا".

سحب تومي إلى الخارج درجين أفقيين أنيقين ليسا عميقين.

قال ألبرت: "يمكنك أن تضع أوراقًا في هذين الدرجين، لكن ليس فيهما أي مخبأ سري. عادة ما يكون المخبأ السري في الدرج الأوسط من المكتب، وما عليك سوى أن ترفع قاعه فتجد المكان، لكن هناك أماكن ومسارات أخرى، وهذا المكتب يبدو من النوع الذي يخفي في داخله بئرًا".

قال تومي: "ما تقوله ليس سرًا عصيًا، أليس كذلك؟ كل ما عليك فعله هو أن ترفع لوحًا من الخشب".

قال ألبرت: "الخدعة هنا أن الأمر يبدو وكأنك اكتشفت كل شيء؛ فأنت ترفع اللوح، وتجد تجويفًا، وتظن أن المرء وضع فيه كل الأشياء التي يحاول إخفاءها، لكن هذا ليس كل شيء، فكما ترى، هناك لوح بارز يقسم التجويف، ويمكنك رفع هذا اللوح".

قال تومي: "أجل، أرى ذلك. ارفعه".

قال ألبرت وهو يرفعه: "وهنا التجويف السري الآخر".

قال تومي: "لكن لا يوجد شيء فيه".

قال ألبرت: "ظاهريًا فقط، لكن إذا أدخلت يدك في ذلك التجويف وأخذت تبحث يمينًا ويسارًا، ستجد درجين صغيرين على كل جانب، وهناك قطع على شكل نصف دائرة أعلى التجويف، وبإمكانك دس أصبعك هناك، وسحب القطع برفق إلى الخارج نحوك". كانت يد ألبرت تتلوى داخل التجويف في أثناء هذا الشرح، واستطرد قائلاً: "أحيانًا تعلق هذه الأدراج بعض الشيء. انتظر. انتظر. ها نحن ذا".

سحب ألبرت بأصبعه شيئًا من الداخل نحوه برفق إلى أن ظهر الدرج الضيق الصغير، فأخرجه ووضعه أمام تومي مثلما يضع كلب عظمته أمام سيده.

وقال: "انظر إلى ذلك يا سيدي. هناك شيء داخل هذا المظروف الرفيع الطويل. الآن سنبحث في الجهة الأخرى".

استخدم ألبرت يده الأخرى وواصل البحث بيده الملتوية، وسرعان ما أخرج درجًا ثانيًا ووضعه بجانب الأول.

قال ألبرت: "هناك مظروف آخر مغلق بأختام قام شخص بإخفائه في وقت ما. لم أحاول فتح أي منهما؛ فلم أكن لأفعل

هـذا في غيابـك. لقد انتظرتك لتفعل ذلك، لكن مـا أقوله إنهما ربما يكونان بمنزلة *أدلة*".

قـام الاثنـان معًـا بإخـراج محتويـات الدرجيـن المتربيـن، وأمسك تومي أولًا مظروفًا مغلقًا ملفوفًا بالطول بحبل مطاط، والذي قُطع بمجرد ملامسة تومي له.

قال ألبرت: "يبدو قيمًا".

نظر تومي إلى المظروف، والذي كان مكتوبًا عليه: "سري".

قال ألبرت: "أرأيت؟ مكتوب عليه 'سري'. إنه دليل".

أخـرج تومـي محتويـات المظـروف، فوجـد أنها نصـف ورقة مكتـوب فيهـا بخط باهت غير منمق. مال ألبرت نحو كتف تومي وهو يأخذ أنفاسًا متثاقلة.

قـرأ تومـي محتـوى الورقـة: "وصفـة السيـد ماكدونالـد لكريمـة السلمـون، وقـد أُعطيت إلـيَّ كمزية خاصـة. المكونات: كيلـو سلمون متوسط الحجم، ونصف لتر من كريمة الجيرسي، وخيـارة طازجـة". توقف تومـي عن قراءة الورقـة وقال لألبرت: "أنا متأسف، يا ألبرت. هذا الدليل سيقودنا إلى وجبة جيدة. لا شك في ذلك".

همهم ألبرت بأصوات تنم عن السخط وخيبة الأمل.

قال تومي: "لا عليك. لنجرب هذا المظروف الآخر".

لـم يبدُ المظروف المغلـق الثاني قديمًا للغايـة، وكان مغلقًا بخاتميـن مـن الشمع الرمادي الباهـت، وكان كل خاتم على شكل وردة برية.

قال تومي: "مظروف جميل وأنيق لا يتماشى وطبيعة الخالة آدا. أتوقع أن يضم وصفة لطهي فطيرة اللحم".

فتح تومي المظروف، ورفع حاجبيه في دهشة، فقد سقطت من المظروف عشر ورقات نقدية من فئة الخمسة جنيهات كانت مطوية بعناية.

قال تومي: "هذه النقود من نوعية الأوراق القديمة الرقيقة الجيدة، تلك النوعية التي كنا نستخدمها وقت الحرب، لكن تداولها لم يعد ساريًا هذه الأيام".

قال ألبرت: "مال؟ لماذا كانت بحاجة إلى هذا المال؟".

قال تومي: "هذه مدخرات طوارئ سيدة عجوز. دائمًا ما كانت الخالة آدا تدخر أموالًا تحسبًا للطوارئ. وقد أخبرتني منذ سنوات بأنه يجب على كل امرأة أن يكون معهًا دائمًا خمسون جنيهًا على شكل ورق نقدية فئة خمسة جنيهات تحسبًا لأي شيء".

قال ألبرت: "حسنًا. أعتقد أنه لا يزال بالإمكان الانتفاع بها".

قال تومي: "أنا أيضًا لا أعتقد أن هذه النقود صارت بلا نفع تمامًا؛ إذ من الممكن تغييرها من البنك".

قال ألبرت: "يتبقى المظروف من الدرج الآخر".

كان المظروف التالي أكبر حجمًا، وبدا أنه يضم الكثير داخله، ومغلقًا بثلاثة أختام حمراء كبيرة تبدو مهمة. كان مكتوبًا على المظروف من الخارج بالخط الرديء نفسه "في حالة موتي،

يجب إرسال هذا المظروف دون أن يُفتح إلى المحامي الخاص بي، وهو السيد روكبري بمكتب روكبري وتومبكينز، أو إلى ابن أختي توماس بيريسفورد. لا يُسمح لأي شخص آخر بفتحه".

كان المظروف يضم عدة أوراق مكتوبة بخط صغير سيئ لا يكاد يُقرأ؛ لذا بدأ تومي في القراءة بصعوبة.

"أنا آدا ماريا فانشاو، أدوّن هنا بعض الأمور التي نمت إلى علمي وأخبرني بها أشخاص يقيمون في دار المسنات هذه، واسمها دار قمة الجبل المشمسة. لا يمكنني الجزم بصحة أي من هذه المعلومات، لكن يبدو أن هناك بعض الأسباب التي تدعو لتصديق أن هناك أنشطة مشبوهة، وربما إجرامية، تحدث هنا أو حدثت هنا. إن إليزابيث مودي ـ وهي امرأة حمقاء لكني لا أظنها كاذبة ـ تقول إنها اكتشفت قاتلة معروفة بيننا. ربما توجد بيننا من تقتل بالسم. أنا نفسي أفضل الاحتفاظ بذهن منفتح، لكن يجب أن أظل حذرة، وقد نويتُ تدوين أية حقائق أعلم بها. ربما يكون الأمر برمته غير صحيح، وأنا أطالب المحامي الخاص بي، أو ابن أختي توماس بيريسفورد، بالقيام بتحقيق كامل".

قال ألبرت بنبرة انتصار: "لقد أخبرتك. هذا دليل!".

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الرابع

هذه هي دار العبادة،
وهذا هو برجها.
افتح الأبواب
وستجد روادها

الفصل الرابع عشر

الكثير من التفكير

قالت توبينس: "أعتقد أن ما يجب علينا فعله هو أن نفكر".

بعد لم الشمل السعيد بزوجها في المستشفى، سُمح لتوبينس بمغادرة المستشفى، والآن يستعرض الزوجان المخلصان ما لديهما من معلومات وهما يجلسان في غرفة الجلوس بأفضل جناح في فندق لام آند فلاج بماركت باسنج.

قال لها تومي: "دعك من التفكير. أنت تعلمين ما أخبرك به الطبيب قبل أن يسمح لك بمغادرة المستشفى. ممنوع القلق، ممنوع الإجهاد الذهني، ويُسْمَح لك بأقل قدر ممكن من النشاط البدني، وأخذ الأمور ببساطة".

فقالت توبينس: "وما الذي أفعله خلاف ذلك؟ إن قدمي مرفوعة من على الأرض، ورأسي مسنود على وسادتين. أما بالنسبة إلى التفكير، فالتفكير ليس بالضرورة إجهادًا ذهنيًا؛ فأنا لا أحل مسائل رياضية، أو أدرس الاقتصاد، أو أحسب ميزانية المنزل. إن نوعية التفكير التي أقوم بها هي الاستلقاء في ارتياح، وإبقاء الذهن منفتحًا في حال توارد إليه شيء مثير أو مهم. على أية حال، أليس من الأفضل أن أفكر قليلًا وقدمي مرفوعة

مـن علـى الأرض ورأسي مستند على وسادتين، بدلًا من أن أذهب للقيام بأشياء مرة أخرى".

قـال تومـي: "أنـا بالتأكيد لا أريـدك أن تذهبـي للقيام بهذه الأشيـاء مرة أخرى، فهذا أمور قد ولّت. أتفهمين هذا؟ ستظلين ساكنة على المستوى البدني، يا توبينس. وأنا لن أتركك تغيبين عن نظري قدر الإمكان؛ لأني لا أثق بك".

قـال توبينـس: "حسنًـا. انتهـت المحاضـرة. الآن دعنـا نفكر معًـا. لا تبـالِ بمـا قالـه الأطبـاء لـك، فلو أنـك تعرف مقـدار ما أعرفه عن الأطباء..."

قاطعهـا تومي قائلًا: "دعكِ من الأطباء. ستفعلين ما *أمليه عليكِ*".

قالـت توبينـس: "حسنًا. اطمئـن؛ فأنا ليست لـديَّ رغبة في الوقـت الحالي للقيام بنشـاط بدني. المهم الآن أن نستعرض ما لدينـا مـن معلومات؛ فقـد اطلعنا على كثير مـن الأمور. الوضع سيئ وفوضوي مثل سوق البضائع المستعملة في القرى؟".

قال تومي: "ماذا تعنين بالأمور؟".

قالـت توبينس: "أعنـي الحقائق. جميع الحقائق. الكثير من الحقائـق، وليس فقط الحقائق، بل أيضًا الشائعات والاقتراحات والأساطيـر والقيـل والقـال. الأمـر أشبـه بصنـدوق بـه صناديق مختلفة صغيرة ومدفونة في بئر عميقة".

قال تومي: "بئر عميقة هي الكلمة المناسبة".

قالت توبينس: "لا أعرف ما إذا كنت تهزأ بي أم تتحدث بشكل طبيعي. على أية حال، أنت تتفق معي، أليس كذلك؟ لدينا *الكثير*

للغاية من كل شيء. هناك أشياء خطأ وأشياء صائبة وأشياء مهمة وأشياء غير مهمة، وجميعها مختلطة بعضها ببعض، ونحن لا نعرف من أين نبدأ".

قال تومي: "أنا أعرف".

قالت توبينس: "حسنًا. من أين ستبدأ؟".

قال تومي: "سأبدأ من تعرضك لضربة على رأسك".

فكرت توبينس لحظات، ثم قالت: "لا أرى هذه كنقطة بداية. أعني أن هذا آخر ما حدث، وليس أول شيء".

قال تومي: "إنه أول شيء يتبادر إلى ذهني. أنا لا أقبل بأن يضرب أحد زوجتي، فهذه نقطة بداية حقيقية، وليست أوهامًا. هذا شيء حقيقي وقع *فعلًا*".

قالت توبينس: "أتفق معك تمامًا؛ فهو شيء قد حدث، وقد حدث لي، وأنا لم أَنْسَه وأفكر فيه منذ أن استعدت قدرتي على التفكير".

سألها: "ألديكِ أية فكرة عمن فعل هذا؟".

قالت: "للأسف لا. لقد كنت منحنية فوق شاهد قبر، وباغتني شخص ما وحدث ما حدث".

قال: "ومن قد يكون هذا الشخص؟".

قالت: "أفترض أنه من بلدة سوتون تشنسلر، لكني في الوقت نفسه أجده احتمالًا ضعيفًا؛ فأنا بصعوبة تحدثت مع أي شخص".

قال: "رجل الدين؟".

قالت: "لا يمكن أن يكون رجل الدين؛ أولًا لأنه رجل مسن لطيف. ثانيًا، لأنه لا يمتلك القوة لفعل هذا. ثالثًا، لأنه يتنفس بأصوات مسموعة نظرًا لإصابته بالربو؛ فلا يمكن أن يتسلل من خلفي دون أن أسمعه".

قال: "إذن، إذا كنت تستبعدين رجل الدين ..."

قاطعته متسائلة: "ألا تستبعده أنت؟".

قال تومي: "أنا أيضًا أستبعده، فكما تعلمين، لقد قابلته وتحدثت إليه. إنه يعظ بدار العبادة منذ سنوات، والجميع يعرفونه. أعتقد أنه يمكن لفاسق أن يتظاهر بأنه رجل دين، لكن ليس لأكثر من أسبوع أو نحو ذلك، ناهيك عن عشر أو إحدى عشرة سنة".

قالت توبينس: "حسنًا، المشتبه به التالي هو السيدة نيلي بلاي، ولا أستطيع التفكير في سبب يجعلها تفعل هذا؛ إذ لا يمكن أن تكون قد ظنت أنني أحاول سرقة شاهد قبر".

قال: "هل تشعرين بأنها ربما تكون الفاعلة؟".

قالت: "لا أظن هذا، وإن كان *بإمكانها ذلك* بالطبع. فهي لو أرادت أن تتبعني وترى ما أفعله وتضربني بشيء على رأسي، فإنها ستنجح في ذلك. ومثل رجل الدين، هي تعيش بسوتون تشنسلر، وتظل تدخل وتخرج من منزلها لفعل هذا أو ذاك، وربما لمحتني وأنا أقف في ساحة دار العبادة، وتسللت من خلفي على أطراف أصابعها بدافع الفضول، ورأت أنني أتفحص شاهد قبر، ولاقى فعلي هذا اعتراضًا منها لسبب ما؛ فضربتني على رأسي بإحدى الزهريات المعدنية أو شيء بالقرب منها. لا تسألني عن *سبب هذا*؛ فلا يبدو أن هناك سببًا معقولا".

سألها: "من المشتبه به التالي؟ السيدة كوكريل، إذا كان هذا اسمها؟".

قالت توبينس: "تقصد السيدة كوبلي. لا، ليست هي بالتأكيد".

قال: "لماذا أنت متأكدة من هذا؟ إنها تعيش في سوتون تشنسلر، ومن الممكن أن تكون قد رأتك وأنت تخرجين من المنزل، وربما تتبعتك".

قال توبينسن: "أوه، أجل، لكنها ثرثارة".

سألها: "وما علاقة الثرثرة بالأمر؟".

قالت توبينس: "لو كنتَ قضيتَ أمسية بأكملها تستمع إليها مثلي، ستدرك أن أية امرأة تتحدث بهذا السيل الغزير الذي لا يتوقف من الكلمات لا يمكن أن تكون امرأة أفعال أيضًا! كانت تتحدث وهي تتحرك في كل مكان حولي بأعلى صوت".

فكر تومي في كلامها.

ثم قال: "حسنًا. أنت تحسنين الحكم في هذه النوعية من الأمور. لنستبعد السيدة كوبلي. من لدينا أيضًا؟".

قالت توبينس: "آموس بيري. هذا هو الرجل الذي يعيش في منزل القناة (يجب أن أطلق عليه منزل القناة؛ لأن لديه الكثير من الأسماء الغريبة الأخرى، كما أن هذا هو اسمه في الأصل) وهو زوج الساحرة الطيبة. هناك شيء غريب فيه، وهو محدود الفكر لكنه قوي البنية، وبإمكانه ضرب أي شخص على رأسه إذا أراد ذلك، بل إنني أظن أنه قد يريد ذلك في ظروف معينة، وإن كنت لا أعرف لماذا قد يفعل هذا بي. إن احتمالية

قيامه بهذا أكبر من احتمالية السيدة بلاي التي تبدو بالنسبة إليَّ مجرد واحدة من هؤلاء النساء ذوات الكفاءة المرهقات اللائي يدرن مؤسسات دينية ويدسسن أنوفهن في كل شيء. لكنها ليست من النوعية التي قد تصل بها الحال إلى الاعتداء البدني إلا لسبب عاطفي قوي"، ثم أردفت وقد انتابتها قشعريرة صغيرة: "أتعرف، لقد شعرتُ بالخوف من آموس بيري في المرة الأولى التي مرة رأيته فيها. كان يريني حديقته، وشعرتُ فجأة بأني أريد أن أتحاشى غضبه أو مقابلته في طريق مظلم ليلًا. لقد أحسستُ بأنه رجل لا يريد أن يكون عنيفًا في أغلب الأحيان، لكنه ربما يستحيل عنيفًا إذا دفعه أحد إلى هذا".

قال تومي: "حسنًا. آموس بيري. رقم واحد".

قالت توبينس ببطء: "وهناك زوجته الساحرة الطيبة. كانت لطيفة معي وقد أحببتها. أنا لا أتمنى أن تكون هي الفاعلة، ولا أظن أنها الفاعلة، لكنها مشغولة بأشياء لها علاقة بالمنزل. وهذه نقطة أخرى يا تومي؛ فنحن لا نعرف ما الشيء المهم في كل هذا. لقد بدأتُ أشك في أن كل شيء لا يدور حول المنزل، وأن *المنزل* ليس النقطة المحورية في الأمر. إنها اللوحة. هذه اللوحة تعني شيئًا ما، أليس كذلك، يا تومي؟ أعتقد ذلك".

قال تومي: "أجل، أعتقد هذا أيضًا".

قالت توبينس: "إنني جئتُ هنا في محاولة لإيجاد السيدة لانكستر، لكن يبدو أن لا أحد سمع بها من قبل. فتساءلتُ عما إذا كنت أسلك طريقًا خطأ، وأن السيدة لانكستر في خطر (لأني ما زلت متأكدة من ذلك) *لأنها تمتلك هذه اللوحة*. أنا لا أعتقد أنها تواجدت بسوتون تشنسلر أبدًا، لكنها إما أُعطيت أو اشترت

لوحة المنزل هنا. وتلك اللوحة تعني شيئًا ما، وهي تمثل تهديدًا لشخص بطريقة ما".

قال تومي: "السيدة كاكاو أو السيدة مودي أخبرت الخالة آدا بأنها عرفت أن شخصًا ما في دار مسنات قمة الجبل المشمسة ضالع 'بأنشطة إجرامية'. أعتقد أن الأنشطة الإجرامية متعلقة باللوحة وبالمنزل المطل على القناة، وربما هناك طفل قُتل هناك".

قالت: "لقد أعجبت الخالة آدا بلوحة السيدة لانكستر، فأعطتها إياها، وربما تحدثت عنها بشأن اللوحة والمكان الذي حصلت عليها منه ومن أعطاها لها ومكان المنزل".

قال: "لقد قُتلت السيدة مودي؛ لأنها تعرفت بشكل مؤكد على شخص 'ضالع بأنشطة إجرامية'".

قالت توبينس: "أخبرني مرة أخرى بحديثك مع الدكتور موراي، فبعد أن حدثك بشأن السيدة كاكاو، مضى للحديث عن أنواع معينة من القتلة وأعطاك أمثلة واقعية، ومن بينها امرأة كانت تدير دارًا للمسنات. أتذكر لكن ليس بوضوح أنني قرأت عن الحادثة، لكني لا أتذكر اسم المرأة. لكن الفكرة أن النزيلات كن يعطينها ما لديهن من مال، في مقابل أن يعشن حتى مماتهن وهن يحظين بالعناية وحسن التغذية دون أن يقلقن بشأن المال. وقد كن *سعيدات*، إلا أنهن عادة ما كن يمتن في خلال عام، وهن راقدات في أسرَّتهن في سلام. وأخيرًا بدأ الناس ملاحظة هذا، وحوكمت المرأة، وأدينت بارتكاب القتل العمد، لكنها لم تكن تشعر بأي تأنيب للضمير، وترى أنها كانت تسدي صنيعًا للنزيلات الطاعنات في السن".

قال تومي: "أجل، هذا صحيح. لكني لا أتذكر اسم المرأة الآن".

قالت توبينس: "هذا ليس مهمًا ثم ذكر لك الطبيب حالة أخرى، وهي امرأة كانت تعمل مدبرة منزل أو طاهية، وقد خدمت عائلات مختلفة. أحيانًا لم يكن يحدث شيء، وأحيانًا كان يقع تسمم جماعي بسبب الطعام، وكان بعضهم يتعافى".

قال تومي: "كانت تعد مجموعة من السندويتشات، وتقدمها للأسرة عند خروجهم في نزهة. كانت امرأة لطيفة ومتفانية في خدمتها، وعندما كان يحدث تسمم جماعي، كانت تتظاهر هي الأخرى بأعراض التسمم، ثم ترحل بعد ذلك، وتذهب إلى مكان آخر في جزء مختلف من إنجلترا. وقد استمر ذلك بضع سنوات".

قالت توبينس: "هذا صحيح. أعتقد أن لا أحد فهم *السبب* الذي دفعها لفعل هذا. هل كان الأمر يمثل إدمانًا بالنسبة إليها أو عادة لا يمكن التخلص منها؟ هل كانت تفعل هذا بغرض الاستمتاع؟ لم يعرف أحد السبب في الحقيقة. لم يكن يبدو أنها تحمل ضغينة شخصية للأشخاص الذين بدت أنها السبب في موتهم. أهناك خلل في عقلها؟".

قال تومي: "أجل، لا بد أن هذا صحيح، لكن أظن أن أحد الأطباء النفسيين سيتحذلق ويجري قدرًا كبيرًا من التحليل، ويتوصل إلى أن كل شيء له علاقة بعصفور كناري كانت تربيه أسرتها، وكانت هذه المرأة تعرفه منذ سنوات بعيدة وقت أن كانت طفلة، وقد أصابها هذا العصفور بصدمة أو أزعجها بشكل ما، لكن على أية حال، هذا ما كنت تفعله بالناس".

قال تومي: "الحالة الثالثة غريبة أيضًا. كانت امرأة فرنسية تعاني أشد المعاناة بسبب وفاة زوجها وطفلها. كانت مفطورة الفؤاد لكن كانت تُعرف بأنها المرأة العطوف".

قالت توبينس: "هذا صحيح. أتذكر هذا. كانوا يطلقون عليها المرأة العطوف. كانت تذهب إلى كل الجيران وتعتني بهم عند مرضهم، لاسيما عندما يمرض الأطفال. كان يبدو أنها تعتني بالأطفال في تفانٍ، لكن بعد وقت، كان الأطفال يتحسنون تحسنًا طفيفًا ظاهريًا، ثم تزداد حالتهم سوءًا ويموتون. فكانت المرأة تبكي بالساعات، وتذهب إلى الجنازات، ويقول الجميع إنهم لا يعرفون ما كان سيفعلونه دون هذه المرأة التي اعتنت بأطفالهم وقدمت كل ما بوسعها".

قال: "لماذا تستعرضين كل هذا مرة أخرى، يا توبينس؟".

قالت: "لأني أتساءل ما إذا كان دكتور موراي قد ذكر هذه الحالات لسبب ما".

قال: "أتعنين أنه ربط ..."

قالت: "أعتقد أنه وجد رابطًا مشتركًا بين ثلاث حالات كلاسيكية، وحاول أن يرى أيًا منها سينطبق أكثر على دار مسنات قمة الجبل المشمسة. أعتقد أن الحالات الثلاث قد ينطبقن بطريقة ما على الدار. القصة الأولى قد تنطبق على السيدة باكارد، بوصفها مديرة ذات كفاءة لدار مسنات".

قال: "أنت دائمًا ما توجهين سهام الانتقاد إلى هذه المرأة، لكني دائمًا أجدها امرأة لطيفة".

قالت: "أظن أن الناس *يستلطفون* القتلة إلى حد كبير، مثلما يبدو النصابون والمحتالون غاية في الأمانة دائمًا، أعتقد

أن القتلة يتظاهرون بصفات لطيفة، وخاصة لين القلب. على أية حال، السيدة باكارد امرأة ذات كفاءة للغاية، وتحت يدها كل الوسائل التي تمكنها من تزييف وفاة طبيعية دون إثارة الشبهات، ولم يكن أحد ليشك فيها إلا امرأة مثل السيدة كاكاو، التي ربما شكت فيها لأنها مجنونة وبإمكانها فهم المجانين، أو ربما قابلتها مصادفة في مكان آخر قبل ذلك".

قال: "لا أعتقد أن السيدة باكارد ستستفيد ماليًا من وفاة إحدى نزيلاتها المسنات".

قالت توبينس: "أنت لا تعرف بشكل مؤكد. فقد يكون من الأذكى ألا تستفيد من موتهن جميعًا، بل من واحدة أو اثنتين من النزيلات الثريات اللاتي سيتركن لها الكثير من المال، لكن مع مراعاة أن تكون هناك بعض الوفيات الطبيعية الأخرى التي لا تستفيد السيدة باكارد منها شيئًا. ربما ـ أقول ربما ـ انتاب الدكتور موراي شك إزاء السيدة باكارد، لكنه حدَّث نفسه بأن هذا هراء وأوهام، غير أن الفكرة علقت بذهنه. القصة الثانية قد تنطبق على خادمة أو طاهية أو حتى ممرضة. ربما هناك امرأة موثوق بها في منتصف العمر تم توظيفها بالمكان، لكنها مخبولة بشكل ما، وربما تحمل كرهًا وضغائن لبعض النزيلات هناك. لا يمكننا مواصلة التخمين في هذه النقطة؛ لأننا لا نعرف أحدًا بما يكفي من العاملين هناك".

قال: "والقصة الثالثة؟".

اعترفت توبينس قائلة: "الثالثة هي الأكثر صعوبة؛ فهي عن امرأة متفانية ومخلصة".

قال تومي: "ربما أضاف هذا ليعزز وجهة نظره وحسب. إنني أتساءل بشأن الممرضة الأيرلندية؟".

قالت: "أتقصد الممرضة اللطيفة التي أعطيناها الوشاح الفرو؟".

قال: "أجل، الممرضة اللطيفة التي كانت الخالة آدا تحبها. الممرضة الطيبة التي بدت أنها تحب جميع النزيلات، وتحزن عند موت إحداهن. لقد كانت قلقة للغاية وهي تتحدث معنا، أليس كذلك؟ أنت قلت هذا. لقد أخبرتنا بأنها ستغادر الدار، ولكنها لم تخبرنا بالسبب".

قالت: "أعتقد أنها ربما تكون من النوع الرقيق للغاية. لا يفترض بالممرضات أن يكن رقيقات إلى هذا الحد؛ فهذا يضر بعملهن؛ حيث يُنصحن بالتحلي بهدوء الأعصاب والفاعلية والثقة".

قال تومي مبتسمًا: "الممرضة بيريسفورد تتحدث".

قالت توبينس: "دعنا نعد إلى اللوحة ونركز عليها؛ لأن ما أخبرتني به بشأن زيارتك للسيدة بوسكوان يبدو مشوقًا. إنها تبدو... تبدو امرأة *مشوقة*".

قالت تومي: "كانت امرأة مشوقة، وأعتقد أنها أكثر شخص أثار انتباهي في هذا الموضوع الغريب. يبدو أنها تعرف أشياء معرفة حقيقية، وليس مجرد تخمين، وقد شعرتُ بأنها تعرف شيئًا عن هذا المكان أنا لا أعرفه، وربما ولا أنت كذلك. لكنها

تعرف *شيئًا ما*".

قالت توبينس: "إنه ما قالته عن أن القارب لم يكن مرسومًا في اللوحة أصلاً أمر غريب. لماذا برأيك يوجد قارب في اللوحة الآن؟".

قال تومي: "لا أعرف".

قالت: "هل كان هناك أي اسم مكتوب على القارب؟ لا أتذكر أني رأيت اسمًا، لكني لم أدقق النظر في القارب".

قال: "مكتوب عليه *ووتر ليلي*".

قالت: "اسم ملائم لقارب... بماذا يذكرني؟".

قال: "ليست لديَّ فكرة".

قالت: "وقد كانت الزوجة متأكدة أن زوجها لم يرسم هذا القارب. لكنه ربما أضافه لاحقًا".

قال: "لقد نفت ذلك وكانت متأكدة من نفيها".

قالت: "هناك بالطبع احتمال آخر لم نفكر فيه. فيما يتعلق بالضربة التي تلقيتها على رأسي، ربما يكون الفاعل شخصًا من خارج البلدة وقد تبعني من ماركت باسنج في ذلك اليوم ليرى ما أنوي فعله. لقد ذهبت إلى كل مكاتب سماسرة المنزل هنا، لكنهم حاولوا صدي عن المنزل، وكانوا مراوغين، مراوغين أكثر من الطبيعي. كان النوع نفسه من المراوغة التي واجهتنا عندما حاولنا إيجاد المكان الذي ذهبت إليه السيدة لانكستر. محامون، وبنوك، ومالك للمنزل لا يمكن التواصل معه لأنه خارج البلاد. إنه نمط المراوغة نفسه، وربما أرسلوا شخصًا ليتبع سيارتي؛ فقد أرادوا معرفة ما أفعله، وفي اللحظة المناسبة، ضُربت على

رأسي، وهذا يقودنا إلى شاهد القبر في ساحة دار العبادة. لماذا لا يريد شخص ما مني أن أطلع على شواهد قبور قديمة؟ إنها جميعًا منزوعة من مكانها. أعتقد أن مجموعة من الصبية قد سئموا تخريب أكشاك الهواتف؛ فذهبوا إلى ساحة دار العبادة ليستمتعوا بانتهاك الحرمات".

قال: "أنت قلت إنه كانت هناك كلمات مكتوبة أو بالأحرى منقوشة؟".

قالت: "أجل، نُقشت بأزميل لكن بشكل سيئ. كان هناك اسم على الشاهد وهو ليلي ووتز، وسنها سبع سنوات. كان هذا الجزء مكتوبًا بخط واضح، وهناك الجزء الآخر الذي يقول 'مَن يُلحق مكروهًا... بأحد هؤلاء الصغار... يُعلَّق في عنقه حجر الرحى'".

قال: "يبدو مألوفًا".

قالت: "أجل، فهي نص ديني، لكنها كُتبت بيد شخص ليس متأكدًا من الكلمات التي يريد تذكرها".

قال: "الأمر برمته غريب".

قالت: "ولِمَ قد يعترض أحد على ما كنت أفعله؟ لقد كنت فقط أحاول مساعدة رجل الدين، ورجل الدين الذي كان يحاول إيجاد طفلته المفقودة. ها نحن قد عدنا إلى موضوع الطفل المفقود مرة أخرى. لقد تحدثت السيدة لانكستر عن طفلة مفقودة مدفونة خلف مدفأة، وثرثرت السيدة كوبلي بشأن سيدات مدفونات، وعن أطفال مقتولين، وأم قتلت طفلتها، وعاشق وطفلة غير شرعية، وجريمة انتحار. إنها حكايات وشائعات وأقاويل وأساطير مُزجت بعضها ببعض بطريقة

فوضوية. غير أن هناك حقيقة واحدة، يا تومي، وهي ليست بشائعات أو أساطير".

قال: "ماذا تقصدين؟".

قال: "أعني أن هناك دمية بالية سقطت في مدخنة مدفأة منزل القناة هذا، وهي موجودة منذ وقت طويل، ومغطاة بالسخام والركام".

قال تومي: "من المؤسف أنها ليست في حوزتنا".

قالت توبينس بنبرة انتصار: "*إنها* بحوزتي".

سألها: "هل أخذتِها معكِ من المنزل؟".

قالت: "أجل، لقد أذهلتني؛ ففكرتُ أن آخذها وأفحصها. لم يكن يريدها أحد، وتخيلتُ أن بيري وزوجته سيرميانها في القمامة. إنها معي هنا".

ثم نهضت من على الأريكة، وذهبت إلى حقيبتها، وقلَّبت فيها، ثم أخرجت شيئًا ملفوفًا في جريدة.

وقالت: "ها هي يا تومي. ألقِ نظرة عليها".

فك تومي الجريدة ببعض الفضول، ونظر إلى الدمية البالية بإمعان. كانت اليدان والرجلان مرتخية، وقد سقطت قطع من الملابس الباهتة عندما لامس تومي الدمية. بدا أن الدمية مصنوعة من جلد رفيع تمت خياطته فوق جسم كان محشوًّا بنشارة الخشب، لكنه الآن صار مترهلاً بسبب تسرب الكثير من نشارة الخشب منه. أمسك تومي بالدمية في رفق شديد، لكن جسدها تفكك فجأة، وانفتح كجرح كبير، وسقط منه الكثير من نشارة الخشب فيها حصوات صغيرة تدحرجت على

الأرض. انحنى تومي ليلتقطها بعناية.

قال لنفسه: "يا إلهي! يا إلهي!".

قال توبينس: "هذا غريب. إنها مليئة بالحصى. هل تعتقد أن هذا يعني أن المدخنة تنهار؟ ربما بدأ الجبس في التفكك؟".

قال تومي: "لا، لقد كانت هذه الحصوات *داخل* الدمية".

جمع تومي الحصوات بعناية، ثم دس أصبعه داخل الدمية، فسقطت بضع حصوات أخرى. أخذ تومي الحصوات، وذهب إلى النافذة، وقلّبها في يده، فنظرت له توبينس وهي لا تفهم ما يفعله.

وقالت: "إن حشو الدمية بالحصي فكرة لطيفة".

قال: "إنها ليست النوع العادي من الحصوات. ثمة سبب منطقي لفعل هذا".

سألته: "ماذا تعني؟".

قال: "انظري إليها. أمسكي بعضها".

أخذت توبينس بعض الحصوات من يدها وهي متعجبة.

قالت: "إنها مجرد حصوات، بعضها كبير وبعضها صغير. لماذا أنت مستثار لهذه الدرجة؟".

قال: "لأني بدأت أفهم الأمور. هذه ليست حصوات يا عزيزتي، بل *فصوص من الماس*".

الفصل الخامس عشر

أمسية في دار العبادة

شهقت توبينس قائلة: "فصوص من الماس!".

نقلت توبينس نظرها من على تومي إلى الفصوص التي لا تزال تحملها في يدها، واستطردت: "هذه الأشياء المتربة *ألماس؟*".

أومأ تومي، وقال: "لقد بدأت الأمور تترابط وتأخذ شكلًا منطقيًا، يا توبينس. انتظري حتى يسمع إيفور سميث عن هذه الدمية. لقد كان قد أرسل إليك باقة زهور بالفعل".

قالت: "من أجل ماذا؟".

قال: "من أجل المساعدة في الإمساك بعصابة كبيرة!".

قالت: "أنت وإيفور سميث! أعتقد أن هذا ما كان يشغلك طوال الأسبوع الماضي، بينما كنت تهجرني في أيامي الأخيرة من فترة النقاهة في ذلك المستشفى الكئيب في وقت كنت أحتاج فيه إلى محادثات مبهجة ترفع روحي المعنوية".

قال: "لقد كنت أحضر في ساعات الزيارة كل مساء".

قالت: "أنت لم تخبرني بالكثير".

قال: "لقد حذرتني هذه الممرضة الصارمة ألا أخبرك بأية أشياء مثيرة، لكن إيفور بنفسه قادم إلى هنا بعد غد، وقد رتبنا لقضاء أمسية اجتماعية في دار العبادة".

سألته: "من سيحضرها؟".

قال: "السيدة بوسكوان، وأحد كبار ملاك الأراضي المحليين، وصديقتك نيلي بلاي، ورجل الدين، وبالطبع أنا وأنت".

قالت: "السيد إيفور سميث، هل هذا اسمه الحقيقي؟".

قال: "هذا ما أعرفه على حد علمي".

قالت توبينس: "أنت دائمًا حذر للغاية"، ثم ضحكت فجأة.

قال: "ما الذي يضحكك؟".

قالت: "كنت أفكر في أنني أود رؤيتك أنت وألبرت وأنتما تكتشفان أدراجًا سرية في مكتب الخالة آدا".

قال تومي: "الفضل كله يعود إلى ألبرت الذي ألقى محاضرة إيجابية عن هذا الموضوع. لقد تعلم كل هذا بفضل عمله وهو صبي لدى تاجر أنتيكات".

قالت: "من العجيب والمثير أن تترك خالتك آدا وثيقة سرية مثل هذه مغلقة بأختام. إنها لم تكن تعرف شيئًا في الحقيقة، لكنها كانت مستعدة لتصديق أن هناك شخصًا ذا خطورة في دار قمة الجبل المشمسة. أتساءل إن كانت قد عرفتْ أن هذا الشخص هو السيدة باكارد".

قال: "هذه مجرد فكرة في رأسك".

قالت: "وهي فكرة معقولة للغاية إذا كان ما نبحث عنه هو

عصابة إجرامية. إنهم يحتاجون إلى مكان مثل قمة الجبل المشمسة الذي تديره مجرمة ذات كفاءة، لديها صلاحية استخدام العقاقير متى كانت بحاجة إليها، وهي حين تقبل بأن وفاة نزيلة ما هي إلا وفاة طبيعية، فإن الطبيب سيعتقد هذا أيضًا دون أن يشك في الأمر".

قال: "لقد نسجت قصة كاملة، لكن السبب الحقيقي في أنك بدأت تشكين في السيدة باكارد هو أنك لا تستسيغين هذه المرأة".

قالت توبينس وهي تفكر: "سأقول لك شيئًا آخر، يا تومي. لنفترض أن هذه اللوحة التي بها منزل القناة *لم تكن ملكًا للسيدة لانكستر أبدًا*".

نظر إليها تومي مندهشًا، وقال: "لكننا نعرف أنها ملكها".

قالت: "كلا، إننا لا نعرف. نحن نعرف فقط أن السيدة باكارد قالت هذا، فالسيدة باكارد هي من قالت إن السيدة لانكستر أعطت اللوحة إلى الخالة آدا".

قال تومي: "لكن لماذا ...؟" ثم توقف عن الكلام.

قالت: "ربما لهذا السبب أُخذت السيدة لانكستر بعيدًا، خشية أن تخبرنا بأن اللوحة ليست ملكها، وأنها لم تعطها إلى الخالة آدا".

قال: "أعتقد أن هذا احتمال ضعيف للغاية".

قالت: "ربما، لكن اللوحة رُسمت في بلدة سوتون تشنسلر، والمنزل الموجود باللوحة يقع في سوتون تشنسلر، ونحن لدينا سبب للاعتقاد بأن هذا المنزل يُستخدم ـ أو كان يُستخدم ـ

كأحد المخابئ لمنظمة إجرامية، ويُعتقد أن السيد إكليس هو الرجل الذي يدير هذه العصابة، وأنه من أرسل السيدة جونسون لأخذ السيدة لانكستر من الدار. أنا لا أعتقد أن السيدة لانكستر مكثت ببلدة سوتون تشنسلر أو في منزل القناة قبل ذلك، أو كانت هذه اللوحة بحوزتها يومًا ما. لكن أعتقد أنها سمعت شخصًا ما في دار قمة الجبل المشمسة يتحدث عن هذا، وربما كان هذا الشخص هو السيدة كاكاو، ومن ثم بدأت السيدة لانكستر تثرثر بشأن الأمر، وكان هذا يشكل خطورة، وكان لابد من رحيلها عن الدار، لكني سأجدها يومًا ما! هذا وعد، يا تومي".

قال تومي: "مغامرة زوجة السيد توماس بيريسفورد".

الأحداث متداخلة

قال السيد إيفور سميث: "أنت تبدين في صحة جيدة، يا سيدة بيريسفورد".

قالت توبينس: "أشعر بأنني على ما يرام. أظن أنه من الحماقة أن أترك شخصًا ما يضربني على رأسي".

قال إيفور: "أنت تستحقين وسامًا، وبالأخص من أجل موضوع الدمية هذا. أنا لا أعرف كيف تعثرين على هذه الأشياء".

قال تومي: "إنها بارعة في التعقب؛ إذ تسعى إثر شيء فإنها لا تتوقف".

قالت توبينس: "أنتما لن تستثنياني من حفل الليلة".

قال إيفور: "بالطبع لا. هناك قدر كبير من الأمور قد اتضح بسببكما، وأنا لا يسعني التعبير عن مدى امتناني لكليكما.

لقد قطعنا *شوطًا* في تعقب هذه المنظمة الإجرامية الماهرة التي كانت مسئولة عن تنفيذ عدد كبير من السرقات على مدار السنوات الخمس أو الست الماضية. وكما أخبرت تومي عندما جاء ليسألني إن كنت أعرف شيئًا عن رجل القانون البارع هذا، السيد إكليس، فقد كانت لدينا شكوك نحوه منذ مدة طويلة، لكنه ليس الرجل الذين يمكنك العثور على أدلة تدينه بسهولة؛ فهو شديد الحرص. إنه محامٍ مرموق له عملاء مرموقون.

وكما أخبرت تومي، كانت سلسلة المنازل هذه من أهم النقاط، منازل محترمة للغاية يقطنها أشخاص محترمون للغاية لوقت قصير ثم يغادرون.

والآن بفضل تحرياتك يا سيدة توبينس بشأن المدخنة والطيور الميتة، لقد وجدنا بشكل مؤكد تقريبًا أحد تلك المنازل، والذي أُخفي فيه قدر من الغنائم. إنهم يتبعون نظامًا ذكيًا للغاية؛ حيث يقومون بتحويل المجوهرات أو المسروقات الأخرى إلى ألماس غير مصقول، ويخفونه، وعندما يحين الوقت المناسب، يتم تهريب الألماس عبر الطائرة أو مراكب الصيد عندما يهدأ التحقيق بشأن السرقة".

قالت توبينس: "أتمنى ألا يكون هذا حقيقيًا، لكن هل السيد بيري وزوجته متورطان في الأمر؟".

قال السيد سميث: "لسنا متأكدين من هذا، لكن يبدو لي أن السيدة بيري على الأقل ربما تعرف شيئًا حاليًا، لكنها بالتأكيد كانت تعرف شيئًا حدث فيما مضى".

قالت توبينس: "أتعني أنها أحد المجرمين؟".

قال السيد سميث: "قد لا تكون كذلك؛ إذ ربما تكون خاضعة

لسيطرتهم فقط".

قالت: "أية سيطرة؟".

قال: "أعرف أنك ستمسكين لسانك وستبقين هذا سرًا، لكن دائمًا كان لدى الشرطة المحلية شك في أن الزوج آموس بيري ربما يكون هو المسئول عن موجة جرائم الأطفال التي وقعت منذ عدة سنوات. إنه ليس بكامل قواه العقلية، وقد كان الرأي الطبي في حالته هو أن آموس ربما تتولد لديه بسهولة نزعة نحو الإساءة للأطفال. لم تكن هناك أدلة مباشرة ضده، لكن زوجته من فرط قلقها كانت تقدم حجة غياب له دائمًا وإن كانت كاذبة. إذا كان هذا صحيحًا، فربما دفع ذلك مجموعة من الأشخاص عديمي الضمائر لإخضاعها لسيطرتهم وأجبروها على أن تستأجر جزءًا من منزل، وهم يعرفون أنها لن تقول أي شيء عما يجري فيه، وربما كانت لديهم أدلة دامغة ضد زوجها. ما انطباعك عنهما عندما قابلتهما، يا سيدة بيريسفورد؟".

قالت توبينس: "لقد ارتحت *لها*، وقد وصفتُها إجمالًا بأنها أشبه بالساحرات الطيبات".

قال السيد سميث: "ماذا عن زوجها؟".

قالت توبينس: "لقد انتابني خوف منه، لكن ليس طوال الوقت، بل مرة أو اثنتين فقط. لا أتذكر سبب خوفي منه، لكني كنت خائفة. كما قلتَ، أظن أنني شعرتُ بأنه ليس متزنًا عقليًا".

قال السيد سميث: "هناك الكثير من الأشخاص على هذه الشاكلة، لكنهم لا يشكلون خطرًا في كثير من الأحيان، غير أنه ليس بوسع المرء التأكد من ذلك".

سألت توبينس: "ماذا سنفعل في دار العبادة الليلة؟".

قال السيد سميث: "سنطرح بعض الأسئلة، ونقابل بعض الأشخاص، ونكتشف أشياء ربما تمدنا بمزيد من المعلومات التي نحتاج إليها".

سألت توبينس: "هل سيحضر الرائد ووترز؟ الرجل الذي كتب إلى رجل الدين بشأن طفلته؟".

قال السيد سميث: "يبدو أنه لا وجود لهذا الشخص! كان هناك نعش مدفون أسفل المكان الذي أزيل منه شاهد القبر. كان نعش طفل مبطنًا بالرصاص، وكان مليئًا بمجوهرات ومشغولات من الذهب سُرقت من مكان بالقرب من مدينة سانت ألبانز، وكان الهدف من الخطاب الذي أُرسل إلى رجل الدين هو معرفة ما حدث للمقبرة؛ فقد قام بعض الفتية المحليين بالعبث بالمكان وتخريبه".

الأحداث متداخلة

قال رجل الدين، وهو يمد كلتا يديه ليسلم على توبينس: "أنا متأسف للغاية يا عزيزتي، فقد أزعجني بشدة ما حدث لك بينما كنت تساعدينني بكرم منك. إنني أشعر بأن ما حدث كان بسببي أنا. ما كان يجب أن أتركك تذهبين للتنقيب بين شواهد القبور، مع أنه لم يكن لدينا سبب للاعتقاد أن هناك بعض الهمج الذين ..."

قالت السيدة بلاي التي ظهرت بجانبه فجأة: "لا تلم نفسك، أيها الموقر؛ فأنا متأكدة من أن السيدة بيريسفورد تعرف أن ما حدث ليست له علاقة بك. كان من بالغ الكرم أن تعرض عليك مساعدتها، لكن الأمر انتهى الآن، وقد استعادت عافيتها، أليس

كذلك، يا سيدة بيريسفورد؟".

قالت توبينس: "بالتأكيد"، لكنها شعرت ببعض الانزعاج من أن السيدة بلاي أخذت على عاتقها التحدث عن حالتها الصحية بكل بثقة.

قالت السيدة بلاي لتوبينس: "تعالي واجلسي هنا، وضعي وسادة خلف ظهرك".

قالت توبينس: "لا أحتاج إلى وسادة"، ورفضت أن تقبل المقعد الذي سحبته لها السيدة بلاي، وبدلًا من ذلك جلست على مقعد مستقيم الظهر غير مريح بالمرة على الجانب الآخر من المدفأة.

سُمع صوت طرق عالٍ على الباب الأمامي، فالتفت كل من بالغرفة، وهرعت السيدة بلاي من الغرفة.

وقالت لرجل الدين في طريقها: "لا تقلق، أيها الموقر. سأذهب أنا".

سُمعت أصوات منخفضة في الردهة، ثم عادت السيدة بلاي، تتبعها امرأة ضخمة ترتدي ثوبًا مزركشًا، وخلفها رجل نحيف طويل شاحب الوجه، يرتدي معطفًا أسود، وكان وجهه الشاحب الطويل يبدو كأنه وجه من العصور الغابرة. حملقت توبينس إليه، وتبادر إلى ذهنها أنه يبدو وكأنه خارج من إحدى لوحات الرسام إل جريكو.

قال رجل الدين: "تسعدني رؤيتك"، ثم استدار وقال: "اسمحوا لي بأن أقدم إليكم السير فيليب ستارك. السيد بيريسفورد وزوجته، والسيد إيفور سميث. أوه، السيدة بوسكوان.

لم أرك منذ سنوات عديدة".

قالت السيدة بوسكوان: "لقد قابلت السيد بيريسفورد"، ثم التفتت إلى توبينس، وقالت: "كيف حالك؟ سعيدة بمقابلتك. لقد سمعتُ أنكِ تعرضتِ لحادث".

قالت توبينس: "أجل، لكني بخير الآن".

انتهت عملية التعارف، وعادت توبينس للجلوس على مقعدها، وشعرت بالتعب، الذي بدا أنه ينتابها أكثر من السابق، وقد قالت لنفسها إن هذا ربما بسبب الارتجاج في المخ الذي تعرضت له. جلست توبينس هادئة، وكانت عيناها نصف مغلقتين، لكنها مع ذلك كانت تفحص جميع من بالغرفة بانتباه شديد. لم تكن تنصت إلى المحادثة، بل كانت تنظر إلى الحاضرين. انتابها شعور بأن بعض الشخصيات في المسرحية الدرامية ـ التي أصبحت جزءًا منها دون قصد ـ قد تجمعت هنا مثلما يحدث في مشهد درامي، وبأن الخيوط تتجمع وتتبلور. ومع قدوم السير فيليب ستارك والسيدة بوسكوان، بدا وكأن شخصيتين مجهولتين تقدمان نفسيهما للجمهور الآن. لقد كانا خارج دائرة الضوء منذ البداية، لكن الآن صارا تحت الأضواء. إنهما مهتمان بالأحداث ومتورطان فيها بطريقة ما. تساءلت توبينس عن سبب مجيئهما الليلة. هل قام شخص ما باستدعائهما؟ هل هو إيفور سميث؟ هل أمرهما بالحضور أم طلب ذلك منهما بلطف؟ أم هل هما غريبان عنه كما هما غريبان عنها؟ قالت توبينس لنفسها: "لقد بدأ الأمر برمته في دار قمة الجبل المشمسة، لكن الجوهر الحقيقي للأمر ليس الدار، بل كان بلدة سوتون تشنسلر منذ البداية. ثمة أشياء حدثت هنا، ليس مؤخرًا، لكن

منذ وقت طويل، وهي أشياء ليست لها علاقة بالسيدة لانكستر، لكن السيدة لانكستر تورطت دون أن تعلم. لكن أين السيدة لانكستر الآن؟".

سرت بجسد توبينس قشعريرة.

وقالت لنفسها: "أعتقد أنها ربما *ماتت*".

شعرت توبينس بأنه لو حدث هذا، فإنها تكون قد فشلت في مهمتها؛ فلقد انطلقت في مسعاها بدافع قلقها على السيدة لانكستر؛ حيث شعرت بأنها في خطر ما؛ ومن ثم عقدت العزم على إيجاد السيدة لانكستر وحمايتها.

حدَّثت توبينس نفسها قائلة: "وإذا كانت لا تزال على قيد الحياة، فإني مستمرة في مهمتي".

سوتون تشنسلر. ذاك هو المكان الذي شهد بداية شيء جلل وخطير، وكان المنزل المطل على القناة جزءًا منه. هل كان المنزل هو محور الأمر، أم بلدة سوتون تشنسلر نفسها؟ تلك البلدة التي عاش فيها أناس، وجاء إليها أناس، وغادرها أناس، وهرب منها أناس، واختفى منها أناس ثم عادوا للظهور فيها، مثل السير فيليب ستارك.

دون أن تدير رأسها، التفتت توبينس بعينها إلى السير فيليب ستارك. كانت لا تعرف شيئًا عنه سوى ما صبَّته السيدة كوبليه في أذنها خلال حديثها عن سكان البلدة بوجه عام. كان رجلًا هادئًا مثقفًا شغوفًا بالنباتات وصاحب مصنع؛ ومن ثم كان ينعم بالثراء، كما كان يحب الأطفال. ها قد عدنا إلى موضوع الأطفال مرة أخرى. تبادر إلى ذهن توبينس المنزل المطل على القناة، ودمية الأطفال التي سقطت من مدخنة المدفأة

والتي دسها شخص ما فيها، وهي دمية تحمل داخلها حفنة من الألماس، وهي غنائم جريمة ما. هذا المنزل هو أحد مقار مؤسسة إجرامية كبيرة، لكن هناك جرائم أشد شرًا من السرقة. قالت السيدة توبينس عن السير ستارك: "دائمًا كان لديَّ شك بأنه الجاني".

هل السير فيليب ستارك قاتل؟ خلف عينيها نصف المغلقتين، فحصته توبينس بهدف واضح وهي معرفة ما إذا كان يتطابق مع تصورها عن القتلة، لاسيما قتلة الأطفال.

تساءلت توبينس عن عمره، ربما كان عمره سبعين عامًا على الأقل، وربما أكبر، وقد كان وجهه شاحبًا مرهقًا معذبًا، وجسده كان منهكًا، وكانت عيناه داكنتين كبيرتين، تشبه عيون الأشخاص في ألواح إل جريكو.

ثم تساءلت عن سبب مجيئه هذا المساء. انتقلت عيناها إلى السيدة بلاي، التي كانت تجلس في تململ على مقعدها؛ فكانت أحيانًا تقرّب الطاولة من شخص ما، أو تعرض وسادة على شخص ما، أو تنقل علبة السجائر والكبريت من موضع لآخر. لكن في كل مرة كانت عيناها تقعان على فيليب ستارك، كان يبدو عليها الارتياح.

قالت توبينس لنفسها: "إنها في منتهى التفاني له، ولا بد أنها كانت واقعة في حبه، وأعتقد أنها ربما لا تزال كذلك؛ إذ لا يمكنك التوقف عن حب شخص لأنك كبرت في السن. هذا خلاف ما يظنه أشخاص مثل ابنتي ديبورا وزوجها ديريك، اللذين لا يستطيعان تخيل أحد واقعًا في الحب إلا إذا كان شابًا. أنا أظن أنها ما زالت تحبه بمنتهى التفاني وإن كان حبًا بلا أمل. ألم يقل

شخص ـ السيدة كوبلي أو رجل الدين ـ إن السيدة بلاي كانت سكرتيرته وهي شابة، لكنها ما زالت تهتم بشئونه هنا؟ هذا ليس غريبًا للغاية؛ فكثيرًا ما تقع السكرتيرات في حب رؤسائهن. إذن لنقل إن جيرترود بلاي أحبت فيليب ستارك. هل هذه معلومة مفيدة بأي شكل من الأشكال؟ هل كانت السيدة بلاي تعرف أو تشك في أنه خلف شخصية فيليب ستارك الشاحبة الهادئة، يكمن مَسٌ رهيب من الجنون؟ *كالشغف المبالغ فيه بالأطفال.*

قالت عنه السيدة كوبليه: "أعتقد أنه كان شغوفًا بالأطفال على نحو غير طبيعي".

أفعال مثل هذه تثير التساؤل، فربما كانت جرائمه هي السبب في أنه يبدو معذَّبًا.

لا يسع المرء معرفة كل شيء عن القتلة المجانين إلا إذا كان طبيبًا نفسيًا أو مختص أمراض عقلية. *لماذا* يقتلون الأطفال؟ ما دافعهم؟ هل يندمون على ذلك فيما بعد؟ هل يشعرون بالاشمئزاز؟ هل هم غاية في التعاسة؟ هل هم خائفون؟".

في هذه اللحظة، لاحظت أن نظراته قد وقعت عليها، وتلاقت أعينهما للحظات، وبدا أن عينيه تنقلان رسالة لها مفادها: "أنت تفكرين بي. أجل، ما تفكرين فيه صحيح. أنا رجل تسكنه روح مظلمة".

أجل، كانت هذه الرسالة تصفه بدقة. "رجل تسكنه روح مظلمة".

رفعت توبينس نظرها عنه، وحولته إلى رجل الدين. كانت ترتاح لرجل الدين الذي كان شخصًا لطيفًا. هل كان يعرف شيئًا؟ ربما هذا صحيح، أو ربما هو يعيش وسط غابة من الشرور

دون حتى أن يشك في ذلك. ربما تحدث أشياء من حوله دون أن يكون على علم بها؛ لأنه يمتلك قدرًا زائدًا على الحد من البراءة.

ماذا عن السيدة بوسكوان؟ من الصعب معرفة أي شيء عن السيدة بوسكوان، فهي امرأة في منتصف العمر ذات شخصية لا تشي بالكثير، كما وصفها تومي.

وكأن توبينس قد نادتها؛ لذا نهضت السيدة بوسكوان فجأة.

وقالت: "هل من الممكن أن أصعد إلى الطابق العلوي وأغتسل".

نهضت سريعًا السيدة بلاي، قائلة: "أجل، بالطبع. سأصحبك لأعلي إن سمحت لي، أيتها الموقرة؟".

قالت السيدة بوسكوان: "لا تتعبي نفسك؛ فأنا أعرف الطريق جيدًا. سيدة بيريسفورد؟".

جفلت توبينس بعض الشيء.

أردفت السيدة بوسكوان: "تعالي معي لأريك المكان".

نهضت توبينس كطفلة مطيعة، لكنها لم تدرك أنها بدت كذلك، غير أنها تعرف أن السيدة بوسكوان استدعتها، وعندما تستدعيك السيدة بوسكوان، عليك أن تطيعها.

خرجت السيدة بوسكوان من الباب إلى الردهة وتبعتها توبينس، وصعدت السيدة بوسكوان السلم، وتوبينس خلفها.

قالت السيدة بوسكوان: "توجد غرفة إضافية في الطابق العلوي وهي تكون مهيأة دائمًا لاستقبال الضيوف، وهناك حمام ملحق بها".

ثم فتحت الباب في أعلى السلم ودخلت وأضاءت الأنوار، وتوبينس تتبعها.

قالت السيدة بوسكوان: "أنا سعيدة أنني وجدتك هنا، وقد تمنيت هذا لأني كنت قلقة عليك. هل أخبرك زوجك بذلك؟".

قالت توبينس: "لقد فهمت أنك قلت شيئًا".

قالت إيما بوسكوان: "أجل، لقد كنت قلقة عليك"، ثم أغلقت الباب خلفهما بإحكام كما لو أنهما في مكان خاص من أجل استشارة خاصة، وأردفت: "هل شعرت بأن بلدة سوتون تشنسلر تمثل مكانًا خطرًا؟".

قالت توبينس: "لقد كانت خطرًا بالنسبة إليَّ".

قالت إيما بوسكوان: "أجل، أعرف، من حسن الحظ أن الأمر لم يكن أسوأ من ذلك، لكني أتفهم ما مررت به".

قالت توبينس: "أنت تعرفين شيئًا ما. أنت تعرفين شيئًا ما بشأن كل هذا، أليس كذلك؟".

قالت إيما بوسكوان: "أعرف ولا أعرف. تنتاب المرء مشاعر حدسية، وعندما تصدُق هذه المشاعر فإنه، يقلق. إن موضوع العصابة الإجرامية برمته يبدو غريبًا، لكن يبدو أنه ليست له أية علاقة بـ...."

ثم توقفت لحظات لتكمل بعدها، قائلة: "إن العصابات الإجرامية موجودة وستظل موجودة، لكنها أصبحت منظمة للغاية الآن مثل الشركات؛ غير أن الخطورة الحقيقية ليست في نشاط هذه العصابات، لكن في شيء آخر. يجب أن يعرف المرء

أين يكمن الخطر وكيف يحمي نفسه. يجب أن تأخذي حذرك، يا سيدة بيريسفورد. عليك أن تفعلي هذا حقًا. أنت من الأشخاص الذين يسرعون إلى الخوض في الأمور، وليس من الآمن فعل هذا هنا".

قالت توبينس ببطء: "ثمة شخص أخبر خالتي ـ أو بالأدق خالة تومي ـ في الدار التي كانت تنزل بها وماتت فيها بأن هناك قاتلًا بالدار".

أومأت إيما ببطء.

استطردت توبينس: "هناك حالتا وفاة وقعتا في دار المسنات هذه، والطبيب هناك يشك في سبب الوفاة".

قالت إيما: "أهذا ما دفعك للبحث في الأمر؟".

قالت توبينس: "لا، إن الأمر بدأ قبل ذلك".

قالت إيما بوسكوان: "إذا كان لديك متسع من الوقت، هلا تخبريني سريعًا ـ لأن شخصًا ما قد يقاطعنا ـ بما حدث في دار المسنات ودفعك لبدء تقصي الأمر".

قالت توبينس: "أجل، يمكنني إخبارك بما حدث سريعًا"، ومضت توبينس تحدثها بما دار.

قالت إيما بوسكوان: "حسنًا، وأنت الآن لا تعرفين أين هذه السيدة العجوز، السيدة لانكستر؟".

قالت توبينس: "لا، لا أعرف".

قالت السيدة بوسكوان: "أتعتقدين أنها ماتت؟".

قالت توبينس: "ربما".

قالت السيدة بوسكوان: "أهذا بسبب أنها كانت تعرف شيئًا ما؟".

قالت توبينس: "أجل، كانت تعرف شيئًا ما. ربما جريمة قتل، ربما مقتل طفلة".

قالت السيدة بوسكوان: "أعتقد أنك مخطئة في ذلك. وأعتقد أن السيدة العجوز اختلط عليها الأمر، وخلطت بين مقتل الطفلة وشيء آخر".

قالت توبينس: "أعتقد أن هذا ممكن؛ فكبار السن تختلط عليهم الأمور، لكن ثمة قاتل أطفال لا يزال طليقًا، أليس كذلك؟ أو هكذا أخبرتني المرأة التي كنت أقيم عندها".

قالت السيدة بوسكوان: "أجل، لقد وقعت عدة جرائم قتل للأطفال في هذه المنطقة، لكن هذا حدث منذ وقت بعيد للغاية. لا يعرف رجل الدين شيئًا عن هذا؛ فهو لم يكن موجودًا هنا حينها، لكن السيدة بلاي كانت هنا وقت حدوث ذلك، وكانت شابة في ذلك الوقت. أظن هذا".

قالت توبينس: "هل كانت دائمًا مغرمة بالسير فيليب ستارك؟".

قالت السيدة بوسكوان: "لقد لاحظت هذا، أليس كذلك؟ إنها تعشقه بجنون، وقد لاحظنا هذا أنا ووليام منذ بداية مجيئنا إلى هنا".

سألتها توبينس: "لماذا جئتما إلى هنا؟ هل عشتما في منزل القناة؟".

قالت السيدة بوسكوان: "لا، لم نعش فيه من قبل، لكن ويليام كان يحب أن يرسمه، وقد رسمه عدة مرات. ما الذي حدث للوحة التي أراها زوجك لي؟".

قالت توبينس: "لقد أعادها إلى المنزل، وقد أخبرني بما قلته بشأن القارب المكتوب عليه *ووتر ليلي*، والذي لم يرسمه زوجك".

قالت السيدة بوسكوان: "أجل، لم يرسمه زوجي. عندما رأيتُ اللوحة آخر مرة، لم يكن بها قارب، بل رسمه شخص آخر فيما بعد".

قالت توبينس: "وكان مكتوبًا على اللوحة *ووتر ليلي*، والرجل الذي ليس له وجود ـ الرائد *ووترز* ـ بعث رسالة بشأن قبر طفلة اسمها ليليان، لكن لم تكن هناك طفلة مدفونة في ذلك القبر، بل نعش طفل مليء بغنائم سرقة كبيرة. لا شك أن رسم القارب كان بمنزلة رسالة تحدد المكان المخبأة فيه المسروقات. يبدو أن الأمر كله مرتبط بالجريمة".

قالت السيدة بوسكوان: "يبدو هذا، لكن لا يسع المرء التأكد من ..."

توقفت السيدة بوسكوان فجأة عن الكلام، وقالت بسرعة: "إنها قادمة لتبحث عنا. اذهبي إلى الحمام".

قالت توبينس: "من؟".

قالت السيدة بوسكوان: "نيلي بلاي. ادخلي الحمام وأغلقي الباب".

قالت توبينس وهي تختفي في الحمام: "إنها فضولية وحسب".

فقالت السيدة بوسكوان: "بل هي أكثر من ذلك".

فتحت السيدة بلاي الباب ودخلت وهي يبدو عليها النشاط والاستعداد لتقديم المساعدة.

وقالت: "أتمنى أن تكوني قد وجدتِ كل ما تحتاجين إليه. توجد مناشف مغسولة وصابون. إن السيدة كوبلي تأتي لخدمة رجل الدين، لكن عليَّ أن أتأكد بنفسي من أنها تقوم بعملها على النحو الملائم".

نزلت السيدتان بوسكوان وبلاي إلى الطابق السفلي معًا. وقد لحقت توبينس بهما، بينما كانتا على وشك دخول غرفة الجلوس. نهض السير فيليب ستارك عند دخولها الغرفة وسحب لها مقعدًا وجلس بجانبها.

وقال: "هل يروقك هذا المقعد، يا سيدة بيريسفورد؟".

قالت توبينس: "أجل، شكرًا لك. إنه مريح للغاية".

قال فيليب ستارك بصوت يحمل سحرًا غامضًا وعمقًا فضوليًا: "يؤسفني ما سمعت بشأن الحادثة التي تعرضتِ لها. إن كل الحوادث التي تقع هذه الأيام محزنة للغاية".

كانت عيناه منصبتين على وجهها، فقالت في نفسها: "إنه يتفحصني بنظراته مثلما كنت أتفحصه"، ثم رمقت تومي بنظرة حادة، لكنه كان يتحدث مع إيما بوسكوان.

سألها فيليب: "ما الذي جاء بكِ إلى سوتون تشنسلر من الأساس، يا سيدة بيريسفورد؟".

قالت توبينس: "كنا نبحث عن بيت لنقيم به في الريف، فقد كان زوجي مسافرًا لحضور مؤتمر، ففكرتُ في أن أقوم بجولة في منطقة مناسبة من الريف؛ لأرى الأماكن والسعر الذي يُتوقع أن ندفعه".

قال فيليب: "لقد سمعتُ أنك ذهبتِ وألقيتِ نظرة على المنزل الذي يقع بجانب جسر القناة".

قالت توبينس: "أجل، هذا صحيح. لقد لمحتُ هذا المنزل ذات مرة من القطار، وهو يبدو جذابًا للغاية من الخارج".

قال فيليب: "أجل، وإن كنت أرى أن المنزل بحاجة إلى ترميمات من الخارج بما في ذلك السقف. لكنه ليس جذابًا للغاية من الجهة الأخرى، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "هذا صحيح. ويبدو لي أن المنزل مقسّم بطريقة غريبة".

قال فيليب: "الناس لديهم أفكار مختلفة، أليس كذلك؟".

سألته توبينس: "ألم تعش في هذا المنزل مطلقًا؟".

قال فيليب: "لا. مطلقًا. لقد حُرق منزلي منذ عدة سنوات، لكن تبقى جزء منه، وأظن أنك رأيته أو أن شخصًا ما أراك إياه. إنه فوق دار العبادة هذه، أعلى التل، أو ما يطلقون عليه تلًا في هذه البلدة. لم أشعر بالفخر يومًا إزاء هذا المنزل. لقد بناه أبي عام 1890 أو نحو ذلك، وكان قصرًا مهيبًا على الطراز القوطي، مع بعض التأثر بقلعة بالمورال، وقد أصبح هذا النوع مثار إعجاب المعماريين حاليًا مرة أخرى، رغم أنهم كانوا ينفرون منه منذ أربعين عامًا"، ثم استطرد بنبرة ساخرة: "كان هذا

المنـزل يحـوي كل ما يجـب أن تحتويه ما تسمـى منازل السادة: غرفـة للبليـاردو، وغرفـة للمعيشـة، وصالون للسيـدات، وغرفة طعـام مهيبة، وقاعة للحفلات، نحـو أربع عشرة غرفة نوم، وكان لدينا أربعة عشر خادمًا حسبما أتذكر".

قالت توبينس: "يبدو أنك لم تحب هذا المنزل أبدًا".

قال فيليب: "لا، وقد شعر أبي بخيبة أمل من هذا، ولقد كان رجـل صناعة ناجحًا للغايـة، وكان يتمنى أن أتبع خطاه، لكني لم أفعـل. وقـد أحسن معاملتـي ومنحني دخلًا كبيـرًا ـ أو مصروفًا كما كان يُسمى حينها ـ وتركني أفعل ما أشاء".

قالت توبينس: "لقد سمعت أنك شغوف بالنباتات".

قـال فيليب: "هذه إحـدى أهم وسائل التسليـة بالنسبة إليَّ. لقـد اعتـدت السفـر بحثًا عـن الزهور البريـة، لا سيمـا إلى بلاد البلقـان. هل ذهبت من قبل إلى أحد بلاد البلقان بحثًا عن زهور برية؟ إنها مكان مناسب للبحث عنها".

قالـت توبينـس: "تبدو بـلادًا جذابة للغايـة، لكنك كنت تعود وتعيش هنا، أليس كذلك؟".

قـال فيليـب: "لقـد رحلـتُ عـن هنا منـذ سنوات عديـدة. في الواقع، لم أعد للعيش هنا أبدًا منذ وفاة زوجتي".

قالت توبينس وهي تشعر ببعض الإحراج: "أوه، أنا آسفة".

قـال: "لقد مضى وقت طويل الآن؛ فقد توفيت قبل الحرب، في عام 1938. لقد كانت امرأة غاية في الجمال".

قالت توبينس: "ألا يزال لديك صور لها في منزلك هنا؟".

قـال فيليـب: "لا، إن المنـزل فارغ هنـا، وكل الأثـاث والصور

والأشياء الأخرى أُرسلت للتخزين. لا يوجد بالمنزل سوى غرفة نوم ومكتب وغرفة جلوس من أجل زيارات وكيلي أو من أجل قدومي والإشراف على أملاكي العقارية".

سألته توبينس: "ألم تبع هذه العقارات؟".

قال فيليب: "نعم، هناك بعض الحديث عن تطوير الأراضي هنا، لكني لا أهتم كثيرًا بهذه الأمور. كان أبي يتمنى أن يؤسس ملكية إقطاعية، وكان من المفترض أن أرثها منه، ومن بعدي أولادي، وهكذا". توقف فيليب لحظات، ثم أكمل: "لكني أنا وجوليا لم نُرزق بأطفال".

قالت توبينس برقة: "أوه، فهمت".

قال فيليب: "لا يوجد ما يدفعني للعودة إلى هنا، ونادرًا ما أجيء إلى البلدة، والسيدة نيلي بلاي تُنجز ما يتطلب إنجازه نيابة عني"، ثم ابتسم، وقال: "لقد أدت عادة أعمالها كسكرتيرة على أفضل ما يكون، ولا تزال تتولى شئون أعمالي أو أي شيء من هذا القبيل".

قالت توبينس: "أنت لم تعد تجيء إلى هنا ومع ذلك لا تريد بيع عقاراتك؟".

قال فيليب: "ثمة سبب وجيه يمنعني من هذا".

ثم مرت ابتسامة باهتة من ملامحه العابسة.

وقال: "ربما قد ورثتُ بعضًا من حس أبي العملي. إن قيمة الأرض تزداد بنسب ضخمة وسعرها يرتفع يومًا بعد آخر؛ ولذا فهي استثمار مربح للغاية، ومن يعلم، فربما تقام مدينة سكنية على تلك الأرض".

قالت توبينس: "وحينها ستصبح ثريًا؟".

قال السير فيليب: "حينها سأصبح أكثر ثراء؛ فأنا الآن ثري بالفعل".

سألته توبينس: "ما الذي تفعله معظم الوقت؟".

قال فيليب: "أسافر. وأنا لديَّ اهتمامات في لندن؛ فعندي معرض للوحات هناك، وأعمل تاجر لوحات. كل هذه أمور مشوقة تشغل وقت المرء حتى تُقبض روحه ويرحل عن العالم".

قال توبينس: "لا تتحدث هذا؛ فأنت تصيبني بالقشعريرة".

قال فيليب: "لا داعي لأن تصابي بالقشعريرة؛ فأنا أعتقد أنك ستعيشين حياة طويلة سعيدة، يا سيدة بيريسفورد".

قالت توبينس: "أنا سعيدة حاليًا، لكني أظن أنني سأصاب بما يصاب به كبار السن من آلام ومشكلات، مثل ضعف السمع والبصر والتهاب المفاصل، بالإضافة إلى بضعة أشياء أخرى".

قال فيليب: "أنت لن تعاني هذه الأشياء بالقدر الذي تظنين، واسمحي لي بأن أقول دون أن أبدو متطفلاً أنه يبدو أنك وزوجك تعيشان حياة سعيدة معًا".

قالت توبينس: "أجل، هذا صحيح. لا شيء في الحياة يضاهي أن تحظى بزيجة سعيدة".

بعد لحظة، ندمت توبينس على تلك الكلمات. وعندما نظرت إلى الرجل الجالس بجانبها، والذي كان وربما لا يزال يعتصر قلبه ألمًا على فقدان زوجته التي أحبها كثيرًا منذ سنوات طويلة، شعرت توبينس بمزيد من الغضب إزاء نفسها.

الفصل السادس عشر

صباح اليوم التالي

كان صباح اليوم التالي لأمسية دار العبادة.

توقف إيفور سميث وتومي عن محادثة كانا يخوضانها، ونظر كلاهما إلى الآخر، ثم إلى توبينس، والتي كانت تحملق إلى المدفأة، وتبدو شاردة الذهن.

قال تومي: "إلى أين توصلنا في هذا الأمر؟".

تنهدت توبينس وأفاقت من شرودها، ونظرت إلى الرجلين قائلة:

"يبدو أن الأمر لا يزال معقدًا بالنسبة إليَّ. ما الفائدة من أمسية أمس؟ ماذا كان يعني هذا كله؟"، ثم نظرت إلى إيفور سميث، وأكملت: "أعتقد أنه يعني شيئًا لكليكما. هل تعرفان إلى أين وصلنا في الأمر؟".

قال إيفور: "لن أجزم بذلك؛ فنحن لا نسعى خلف الشيء نفسه، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "ليس تمامًا".

نظر الرجلان لها في تساؤل.

قالت توبينس: "حسنًا. أنا امرأة لديَّ هوس، وهو أن أجد *السيدة لانكستر*. أريد التأكد من أنها بخير".

قال تومي: "أنت بحاجة لإيجاد السيدة جونسون أولًا. لن تجدي السيدة لانكستر إلا بعد أن تجدي السيدة جونسون".

قالت توبينس: "هذا صحيح. السيدة جونسون"، ثم وجهت حديثها إلى إيفور سميث: "لكني أظن أن هذا الجزء من الموضوع لا يهمك".

قال إيفور: "كلا، بل يهمني كثيرًا، يا سيدة بيريسفورد".

قالت: "ماذا عن السيد إكليس؟".

ابتسم إيفور، قائلًا: "أعتقد أن السيد إكليس سينال عقابه قريبًا، وإن كان هذا ليس مؤكدًا؛ فهو رجل يخفي آثاره بمهارة فائقة لدرجة أنه يخيل للمرء أنه لا توجد آثار على الإطلاق"، ثم أضاف بصوت منخفض: "عقل مدبر ماهر، مخطط ماهر".

قالت توبينس: "ليلة أمس ....."، ثم ترددت وقالت: "هل بإمكاني طرح أسئلة؟".

قال تومي: "يمكنك طرحها، لكن لا تعوّلي كثيرًا على الحصول على إجابات مرضية من إيفور العجوز هنا".

قالت توبينس: "السير فيليب ستارك. ما دوره في الموضوع؟ إنه لا تنطبق عليه أوصاف المجرمين، إلا إذا كان من النوع الذي..."

توقفت توبينس، ومنعت نفسها سريعًا من ترديد الافتراضات الجامحة للسيدة كوبليه عن فيليب كقاتل أطفال.

قال إيفور سميث: "دور السير فيليب ستارك في الموضوع

هو أنه يعد مصدرًا قيمًا للمعلومات. إنه أكبر مالك للأراضي في هذه المنطقة ومناطق أخرى في إنجلترا أيضًا".

قالت توبينس: "في مقاطعة كمبرلاند".

رمق إيفور سميث توبينس بنظرة حادة، وقال: "كمبرلاند؟ لماذا ذكرت كمبرلاند؟ ما الذي تعرفينه عن كمبرلاند، يا سيدة بيريسفورد؟".

قالت توبينس: "لا شيء. لقد تبادرت إلى ذهني لسبب أو لآخر"، ثم عبست وبدا عليها الارتباك وهي تقول: "كما تبادر إلى ذهني زهرة ذات خطوط بيضاء وحمراء في أحد جوانب المنزل، وهي من أنواع الزهور القديمة".

ثم هزت رأسها. وسألت: "هل يمتلك السير فيليب منزل القناة؟".

قال إيفور: "إنه يمتلك الأرض، ويمتلك معظم الأراضي هنا".

قالت: "أجل، لقد قال هذا بالأمس".

قال إيفور: "لقد عرفنا من خلاله معلومات كثيرة عن عقود إيجار ومستأجرين تم إخفاء هويتهم بمهارة عبر تعقيدات قانونية".

سألت توبينس: "هل هناك شيء مريب في هؤلاء السماسرة الذين ذهبتُ إليهم في ماركت باسنج، أم أن هذه مجرد تخيلات لديَّ؟".

قال إيفور: "ليس مجرد تخيلات لديك، ونحن ذاهبون لزيارتهم هذا الصباح وسنطرح عليهم أسئلة مزعجة".

قالت توبينس: "هذا جيد".

قال إيفور: "إننا نحرز تقدمًا جيدًا؛ فلقد كشفنا أمر عملية السرقة الكبيرة لمكتب البريد التي وقعت عام 1965، وسرقات مقاطعة ألبري كروس، وسرقة قطار البريد الأيرلندي. وقد وجدنا بعض الغنائم في أماكن تم إعدادها بعناية في هذه المنازل. ومن سبلهم التي اتبعوها في ذلك تركيب حوض استحمام جديد، أو تجديد أن غرف شقة ما صارت أصغر مما كانت عليه من أجل إعداد تجاويف كمخابئ. وقد اكتشفنا مخابئ عديدة".

قالت توبينس: "ماذا عن *الأشخاص*؟ أعني الذين دبروا أو نفذوا السرقات، أعني غير السيد إكليس. لابد أن هناك آخرين يعرفون شيئًا عن هذا".

قال إيفور: "نعم. كان هناك رجلان، وكان أحدهما يدير مقهى ليليًا يقع على أحد الطرق السريعة، ويُلقب بهاميش السعيد، وكان كالسمك يصعب الإمساك به. وهناك أيضًا إحدى أكثر المجرمات المثيرات للاهتمام اللائي عرفتهن، وكانت تُلقب كيت القاتلة، لكن هذا كان منذ وقت طويل. كانت فتاة جميلة، لكن قواها العقلية كان مشكوكًا فيها، وقد أبعدوها عنهم؛ لأنها كانت تشكل خطرًا عليهم؛ فقد كانوا ملتزمين التزامًا صارمًا بنشاطهم، وهو السرقة، وليس القتل".

سألته توبينس: "وهل كان منزل القناة أحد مخابئ غنائمهم؟".

قال إيفور: "في وقت ما، وكان اسمه ليدي ميد حينها. لقد

لقد تم تغيير اسم هذا المنزل مرات كثيرة".

قالت توبينس: "من أجل جعل الأمور أكثر صعوبة في رأيي. ليدي ميد. إنني أتساءل إن كان لهذا الاسم علاقة بشيء معين".

سألها: "علاقة بماذا؟".

قالت توبينس: "ليس علاقة بشيء في الحقيقة، هو فقط أثار شيئًا في ذهني، إذا فهمتَ ما أعنيه. المشكلة أنني نفسي لا أفهم ما أعنيه. هناك اللوحة أيضًا. بوسكوان رسم اللوحة، وشخص آخر رسم القارب فيها، وكتب عليه اسمًا".

قال إيفور: "*تايجر ليلي*".

قالت توبينس: "لا، *ووتر ليلي*. وزوجته قالت إنه لم يرسم القارب".

سألها إيفور: "وهل هي تعرف ذلك يقينًا؟".

قالت توبينس: "أعتقد ذلك. إذا كانت المرأة متزوجة برسام، لا سيما وهي نفسها فنانة، فستعرف إذا كان هناك أسلوب مختلف عن أسلوب رسم زوجها. أعتقد أيضًا أن هذه المرأة مخيفة".

قال إيفور: "من؟ السيدة بوسكوان؟".

قالت توبينس: "أجل، إذا فهمتَ ما أعنيه. امرأة قوية ذات شخصية جبارة".

قال إيفور: "ربما، أجل".

قالت توبينس: "إنها تعرف أشياء، لكني لست متأكدة من أنها كانت تعرف هذه الأشياء لأنها تعرفها، إذا فهمتَ ما أعنيه".

قال تومي بحزم: "لا أفهم ما تعنينه؟".

قالت توبينس: "أعني أنك ربما تعرف أشياء لأنك تعرفها بالفعل، لكنك ربما تعرف أشياء من منطلق مشاعرك الغريزية فقط".

قال: "مثل مشاعرك الغريزية التي دفعتك لتقصي الأمر، يا توبينس".

قالت توبينس: "قل ما يحلو لك"، ثم أردفت متتبعة خيط أفكارها: "الأمر كله يتمحور حول سوتون تشنسلر، وحول ليدي ميد أو منزل القناة أو أيًا ما كانوا يطلقونه عليه، والأشخاص الذين عاشوا فيه. أعتقد أن ثمة أشياء مرتبطة بالموضوع تعود إلى وقت بعيد".

قال: "أنت تفكرين في السيدة كوبليه".

قالت توبينس: "أعتقد أن السيدة كوبليه ذكرت الكثير من الأشياء وهذا صعَّب الأمور، وأظن أن الأزمنة والتواريخ قد اختلطت عليها".

قال: "هذا حال الناس في الأرياف".

قالت توبينس: "أعرف ذلك، فأنا نفسي نشأت في قرية. إنهم يؤرخون الأشياء بالأحداث، وليس بالأعوام. هم لا يقولون 'هذا حدث في عام 1930' أو 'ذاك حدث في عام 1925'، بل يقولون 'هذا حدث بعد احتراق الطاحونة القديمة'، أو 'ذاك حدث بعد أن ضرب البرق شجرة البلوط الكبيرة، وتسبب في مقتل جيمس المزارع'، أو "كان هذا في العام الذي انتشر فيه وباء شلل الأطفال،' ولذا من الطبيعي أنهم لا يتذكرون الأشياء بتسلسل محدد، بل أجزاء متناثرة هنا وهناك، وهذا بالطبع يجعل الأمر صعبًا للغاية". ثم قالت بنبرة شخص توصل فجأة لاكتشاف

مهم: "إن المشكلة بالطبع أنني تقدمتُ في السن".

قال إيفور بلطف: "ستظلين شابة للأبد".

قالت توبينس بنبرة لاذعة: ، وقد عدتُ إلى الطرق البدائية في مساعدة ذاكرتي".

ثم نهضتْ وأخذت تسير في أنحاء الغرفة.

وقالت: "هذا فندق مزعج".

ثم خرجت من الباب، وذهبت إلى غرفة نومها، وعادت مرة أخرى وهي تهز رأسها.

وقالت: "لا توجد نسخة من أي كتاب ديني".

تساءل تومي: "أي كتاب ديني؟".

قالت: "أجل، في الفنادق عتيقة الطراز، دائمًا ما يضعون نسخة من هذه الكتب بجانب سريرك، بحيث يمكنك التضرع إلى الله ليلًا أو نهارًا. لكنهم لا يفعلون هذا هنا".

تساءل تومي: "أتريدين كتابًا دينيًا؟".

قالت: "أجل، أريد واحدًا. لقد نشأتُ نشأة متدينة، وكنت أعرف الكتب الدينية جيدًا، مثلما تفعل أية ابنة صالحة لرجل دين. لكني حاليًا صرتُ أنسى، لا سيما أن الناس في دور العبادة لم يعودوا يقرأون الدروس كما يجب. توزع دار العبادة على روادها بعض الكتب الدينية"، ثم أضافت: "بينما تذهبان إلى مكتب السماسرة، سأقود سيارتي إلى سوتون تشنسلر".

قال تومي: "لماذا؟ سأمنعك من هذا".

قالت: "بربك، أنا لست ذاهبة لإجراء تحريات، بل سأذهب إلى دار العبادة وأبحث عن نسخة من الكتاب الديني".

سأل تومي: "لماذا تريدين نسخة منه؟".

قالت توبينس: "أنا فقط أريد إنعاش ذاكرتي بشأن تلك الكلمات التي نُقشت على شاهد قبر الطفلة؛ فقد أثارت انتباهي".

قال تومي: "أنا لا أثق بكِ يا توبينس. أنا لا أثق بأنك ستبتعدين عن المتاعب عندما تغيبين عن نظري".

قالت: "أعدك بأنني لن أتجول بين المقابر بعد الآن. كل ما أفعله هو أنني سأذهب إلى دار العبادة ومقر رجل الدين في صباح مشمس. ما الخطر في ذلك؟".

نظر تومي إلى زوجته في شك، لكنه رضخ لطلبها في النهاية.

أوقفت توبينس سيارتها بجانب بوابة دار العبادة سوتون تشنسلر، ونظرت حولها بحذر قبل أن تدخل ساحة الدار. كان يبدو عليها عدم الثقة التي تبدو بشكل طبيعي على شخص عاد إلى مكان كان قد تعرض فيه إلى أذى بدني خطير من قبل. لكن في هذه المرة، لا يبدو أن هناك قتلة يختبئون خلف شواهد القبور.

دخلت توبينس دار العبادة، حيث كانت هناك امرأة عجوز جاثية على ركبتيها تلمّع بعض المشغولات النحاسية. مشت توبينس على أطراف أصابعها وصولًا إلى المنضدة التي عليها نسخة من الكتاب الديني وأخذت تتفحصها، فرمقتها المرأة الجاثية على ركبتيها بنظرة استياء.

طمأنتها توبينس بقولها: "لن أسرقه"، ثم أغلقته مرة أخرى، وخرجت من دار العبادة على أطراف أصابعها أيضًا. كانت تتمنى أن تتفحص المكان الذي اُكتشفت فيه المسروقات حديثًا، لكنها قد وعدت تومي بألا تفعل هذا.

همهمت توبينس لنفسها بالكلمات التي كانت مكتوبة على شاهد القبر *'من يلحق مكروهًا...'* ثم قالت لنفسها: "إذا كانت هذه الكلمات تعني شيئًا حقيقيًا، فلا بد أن شخصًا ما ارتكب شيئًا".

قطعت توبينس بسيارتها المسافة القصيرة الفاصلة بين دار العبادة ومقر رجل الدين، وترجلت من سيارتها وقطعت الممر المفضي إلى الباب الأمامي، ورنت الجرس لكنها لم تتلقَ إجابة من الداخل. قالت توبينس من سابق معرفتها بمقار رجال الدين: "أعتقد أن الجرس لا يعمل". فدفعت توبينس الباب، واستجاب الباب لدفعتها.

وقفت توبينس في الردهة، وكان يوجد على طاولة الردهة مظروف كبير مغلق بخاتم أجنبي ويحتل حيزًا كبيرًا على المنضدة. كان مطبوعًا على المظروف اسم جمعية، هذه الجمعية في أفريقيا.

قالت توبينس في نفسها: "أنا سعيدة أنني لست ضمن هذه الجمعية".

خلف هذه الفكرة الغامضة، كان يكمن شيء آخر، شيء له علاقة بمنضدة ردهة في مكان ما، بشيء يجب أن تتذكره. زهور؟ أوراق شجر؟ خطاب أو طرد ما؟

في هذه اللحظة، خرج رجل الدين من باب على اليسار قائلًا:

"هل تحتاجين إلى شيء، يا سيدتي؟ أوه، أنت السيدة بيريسفورد، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "هذا صحيح. لقد جئت لأسألك ما إذا كانت لديك نسخة من أي كتاب ديني".

قال رجل الدين وهو يبدو عليه شك غير متوقع: "كتاب ديني!".

قالت توبينس: "اعتقدتُ أنه ربما يكون لديك نسخة هنا".

قال رجل الدين: "بالطبع، بل ولديَّ عدة نسخ هنا، لكنها نسخ قديمة. لكن هذا ليس ما تريدين على ما أعتقد؟".

قالت توبينس: "لا"، ثم أردفت بحزم: "أريد النسخة القديمة المعتمدة".

قال رجل الدين: "بالطبع، لا بد أن هناك عددًا من النسخ القديمة المعتمدة في المقر. أجل، عدة نسخ. لكننا لا نستخدم هذه النسخة في دار العبادة الآن، ويؤسفني قول هذا، لكن على المرء أن يتماشى مع توجهات الدار، التي تهتم للغاية بالحداثة من أجل استقطاب الشباب. لديَّ الكثير جدًا من الكتب في مكتبتي، وبعضها متراكم فوق بعضه، لكني *أعتقد* أن بإمكاني أن أجد لكِ ما تبحثين عنه. *أعتقد* هذا. وإذا لم أجده، فسأطلب من السيدة بلاي أن تحضر لك نسخة. إنها هنا في مكان ما تفحص زهريات الأطفال التي سيضع فيها الأطفال أزهارهم البرية في ركن الأطفال في دار العبادة"، ثم ترك توبينس في الردهة، وعاد إلى الغرفة التي خرج منها.

لم تتبعه توبينس، بل ظلت في الردهة وهي تفكر عابسة، ثم نظرت فجأة إلى الباب في نهاية الردهة الذي انفتح ودخلت منه السيدة بلاي، وكانت تحمل زهرية معدنية ثقيلة للغاية.

تسارعت عدة أفكار إلى ذهن توبينس.

وقالت: "بالطبع... بالطبع".

قالت السيدة بلاي: "هل بإمكاني مساعدتك؟ أوه، السيدة بيريسفورد".

قالت توبينس: "أجل، *وأنت السيدة جونسون، أليس كذلك؟*".

سقطت الزهرية الثقيلة على الأرض، فانحنت توبينس والتقطتها من على الأرض، ووزنتها بيدها، وقالت: "إنه سلاح ثقيل للغاية"، ثم وضعت الزهرية جانبًا وقالت: "إنه مناسب لضرب شخص على رأسه من الخلف. أليس هذا ما فعلته بي، يا *سيدة جونسون*؟".

قالت السيدة بلاي: "أنا... أنا... ما الذي تقولينه؟ أنا .. أنا لم..."

لكن توبينس لم تكن بحاجة للبقاء أطول من هذا؛ فلقد رأت تأثير كلماتها. عندما ذكرت توبينس اسم السيدة جونسون للمرة الثانية، كشفت السيدة بلاي نفسها بطريقة لا تقبل الشك؛ فقد كانت ترتعش وهي مذعورة.

قالت توبينس: "كان هناك خطاب على المنضدة في طاولة صالة منزلك، وكان موجهًا إلى امرأة اسمها السيدة يورك في عنوان في كمبرلاند. هذا هو المكان الذي أخذتها إليه بعدما

أخذتها من دار قمة الجبل المشمسة، أليس كذلك يا سيدة جونسون؟ هذا هو المكان الذي تعيش فيه الآن. لقد استعملت لها كلا الاسمين: السيدة يورك والسيدة لانكستر. يورك ولانكستر هو الاسم الذي يُطلق على الزهرة ذات الخطوط الحمراء والبيضاء في حديقة بيري، نسبة إلى حرب الوردتين التي نشبت بين عائلتي يورك ولانكستر".

ثم استدارت توبينس بسرعة، وخرجت من المنزل، تاركة السيدة بلاي في الردهة، والتي حاولت الاستناد على درابزين السلم لتحفظ توازنها، وهي فاغرة فاها، وتحدق نحو توبينس وهي تغادر. ركضت توبينس على الممر باتجاه البوابة، وقفزت في سيارتها، وانطلقت بها، ثم نظرت خلفها نحو الباب الأمامي، لكن لم يخرج منه أحد. مرت توبينس في طريقها بدار العبادة، واتجهت إلى ماركت باسنج، لكنها غيرت رأيها فجأة، وأدارت سيارتها، وعادت إلى الطريق الذي جاءت منه، ثم سلكت الطريق المؤدي إلى منزل القناة. أوقفت سيارتها، ونظرت من البوابة، لترى إن كان السيد بيري أو زوجته في الحديقة، لكن لم يكن هناك أثر لهما، فدخلت من البوابة، وقطعت الممر المؤدي إلى الباب الخلفي، لكنه كان مغلقًا أيضًا، وكذلك النوافذ.

شعرت توبينس بضيق. ربما ذهبت أليس بيري للتسوق في ماركت باسنج، وقد كانت تريد رؤية أليس تحديدًا. طرقت توبينس الباب، برفق أولًا، ثم بصوت عال بعد ذلك، لكنها لم تتلق استجابة. أدارت مقبض الباب لكنه لم ينفتح؛ فقد كان مغلقًا بإحكام؛ لذا وقفت توبينس ولم تقرر بعد ماذا تفعل.

كانت توبينس تريد بشدة طرح بعض الأسئلة على أليس

بيـري. ربمـا تكون السيدة بيـري في سوتون تشنسلـر، وفي وسع توبينس العـودة لمقابلتها هناك. المشكلة في منزل القناة أنه لا يوجـد أحـد على مرأى البصر، ونادرًا ما تمـر سيارة على الجسر المجـاور للمنـزل، وهكـذا لا يوجـد مـن تسألـه توبينس إن كان يعرف إلى أين ذهبت أسرة بيري هذا الصباح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع عشر

السيدة لانكستر

بينما كانت توبينس تقف هناك عابسة، انفتح الباب بشكل غير متوقع، فعادت خطوة إلى الوراء وشهقت؛ فقد كان الشخص الواقف أمامها هو آخر شخص تتوقع أن تراه في العالم. كانت تقف عند مدخل الباب السيدة لانكستر شخصيًا مرتدية الملابس نفسها التي كانت ترتديها في دار قمة الجبل المشمسة، وتعلو وجهها الابتسامة اللطيفة الغامضة نفسها.

قالت توبينس: "أوه".

قالت السيدة لانكستر: "صباح الخير. هل تريدين السيدة بيري؟ إنه يوم السوق، ومن حسن الحظ أنني استطعت فتح الباب لك؛ فلقد أخذت أبحث عنه لبعض الوقت. أعتقد أنه ليس المفتاح الأصلي على أية حال. تفضلي. أتريدين كوبًا من الشاي أو شيئًا آخر".

عبرت توبينس عتبة الباب وهي تشعر بأنها في حلم.

قادت السيدة لانكستر توبينس إلى غرفة الجلوس، وهي لا تزال تحتفظ بطابعها اللطيف كامرأة مضيافة.

قالت السيدة لانكستر: "تفضلي بالجلوس. أخشى أنني لا أعرف مكان الأكواب والأشياء الأخرى؛ فأنا هنا منذ يوم أو اثنين فقط. دعيني أتذكر. لقد قابلتك من قبل، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "أجل، عندما كنتِ في دار قمة الجبل المشمسة".

قالت السيدة لانكستر: "قمة الجبل المشمسة. قمة الجبل المشمسة. يبدو أن هذا يذكرني بشيء ما. أوه، بالطبع، عزيزتي السيدة باكارد. أجل، مكان لطيف للغاية".

قالت توبينس: "لقد رحلتِ بسرعة عن الدار، أليس كذلك؟".

قالت السيدة لانكستر: "قد يصبح الناس متسلطين للغاية ويستعجلونك؛ فلا يتيحون لك الوقت لترتيب الأمور أو لحزم الأمتعة بشكل ملائم أو لأي شيء، لكنهم قد يكونون حسني النية. وأنا أحب نيلي بلاي كثيرًا، لكنها تنزع إلى السيطرة كثيرًا"، ثم مالت ناحية توبينس، وقالت وهي تنقر بأصبعها على جبينها في إشارة ذات مغزى: "لكني أظن أنها ... هذه أشياء واردة الحدوث بالطبع، لاسيما مع العوانس. هن بارعات في عملهن، لكن تراودهن أوهام غريبة في بعض الأحيان. ورجال الدين يعانين منهن أيما معاناة؛ فالواحدة منهن قد تظن أن رجل الدين قد عرض عليها الزواج، في حين أن رجل الدين لم يفكر في هذا أبدًا. نيلي المسكينة. إنها حساسة في جوانب عديدة، وهي تدير أنشطة في دار العبادة بطريقة رائعة، كما أنها كانت دائمًا سكرتيرة من الطراز الأول. لكن برغم هذا، تنتابها أفكار غريبة للغاية من حين لآخر، مثل أن تأخذني دون سابق

إنذار من دار قمة الجبل المشمسة التي أحبها إلى دار مسنات كئيبة في كمبرلاند، ثم تجلبني فجأة مرة أخرى إلى هنا".

سألتها توبينس: "هل تعيشين هنا؟".

قالت السيدة لانكستر: "إن كان بإمكانك أن تعتبري الأمر كذلك. إنه ترتيب غريب للغاية، وأنا هنا منذ يومين".

قالت توبينس: "قبل ذلك كنتِ في دار روزتيليس كورت في كمبرلاند؟".

قالت: "أجل، أعتقد أن هذا كان اسمها. لكنه ليس اسمًا جميلًا كقمة الجبل المشمسة، أليس كذلك؟ في الحقيقة، أنا لم أشعر باستقرار حقيقي فيها؛ حيث لم تكن إدارتها جيدة، وكانت الخدمة سيئة، وكانوا يقدمون لنا نوعًا رديئًا من القهوة. ومع ذلك، حاولتُ التعود على المكان، وتعرفت على نزيلة أو نزيلتين لطيفتين في الدار، وكانت إحداهما تعرف خالة لي منذ سنوات في الهند. من الجميل أن تقيمي علاقات جديدة".

قالت توبينس: "أكيد".

واصلت السيدة لانكستر كلامها في ابتهاج: "الآن دعيني أتذكر. أعتقد أنك لم تأتِ إلى قمة الجبل المشمسة للإقامة، بل بسبب زيارة نزيلة ما".

قالت توبينس: "خالة زوجي، السيدة فانشاو".

قالت السيدة لانكستر: "أجل، بالطبع. أتذكر الآن. ألم يكن هناك شيء بخصوص طفلة لك خلف مدخنة المدفأة؟".

قالت توبينس: "لا، لم تكن طفلتي".

قالت السيدة لانكستر: "لكن هذا هو سبب مجيئك إلى هنا، أليس كذلك؟ لقد واجهتهم مشكلات في المدخنة هنا، وقد فهمت أن طائرًا سقط فيها. هذا المكان بحاجة إلى إصلاحات. أنا لا أحب وجودي هنا *على الإطلاق*، على الإطلاق. وسأخبر نيلي بذلك بمجرد أن أراها".

سألتها توبينس: "هل تقيمين مع السيدة بيري؟".

قالت السيدة لانكستر: "نعم ولا. هل يمكنني ائتمانك على سر؟"

قالت توبينس: "نعم. يمكنك الوثوق بي".

قالت السيدة لانسكتر: "إنني لا أقيم هنا إطلاقًا، أعني هذا الجزء من المنزل. هذا هو الجزء الخاص بعائلة بيري"، ثم مالت للأمام وأضافت: "ثمة جزء آخر في الطابق العلوي. تعالي معي وسأريكِ".

نهضت توبينس، وهي تشعر كأنها في حلم مجنون.

قالت السيدة لانكستر: "سأغلق الباب بإحكام أولًا حتى نكون في أمان أكثر".

ثم قادت توبينس عبر درج ضيق إلى الطابق العلوي، ودخلا غرفة نوم كبيرة كان يبدو عليها أن هناك من يستعملها، ربما هي غرفة بيري وزوجته، ثم عبرا بابًا آخر من هذه الغرفة يقود إلى غرفة مجاورة. وكانت هذه الغرفة لا تحتوي إلا على حوض ودولاب خشبي طويل. لا شيء آخر. ذهبت السيدة لانكستر إلى الدولاب الخشبي الطويل، وبحثت عن شيء في ظهر الدولاب، ثم دفعته جانبًا بسهولة مفاجئة. بدا أن الدولاب يتحرك على

عجلات، وقد انزوى بسهولة كاشفًا عن الجدار، واندهشت توبينس عندما رأت أن خلف الدولاب مدفأة، وكان أعلى المدفأة مرآة، تحتها رف صغير عليه منحوتات خزفية على شكل طيور.

وقفت توبينس مذهولة وهي ترى السيدة لانكستر تمسك بمنحوت الطائر في وسط الرف، وجذبته بقوة. بدا واضحًا أن المنحوت ملتصق بالرف، وكانت توبينس قد أدركت بلمسة سريعة أن جميع الطيور مثبتة بقوة. كنتيجة لما فعلته السيدة لانكستر، صدر صوت طقطقة، وخرجت المدفأة بأسرها عن الحائط وتحركت للأمام.

قالت السيدة لانكستر: "فكرة ذكية، أليس كذلك؟ لقد تم تنفيذها منذ وقت طويل عندما كانوا يجرون تعديلات في المنزل. كانوا يطلقون على هذه الغرفة الثقب الخفي. تفضلي بالدخول. هذا هو المكان الذي أعيش فيه الآن".

جذبت السيدة لانكستر المنحوت مرة أخرى، فاتسعت المسافة أكثر بين المدفأة والحائط، وبعد لحظات كانت الاثنتان في غرفة جذابة تطل نوافذها على القناة والتل في الجهة المقابلة.

قالت السيدة لانكستر: "إنها غرفة جميلة، أليس كذلك؟ إنها تطل على منظر جميل. دائمًا ما أحببتها. لقد عشتُ هنا فترة وأنا فتاة".

قالت توبينس: "أوه، حسنًا".

قالت السيدة لانكستر: "هذا منزل مشئوم. كانوا دائمًا يقولون عنه إنه مشئوم. سأغلق الباب مرة أخرى من باب الحذر".

ثم مدت يدها وسحبت الباب الذي دخلا منه، وسُمع صوت طقطقة حادة بينما ينغلق.

قالت توبينس: "أعتقد أن هذا أحد التعديلات التي قاموا بها عندما أرادوا استخدام المنزل كمخبأ".

قالت السيدة لانكستر: "لقد قاموا بالكثير من التعديلات. تفضلي بالجلوس. هل تحبذين مقعدًا مرتفعًا أم منخفضًا؟ أنا أفضل المقعد المرتفع بسبب الروماتيزم. أعتقد أنك تفكرين أنه ربما توجد جثة طفلة هنا. فكرة سخيفة للغاية، ألا تظنين كذلك؟".

قالت توبينس: "أجل، ربما".

قالت السيدة لانكستر بلطف: "عساكر وحرامية. إن المرء يكون أحمق وهو شاب، وتروقه أمور مثل العصابات والسرقات الكبيرة. وتظن الشابة أن زواجها برجل عصابات سيكون أروع شيء في العالم. وأنا كنت أظن هذا في وقت ما، لكني صدقيني ..."، ثم مالت للأمام ونقرت بأصبعها على ركبة توبينس قائلة: "لكن صدقيني، *هذا ليس صحيحًا*. كان هذا رأيي في وقت ما، لكن المرء يريد ما هو أكثر من ذلك. كما لا توجد إثارة حقيقية في سرقة الأشياء والإفلات بها؛ فالأمر يتطلب الكثير من الترتيب والتنظيم".

قالت توبينس: "أتتحدثين عن السيدة جونسون أو بلاي أو أيًا كان ما تطلقينه عليها؟".

قالت السيدة لانكستر: "عادة ما أطلقت عليها نيلي بلاي بالنسبة إليَّ، لكنها لسبب ما ادعت أنها زوجة رجل من عائلة

جونسون وحملت لقبه لتيسير أمورها حسبما تقول، لكنها لم تتزوج أبدًا وظلت عانسًا إلى الآن".

سُمع صوت طرق باب قادم من أسفل.

قالت السيدة لانكستر: "يا إلهي. لابد أن بيري وزوجته قد عادا. لم أكن أعلم أنهما سيعودان بهذه السرعة".

استمر الطرق، فقالت توبينس: "ربما يجب أن نفتح لهما".

قالت السيدة لانكستر: "لا، يا عزيزتي. لن نفعل هذا. أنا لا أطيق المتطفلين أبدًا. نحن هنا نخوض محادثة لطيفة، أليس كذلك؟ أعتقد أننا سنظل هنا في الطابق العلوي. يا إلهي، إنهما يناديان من تحت النافذة. اذهبي وانظري من ينادي".

ذهبت توبينس إلى النافذة، وقالت: "إنه السيد بيري".

كان السيد بيري ينادي من تحت النافذة: "جوليا! جوليا!".

قالت السيدة لانكستر: "يا للوقاحة! أنا لا أسمح لأشخاص مثل آموس بيري بمناداتي باسمي الأول. لا تقلقي يا عزيزتي؛ فأنت بأمان هنا، ويمكننا إجراء حديث لطيف هنا. سأخبرك بكل شيء عن نفسي. لقد عشتُ حياة مثيرة حافلة بالأحداث، وأحيانًا أفكر في تدوينها. لقد تورطتُ في أشياء، كنت فتاة جامحة، وتورطتُ مع عصابة من المجرمين. هذا وصفهم بمنتهى البساطة، وكان منهم أشخاص أنفر منهم *بشدة*، *وكان* منهم أشخاص غاية في اللطف والرقي".

قالت توبينس: "أتقصدين السيدة بلاي؟".

قالت السيدة لانكستر: "لا، لا. لم يكن للسيدة بلاي علاقة بأية جرائم على الإطلاق. إنها امرأة متدينة مرتبطة بدار

العبادة، لكن هناك أنواعًا مختلفة من التدين، وأنتِ ربما تعرفين هذا".

قالت توبينس: "أعتقد أن هناك الكثير من الجماعات الدينية المختلفة".

قالت السيدة لانكستر: "هناك ممارسات دينية للأشخاص العاديين، وهناك ممارسات أخرى لغير العاديين. هناك أشخاص مميزون يخضعون لأوامر إلهية خاصة. إنهم جنود مختارون. هل تفهمين ما أعنيه، يا عزيزتي؟".

قالت توبينس: "لا أعتقد هذا. ألا تعتقدين أنه يجب أن نفتح لبيري وزوجته باب منزلهما؟ سيغضبان بهذه الطريقة".

قالت السيدة لانكستر: "لن نفتح لهما الباب إلا بعد أن أخبرك بكل شيء. لا تخافي يا عزيزتي؛ فالأمر طبيعي ولا يؤذي. لا يوجد ألم من أي نوع، بل سيكون أشبه بالنوم، وليس أسوأ من ذلك".

حدَّقت توبينس في السيدة لانكستر، ثم قفزت من مقعدها، واتجهت نحو الباب في الحائط.

قالت السيدة لانكستر: "لا يمكنكِ الخروج من هنا. أنتِ لا تعرفين مكان المقبض الذي يفتح الباب، وهو ليس حيث تظنين على الإطلاق. أنا فقط من يعرف مكانه. أنا أعرف أسرار كل هذا المكان؛ فقد عشتُ هنا مع مجرمين وأنا فتاة صغيرة حتى ابتعدتُ وحصلتُ على الخلاص. كان خلاصًا خاصًا مُنح إلي للتكفير عن خطيئتي، وهي قتلي للطفلة. كنت فنانة استعراضية ولا أريد أطفالًا. انظري إلى الحائط. هناك لوحة لي كفنانة استعراضية.

نظرت توبينس إلى حيث تشير؛ لترى لوحة زيتية بالحجم الطبيعي معلقة على الحائط، وكانت تظهر فتاة ترتدي زيًا من الساتان الأبيض على شكل أوراق شجر، ومكتوب على اللوحة "ووتر ليلي".

قالت توبينس: "لقد كان ووتر ليلي من أفضل أدواري. إن الجميع قال هذا".

عادت توبينس ببطء وجلست، وحدَّقت إلى السيدة لانكستر. وفي هذه الأثناء، كان يتردد في ذهنها كلمات سمعتها في دار قمة الجبل المشمسة *أكانت هي ابنتك المسكينة؟* شعرت توبينس بخوف حينها، وتشعر بخوف الآن. لم تكن تعرف في دار المسنات سبب هذا الخوف، لكنه الخوف نفسه الذي تشعر به الآن. ها هي تنظر إلى هذا الوجه اللطيف وهذه الابتسامة الرقيقة.

أردفت السيدة لانكستر: "كان عليَّ طاعة الأوامر التي أُصدرت لي؛ إذ لا بد أن توجد رُسُل للتدمير، وقد كُلفت بأن أكون أحدهم، وقبلتُ التكليف. إن الأطفال يموتون دون خطيئة؛ فهم ليسوا كبارًا بما يكفي لارتكاب خطايا. وقد كنتُ أرسلهم إلى السماء وفقًا لما كُلفت به. كنت أرسلهم وهم أبرياء لا يعرفون شرًا بعد. إنه لشرف عظيم أن أُختار لذلك خصيصًا. إنني دائمًا ما أحببتُ الأطفال، وقد كانت لديَّ ابنة. إن ما فعلتُه قاسٍ أو يبدو قاسيًا، لكنه في الحقيقة كان تكفيرًا عما فعلته. ربما أنتِ تعرفين ما حدث".

قالت توبينس: "لا".

قالت السيدة لانكستر: "أوه، يبدو أنك تعرفين الكثير، ولذا ظننتُ أنكِ ربما تعرفين هذا أيضًا. لقد ذهبتُ إلى طبيب وأنا في

السابعة عشرة من عمري وكنت خائفة، وقال لي إنه من الممكن التخلص من الطفل ولن يعرف أحد بالأمر. لكن الأمر لم يسر على ما يرام؛ فقد بدأت تراودني أحلام، وكان دائمًا يظهر فيها هذا الطفل ويسألني لماذا سلبته حياته، ويخبرني بأنه يريد رفقة معه. لقد كانت أنثي. أنا متأكدة من أنها كانت فتاة. كانت تأتي إليَّ في أحلامي وتطلب إحضار أطفال آخرين إليها. ثم جاءني الأمر الإلهي. كنت حينها قد تزوجتُ لكني لم أنجب أطفالًا، وقد أراد زوجي إنجاب أطفال بشدة، لكني لم أتمكن من الإنجاب لأنني كنت مصابة بلعنة. أتفهمين ما أقوله؟ لكن كانت هناك طريقة للتكفير عما فعلته. إن ما فعلته بطفلتي جريمة قتل، ولا يمكنك التكفير عن جريمة قتل إلا بارتكاب جرائم قتل أخرى؛ لأنه حينها جرائم القتل الأخرى لن تكون جرائم، بل *تضحيات*. إنهم بمنزلة قرابين قدمتها. أنت ترين الفرق، أليس كذلك؟ لقد صعد الأطفال إلى السماء ليؤنسوا ابنتي. أطفال ذوو أعمار مختلفة، لكنهم صغار. كنت أتلقى الأمر وحينها ....."، مالت السيدة لانكستر حتى لامست توبينس وقالت: "كنت أسعد بتنفيذه. أنت تفهمين هذا، أليس كذلك؟ لقد أسعدني للغاية إطلاق هذه الأرواح حتى لا يشعروا بالذنب مثلي، لكني لم أخبر أحدًا، وكان من الضروري ألا يعلم أحد بشيء، وكنت حريصة على التأكد من ذلك. لكن أحيانًا كان هناك أشخاص يعرفون أو يشكون في الأمر، وكان هذا يعني أنهم يجب أن يموتوا كي أكون في أمان، وقد كنتُ في أمان دائمًا. أتستوعبين ما أقوله؟".

قالت توبينس: "لا، ليس تمامًا".

قالت السيدة لانكستر: "لكنك *تعرفين أشياء*. هذا هو سبب

مجيئك إلى هنا، أليس كذلك؟ أنت عرفت أشياء عندما طرحتُ عليك سؤالا في قمة الجبل المشمسة. لقد رأيتُ تعبيرات وجهك. لقد سألتك 'أكانت هي ابنتك المسكينة؟' كنت أعتقد أنك ربما تكونين إحدى الأمهات اللائي قتلتُ أطفالهن. كنت أرجو أن تعودي مرة أخرى ونحتسي كوبًا من الحليب معًا. عادة ما أقدم الحليب، وأحيانًا الكاكاو، لمن يعرف سري".

مشت السيدة لانكستر ببطء في الغرفة، وفتحت دولابًا في أحد أركان الغرفة.

قالت توبينس: "أكانت السيدة مودي هي من كشفت أمرك في الدار؟".

قالت السيدة لانكستر: "أوه، أنت تعرفين هذا. هي لم تكن أمًا لأحد الأطفال، بل كانت تعمل مسئولة عن الملابس في أحد المسارح، وقد تعرفت عليَّ؛ فكان لا بد من التخلص منها" ثم استدارت فجأة واتجهت إلى توبينس وهي تحمل كوبًا من الحليب وتبتسم ابتسامة مقنعة.

وقالت: "اشربي. اشربي".

ظلت توبينس صامتة للحظات، ثم نهضت سريعًا، وهرعت إلى النافذة، وأمسكت بمقعد، وحطمت به زجاج النافذة، وانحنت، وصرخت: "النجدة! النجدة!".

وضعت السيدة لانكستر كوب الحليب على المنضدة، وجلست على مقعدها، وأسندت ظهرها إلى الوراء، وضحكت.

وقالت: "كم أنت غبية! من تعتقدين أنه سيأتي لنجدتك؟ من تعتقدين أن *بإمكانه* أن يأتي لنجدتك؟ سيتعين على من

يأتي أن يحطم الأبواب، ويدخل من هذا الحائط. وفي خلال هذا الوقت، هناك وسائل أخرى يمكنني استخدامها، وليس الحليب بالضرورة. الحليب أسهل وسيلة. الحليب والكاكاو وحتى القهوة. بالنسبة إلى السيدة مودي، وضعته لها في الكاكاو، فقد كانت تحب الكاكاو".

سألتها توبينس: "كيف حصلتِ على المورفين؟".

قالت السيدة لانكستر: "كان هذا سهلًا. لقد عشتُ مع رجل منذ عدة سنوات، وكان مصابًا بالسرطان؟ وقد أعطاني الطبيب كمية من المورفين وعقاقير أخرى، وقد قلتُ لاحقًا إني تخلصتُ منها جميعًا، لكني احتفظت بها اعتقادًا مني أني ربما أحتاج إليها يومًا ما، لكنني شخصيًا لم أتعاطَ أيضًا منها؛ فأنا لا أؤمن بفائدتها". ثم دفعت كوب الحليب نحو توبينس، وقالت: "اشربيه. هذه أسهل طريقة. هناك طريقة أخرى ... المشكلة أنني لا أتذكر أين وضعته".

ثم نهضت من مقعدها وبدأت تتمشى في الغرفة.

وقالت: "أين وضعتُه؟ أين هو؟ لقد صرتُ مسنة وأنسى كل شيء".

صاحت توبينس مرة أخرى: "النجدة!"، لكن ضفة القناة كانت خالية. كانت السيدة لانكستر لا تزال تذرع المكان جيئة وذهابًا.

ثم قالت: "أعتقد ... أعتقد أنه في حقيبة الحياكة".

التفتت توبينس وهي أمام النافذة، فوجدت السيدة لانكستر تتقدم نحوها.

قالت السيدة لانكستر: "أنت امرأة حمقاء لتجبريني على اختيار هذه الطريقة".

ثم مدت ذراعها، وأمست بكتف توبينس، ورفعت يدها اليمنى التي كانت تخفيها وراء ظهرها، فإذا بها سكين طويلة رفيعة. حاولت توبينس المقاومة، وهي تقول: "يمكنني إيقافها بسهولة. إنها امرأة عجوز وضعيفة. إنها لن تقدر ..."

لكنها عادت وقالت لنفسها وقد اعترتها موجة باردة من الخوف: "لكني امرأة عجوز أيضًا. أنا لست قوية كما أظن. أنا لست قوية بقدرها. يدها. قبضتها. أصابعها. أعتقد أن السبب هو أنها مجنونة، وعادة ما يكون المجانين أقوياء جسديًا".

كان النصل اللامع للسكين يقترب من توبينس، فصرخت. كانت تسمع أصواتًا لصياح وطرقات قوية قادمة من أسفل، وكأن شخصًا يحاول كسر باب أو نافذة. قالت لنفسها: "لن يتمكن شخص من فتح هذا الباب السري إلا إذا عرف آلية تشغيله".

قاومت توبينس بقوة، وكانت لا تزال قادرة على إبعاد يدها عنها، لكن السيدة لانكستر كانت أضخم وأقوى، وكان وجهها لا يزال يبتسم، لكنه لم يعد يحمل ذاك التعبير المسالم، بل تعبير شخص يستمتع بما يفعله.

قالت توبينس: "كيت القاتلة".

قالت السيدة لانكستر: "أنت تعرفين لقبي؟ أجل، كان هذا لقبي، لكني غيرته، وأصبح 'يد القدر القاتلة'. إن قتلي لك إرادة إلهية من أجل تصحيح الأمور. أتدركين ذلك؟ هذا من أجل تصحيح الأمور".

كانت توبينس محاصرة في جانب مقعد كبير، وكانت السيدة

لانكستر تثبّت توبينس على المقعد بذراعها اليسرى، وكان ضغط ذراعها يزداد تدريجيًا، ولم يكن هناك حيز لتتراجع إليه توبينس. كان النصل الحاد للسكين في اليد اليمنى للسيدة لانكستر يقترب من توبينس.

قالت توبينس لنفسها: "يجب ألا يتملكني الرعب. يجب ألا يتملكني الرعب"، لكن بعدها حدثت نفسها بسؤال ملح: "*لكن ما الذي بإمكاني فعله؟*". كانت المقاومة غير مجدية.

حينها انتابها خوف، وهو الخوف الحاد نفسه الذي شعرت به في قمة الجبل المشمسة.

أكانت هي ابنتك المسكينة؟

كان هذا أول تحذير لها، لكنها أساءت فهمه، ولم تعرف أنه تحذير.

شاهدت عينها النصل المقترب منها، لكن من الغريب أن ما أخافها إلى حد شل قواها ليس السلاح المعدني اللامع ورهبته، بل الوجه الذي فوقه، وجه السيدة لانكستر المبتسم السعيد، وجه امرأة تنفذ مهمتها المكلفة بها بعقلانية هادئة.

قالت توبينس لنفسها: "إنها لا تبدو مجنونة، وهذا أفظع ما في الأمر. بالطبع لا تبدو مجنونة؛ لأنها تظن أن عقلها سليم. إنها تظن أنها إنسانة عاقلة وطبيعية تمامًا. أوه، يا تومي، ما الذي ورطت نفسي فيه هذه المرة؟".

شعرت توبينس بالدوار، وخارت قواها، وارتخت عضلاتها، وسمعت صوت انكسار زجاج وبعد ذلك فقدت وعيها وسقطت في غياهب الظلام.

"هذا جيد. أنت تفيقين. اشربي هذا، يا سيدة بيريسفورد".

وُضِع كوب على شفتيها، لكنها قاومت بشدة ... حليب مسمم ... من الذي ذكر شيئًا عن حليب مسمم؟ ... لن تشرب الحليب المسمم ... لا، حليب لا ... لكن هذا الشراب رائحته مختلفة.

حينها استرخت توبينس، وفتحت شفتيها، ورشفت.

قالت توبينس: "هذا عصير".

"هذا صحيح! هيا، اشربي المزيد".

رشفت توبينس مرة أخرى، ثم عادت للوراء وأسندت ظهرها على الوسادة، ومسحت المكان بعينيها. كانت هناك قمة سلم خشبي بارزة من النافذة، وثمة زجاج متناثر على الأرضية أمام النافذة.

قالت توبينس: "لقد سمعتُ صوت انكسار الزجاج".

ثم دفعت كوب العصير عن فمها، ورفعت عينيها عن الأصابع التي تمسك بالكوب إلى الذراع فاليد وصولًا إلى وجه الرجل الذي يحمل الكوب.

قالت توبينس: "إل جريكو".

قال الرجل: "أستميحك عذرًا؟".

قالت توبينس: "لا تهتم".

ثم نظرت في أنحاء الغرفة.

وقالت: "أين هي؟ أعني السيدة لانكستر؟".

قال: "إنها تستريح في الغرفة المجاورة".

قالت توبينس: "أرى ما تعنيه". لكنها لم تكن متأكدة أنها

تـرى بشـكل جيـد، وقالـت لنفسها إنها سـتـرى بشـكل أفضل بعد قليـل، ولا يسعهـا الآن سـوى استيعـاب فكـرة واحـدة فـي المـرة الواحدة.

قالت ببطء وبشك: "السير فيليب ستارك، أليس كذلك؟".

قال فيليب: "هذا صحيح، لكن لماذا قلتِ إل جريكو؟".

قالت: "المعاناة".

قال: "أستميحك عذرًا؟".

قالـت: "أنـت تذكّرنـي بلوحـة للفنـان إل جريكـو رأيتهـا في مدينة توليدو الإسبانية أو في متحف برادو بمدريد. لقد فكرتُ فـي هـذا منذ وقت طويل ... لا، ليس منذ وقت طويل"، ثم فكرت توبينس لحظات وقالـت بنبـرة مَـن توصـل لاكتشـاف: "بل في أمسية البارحة بدار العبادة".

قال فيليب مشجعًا: "ها أنت تفيقين أكثر".

برغـم كل شيء، بدا الموقف بسيطًـا للغاية وتوبينس تجلس فـي هـذه الغرفة، والزجاج متناثر علـى الأرض، وهي تتحدث مع هذا الرجل ذي الوجه الحزين الكئيب.

قالـت توبينـس: "لقـد ارتكبـتُ خطـأ فـي دار قمـة الجبـل المشمسـة، وكنتُ مخطئة تمامًا بشـأن هذه المرأة. لقد انتابتني موجـة مـن الخـوف هناك، لكنهـا موجة فـي الاتجاه الخطـأ؛ إذ لـم أكن خائفة مـن المرأة، بـل خائفة *عليها*. لقـد أردتُ حمايتها وإنقاذها"، ثم نظرت في شك إلى فيليب واستطردت: "أتفهمني؟ أم هل يبدو هذا سخيفًا؟".

قال: "لا أحد في العالم يفهمك أكثر مني".

نظرت توبينس إليه عابسة.

وقالت: "من كانت هذه المرأة؟ أعني السيدة لانكستر أو السيدة يورك. كلاهما ليس اسمها؛ فهذان هما اسما العائلتين في حرب الوردتين. من كانت هذه المرأة في الحقيقة؟".

ذهب فيليب إلى النافذة، ووقف لحظات ينظر بشرود إلى الخارج، ثم التفت فجأة، قائلًا: "لقد كانت زوجتي. ليساعدني الله".

قالت: "لكن زوجتك قد ماتت، وهناك لوح تذكاري في دار العبادة".

قال: "لقد اختلقتُ قصة أنها ماتت بالخارج، ووضعت لوحًا تذكاريًا إحياء لذكراها في دار العبادة؛ فالناس لا يحبون طرح الكثير من الأسئلة على أرمل مكلوم، كما أنني لم أواصل العيش هنا".

قالت: "بعض الناس قالوا إنها هجرتك".

قال: "كانت هذه قصة مقبولة أيضًا".

قالت: "أنت أخذتها إلى مكان بعيد عندما اكتشفتَ أمر الأطفال".

قال: "أنت تعلمين بشأن الأطفال إذن؟".

قالت: "لقد أخبرتني هي، وكان شيئًا يصعب تصديقه".

قال: "كانت تبدو طبيعية معظم الوقت، ولم يكن أحد ليتوقع هذا، لكن الشرطة بدأت تشك، وكان عليَّ التصرف سريعًا

لإنقاذها وحمايتها. أنت تتفهمين ذلك. أيمكنكِ تفهم ذلك على الأقل؟".

قالت توبينس: "أجل، بوسعي تفهم هذا جيدًا".

قال: "كانت شابة رائعة فيما مضى"، ثم أضاف بصوت منكسر وهو يشير إلى اللوحة على الحائط: "أترينها. ووتر ليلي. لطالما كانت فتاة جامحة. كانت أمها هيلين وايندر هي آخر أفراد عائلة وايندر، وهي عائلة قديمة. عاشت أمها حياة سيئة الحظ، ولجأت الابنة إلى المسرح وصارت فنانة استعراضية، وكان ووتر ليلي هو أشهر أدوارها، لكنها بعد ذلك انخرطت مع عصابة إجرامية سعيًا للإثارة، لكنها طُردت منها، وكانت تتعرض لخيبات أمل متكررة.

عندما تزوجتها، كانت قد أنهت علاقتها بكل هذا؛ فقد أرادت الاستقرار وعيش حياة هادئة في كنف حياة أسرية تكون فيها أمًا لأطفال. لقد كنت ثريًا وبإمكاني منحها كل ما أرادت. لكننا لم ننجب أطفالًا، وكلانا حزن لذلك. ثم بدأ ينتابها شعور هوسي بالذنب. ربما كان لديها خلل طفيف في اتزانها الذهني دائمًا. لا أعرف. ما أهمية الأسباب على أية حال؟ لقد كانت ..."

ثم أصدر إشارة يأس بيده، وأردف: "لقد أحببتها. لطالما أحببتها. مهما كانت شخصيتها، ومهما كان ما فعلت، فقد أردت حمايتها وبقاءها آمنة وألا يُحكم عليها بالسجن مدى الحياة؛ فتظل تتجرع الألم في سجنها. وقد تمكنّا بالفعل من حمايتها لسنوات وسنوات عديدة".

قالت: "تمكنًا؟".

قال: "أعني المخلصة لي دائمًا، نيلي بلاي. عزيزتي نيلي

بـلاي. إنهـا امـرأة رائعة قامـت بتخطيط وترتيـب كل شيء، بما فـي ذلـك دور المسنـات التـي كانـت مريحـة وفاخـرة، ولا يوجد بهـا إغـراءات، أقصد أطفالًا. لقد تمكنا مـن إبعاد الأطفال عنها. بـدا أن هـذه الفكـرة ناجحة. كانـت دور المسنات هـذه في أماكن متباعـدة مثـل كمبرلاند، ونـورث وويلز، وكان مـن المستبعد أن يتعـرف عليهـا أحـد أو هكذا اعتقدنـا. كانت هـذه نصيحة السيد إكليس، وهو محامٍ محنك يتقاضى مني أتعابًا باهظة، لكني كنت أعتمد عليه".

تساءلت توبينس: "ابتزاز؟".

قال: "لم أفكر في الأمر هكذا؛ فقد كان صديقًا ومستشارًا".

سألته: "من الذي رسم القارب في اللوحة، ذلك القارب الذي كُتب عليه ووتر *ليلي*؟".

قال: "أنا، وقد أسعدها هذا؛ حيث ذكّرها بذروة نجاحها على المسـرح. كانـت هـذه إحدى لوحـات بوسكـوان، وقـد كانت تحب لوحاته. في أحد الأيام، كتبت زوجتي على الجسر بلون أسود اسم طفـل ميت؛ ولذا رسمتُ قاربًا لإخفاء مـا فعلتْه، وأسميتُ القارب *ووتر ليلي*".

انفتـح البـاب السـري فـي الحائـط، ودخلـت منـه الساحـرة الطيبة، ونظرت إلى توبينس ثم إلى فيليب ستارك.

وقالت بنبرة عادية: "أكل شيء على ما يرام؟".

قالـت توبينـس: "أجل". كانـت توبينس تـرى أن الجميل في هذه الساحرة الطيبة أنها لا تثير أية جلبة.

قالـت السيدة بيري: "إن زوجك ينتظرك بالسيارة، وقد قلت

له إنني سأحضرك إليه، إذا كنت تفضلين هذا؟".

قالت توبينس: "أجل، أفضل هذا".

قالت السيدة بيري: "هذا ما توقعته، ثم نظرت نحو الباب المؤدي إلى غرفة النوم، وقالت: "هل هي هنا؟".

قال فيليب ستارك: "نعم".

دخلت السيدة بيري غرفة النوم، ثم خرجت منها، ونظرت إليه في تساؤل، وقالت: "حسنًا".

قال فيليب: "لقد عرضتْ على السيدة بيريسفورد كوبًا من الحليب، لكنها رفضت".

قالت السيدة بيري: "فتناولته هي على ما أظن؟".

تردد فيليب، ثم قال: "أجل".

قالت السيدة بيري: "سيأتي الدكتور مورتيمر لاحقًا".

ثم ذهبت لمساعدة توبينس على النهوض، لكنها نهضت دون مساعدة.

وقالت: "أنا لست مصابة. لقد كانت مجرد صدمة، لكني بخير الآن".

كانت توبينس تقف في مواجهة فيليب ستارك، وبدا أن أيًا منهما ليس لديه ما يقوله، وكانت السيدة بيري تقف قرب الباب.

تحدثت توبينس أخيرًا، وقالت ما يمكن اعتباره بالكاد سؤالًا: "أهناك شيء يمكنني فعله؟".

قال فيليب: "هناك شيء أخير أريدك أن تعرفيه. لقد كانت نيلي بلاي هي من ضربتك على رأسك في ساحة دار العبادة في

ذلك اليوم".

أومأت توبينس، وقالت: "لقد أدركتُ ذلك".

قال فيليب: "لقد فقدت رباطة جأشها، وظنت أنك تتعقبينها وتتعقبين سرنا. إنني نادم أشد الندم على الضغط الذي حملتها إياه طوال تلك السنوات الطويلة؛ فهذا أكثر مما يمكن أن يُطلب من أية امرأة أن تتحمله".

قالت توبينس: "أظن أنها أحبتك كثيرًا، لكني لا أعتقد أننا سنلاحق السيدة جونسون إذا كان هذا ما تخشاه أنت".

قال فيليب: "شكرًا لك. أنا ممتن للغاية".

ساد المكان صمت آخر، وكانت السيدة بيري تنتظر بصبر نافد. نظرت السيدة توبينس حولها، وذهبت إلى النافذة المكسورة، ونظرت إلى القناة الهادئة تحتها.

وقالت: "أعتقد أنني لن أرى هذا المنزل مرة أخرى. أنا أمعن النظر إليه حتى أتمكن من تذكره لاحقًا".

قال فيليب: "هل تريدين تذكره؟".

قالت توبينس: "أجل. لقد قالت لي امرأة إن هذا المنزل أُسيء استعماله، وأنا أدرك الآن ما كانت تعنيه".

نظر إليها فيليب مستفهمًا، لكنه لم يتحدث.

سألته توبينس: "من أرسلك لإيجادي هنا؟".

قال: "السيدة بوسكوان".

قالت توبينس: "هذا ما توقعته".

خرجت توبينس مع الساحرة الطيبة من الباب السري وهبطا الدرج.

منزل للعشاق، هذا ما قالته إيما بوسكوان لتوبينس. حسنًا، هذا ما كان عليه المنزل وتوبينس تغادره؛ إذ كان يحوي عاشقين، ماتت المعشوقة وبقي العاشق حيًا يتعذب.

خرجت توبينس من الباب إلى حيث ينتظرها تومي والسيارة.

ودعت توبينس الساحرة الطيبة، وركبت السيارة.

قال تومي: "توبينس".

قالت توبينس: "أعرف".

قال تومي: "لا تفعلي هذا مرة أخرى. إياكِ أن تفعلي هذا مرة أخرى".

قالت توبينس: "لن أكرر ذلك".

قال تومي: "هذا ما تقولينه الآن، لكنك ستخالفين كلامك".

قالت توبينس: "لا، لن أفعل هذا. أنا امرأة كبيرة في السن".

أدار تومي المفتاح، وغادرا بالسيارة.

قالت توبينس: "نيلي بلاي المسكينة".

قال تومي: "لماذا تقولين هذا؟".

قال: "إنها متيمة بفيليب ستارك. لقد فعلتْ كل هذه الأشياء طوال هذه السنوات من أجله، وتفانت في حبه تفانيًا مهدرًا".

قال تومي: "هذا هراء. أعتقد أنها استمتعت بكل لحظة في ذلك. هكذا بعض النساء".

قالت توبينس: "أنت قاسٍ بلا قلب".

قال: "إلى أين تريدين الذهاب؟ إلى الفندق في ماركت باسنج".

قالت توبينس: "لا، خذني إلى البيت. بيتنا، يا توماس. وابقَ بجانبي هناك".

قال السيد بيريسفورد: "هذا أفضل خيار، *وإذا استقبلنا ألبرت بدجاجة محروقة، فسأقتله!*".

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram
@soramnqraa

«لقد علمتني أجاثا كريستي العديد من الدروس المهمة بشأن التفاصيل الدقيقة لروايات الغموض قبل حتى أن يخطر على بالي أنني نفسي سأكتب روايات غموض يومًا ما».

سو جرافتون

عندما قام تومي وتوبينس بزيارة خالة عجوز في دار رعاية المسنين بتصميمها القوطي، لم يباليا بعدم ثقة الخالة في الأطباء؛ فالخالة آدا امرأة صعبة المراس على حال.
لكن عندما تحدثت السيدة لوكيت عن حساء عش غراب مسمم، وتحدثت السيدة لانكستر عن «وجود شيء غامض خلف الموقد»، وجد تومي وتوبينس نفسيهما عالقين في مغامرة مثيرة من الممكن أن تلقي بأي منهما في هوة الموت...

«أكثر رواية رهبة وغرابة قرأتها لكريستي منذ وقت طويل».

صنداي إكسبريس

استكشف المزيد على
الموقع الإلكتروني الرسمي
www.agathachristie.com

لشراء النسخة
الإلكترونية
مكتبة جرير
JARIR READER

100
عام على إصدار روايات
أجاثا كريستي

ISBN 628-1072-11-565-4
6 281072 115654
282207714

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
...not just a Bookstore

Agatha Christie®